كتاب الإصلاح

سلسلة كتب الكترونية توزع مجانا عبر البريد الالكتروني وصفحات التواصل الإجتماعي

مقدّمة لبيان موضوعيّ للقرآن العظيم

(السبع المثاني : عاصمة التفسير)

المؤلف

الهادي بريك

الكتاب الثالث والثلاثون - جوان 2021

يوزّع مجّانا عبر البريد الألكتروني

مقدّمة لبيان موضوعيّ للقرآن العظيم

(السبع المثاني : عاصمة التفسير)

المؤلف

الهادي بريك

كتاب الإصلاح

العدد الثالث والثلاثون

ISBN: 978 - 9938 - 59 - 788 - 2 :ر.د.م.ك

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

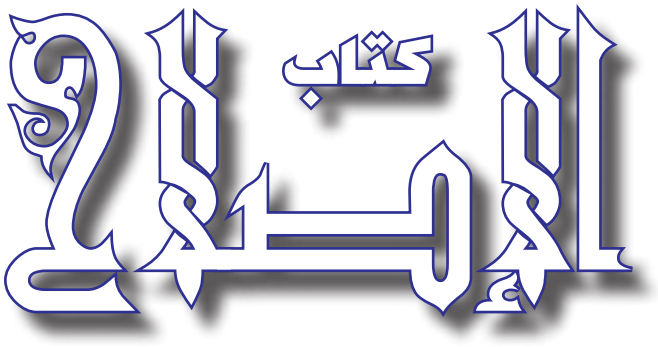

كتاب الإملاء

سلسلة كتب الكترونيّة توزع مجّانا عبر البريد الالكتروني وصفحات التواصل الإجتماعي

مدير السلسلة
م.فيصل العش
Faycalelleuch@gmail.com

المراجعة اللّغوية : علي عبيد

الأفكار والمواقف الواردة في هذا الكتاب لا يتحمّل مسؤوليتها إلاّ صاحبها

كتاب الإصلاح العدد 33

المؤلف: الهادي بريك

الكتاب: مقدّمة لبيان موضوعيّ للقرآن العظيم

(السبع المثاني : عاصمة التفسير)

الصدور : جوان 2021

ر.د.م.ك: 2 - 788 - 59 - 9938 - 978

نسخة الكترونية - يحجّر نسخها ورقيا

بسم الله الرحمن الرحيم

إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله

الفهرس

الإهداء 8

مقدمة..... 9

المحور الأوّل: وظيفة القرآن الكريم 11

القرآن لغة 12

القرآن في القرآن 15

القرآن في الحديث والسنّة 24

خلاصات من المحور الأول 28

المحور الثاني: مقدّمات حاضنة 30

المقدّمة الأولى : أمّ الفقه في الكتاب : إتباع منهجه تقديما وتأخيرا 31

المقدّمة الثانية : ما هي رسالة القرآن، وما هي مقاصده العظمى؟ 34

المقدّمة الثالثة : بين الموضعيّ والموضوعيّ : تمايز وتكامل 38

المقدّمة الرابعة : نحو بيان مقاصديّ 47

المقدّمة الخامسة : نحو بيان معاصر 50

المقدّمة السادسة : مفاتح البيان 57

المقدّمة السابعة : الكتاب والميزان صنوان 89

المقدّمة الثامنة : القرآن : كتاب الأمة وليس الفرد فحسب 94

المقدّمة التاسعة : قراءة في الهندسة الكمية للقرآن الكريم 98

المقدّمة العاشرة : القرآن يشيّد منهاجا تفكريا ولا يلقّن فكرة 101

المقدّمة الحادية عشر : فقه مقامات التشريع والمشرّع 106
المقدّمة الثانية عشر : الإعجاز المعاصر المطلوب 109
المقدّمة الثالثة عشر : بين المأثور والمنظور : معركة وافدة دخيلة......... 116
المقدّمة الرابعة عشر : أيّ دور لنا في حفظ الذكر الحكيم؟...................... 125
المقدّمة الخامسة عشر : بين البيان والتفسير....................................... 131
المقدّمة السّادسة عشر : ليس في العلم كبير ولا صغير.......................... 136
المقدّمة السّابعة عشر : نحو بيان سننيّ.. 142
المقدّمة الثامنة عشر : قراءة في فلسفة الترتيب النهائيّ 147
المحور الثالث: السّبع المثاني : عاصمة البيان 159
تأسيس الفكرة 160
مقوّمات الفكرة 162
خلاصة الفكرة من زاوية أصولية 168
تحليل للسّبع المثاني 170
عواصم البيان العظمى 177
العاصمة الأولى: من هو الله؟ 177
العاصمة الثانية: ما هو يوم الدين؟ 186
العاصمة الثالثة: ما هو الإنسان؟ 192
العاصمة الرابعة: ما هو الصّراط المستقيم؟ 208
العاصمة الخامسة: ما هي النّعمة ومن هم أسواتها الأوّلين؟ ... 220
العاصمة السادسة: من هم المغضوب عليهم؟ 229
العاصمة السابعة: من هم الضّالّون؟ 237
المحور الرابع: خلاصات نهائية وحصائل ختامية 247
القسم الأوّل من الخلاصات 248
القسم الثاني من الخلاصات 255
كلمة الوداع 261

الإهداء

الحمد لله الذي يسّر لي فاتحة حلمي وفجر أملي. إذ أنّي أعدّ لهذا البيان الموضوعيّ الجامع للقرآن الكريم منذ عقدين. فلا يكاد يمضي عليّ يوم واحد من دون أن أعالجه في نفسي وأحرّر فيه شيئا.

هذا الكتاب هو فاتحة ذاك الأمل وفجر ذلك العمل الذي إستبدّ بسويداء فؤادي سنوات طويلات. هو مقدّمة ذلك البيان. عسى أن تنطلق أسفاره تجني من جنان الدوحة القرآنية الظليلة الغنّاء ما تجني.

خلاصة هذه المقدّمة المخصّصة للإهداء أنّ سورة الفاتحة (السّبع المثاني بالتعبير القرآنيّ) هي قاعدة التفسير وعاصمة البيان بحسب ما تبيّن لي بعد عكوفات متأنية في ذلك المحراب. كلّ ذلك سأتولى شرحه بحوله سبحانه في المقدّمات الآتية. عدا أنّي بدأت هذا الإهداء بحمد وليّ النعمة الأعظم سبحانه.

أهدي هذه المقدّمة إلى خير من تعلّم القرآن وعلّمه سيّدي محمّد إبن عبد الله صلّى الله عليه وسلم وبارك وعلى آله وصحبه. إذ لولا سنّته الكريمة وسيرته العطرة ما كان لمؤمن أن يفقه من هذا الكتاب شيئا. فهو من تولّى تبيينه قولا وعملا.

كما أهدي هذا العمل إلى والديّ الكريمين اللّذين كانا أمّيين بالكامل. ولكنّهما جاعا وظمآ لأنهل من مكارع العرفان. كيف لا وهما أولى الناس بالشّكر بعد وليّ النعمة الأكرم سبحانه؟.

كما أهدي هذا العمل إلى كلّ من علّمني يوما واحدا حرفا واحدا في صباي وطفولتي أو في شبابي أو في كهولتي أو في شيخوختي وأنا أغذّ السير إلى السبعين غذا معجّلا. لا أخصّ من هؤلاء واحدا بالذكر إذ أنهم كثيرون لا يحصون. منهم من إحتضنني وأنا إبن خمس. هو سيّدي المؤدب الذي يحفظّنا القرآن الكريم في كوخ من الحطب متهافت متهالك لا يقينا حرّا ولا قرّا ولا صرّا ولا حتى نباح كلاب أو عواء ذئاب. ومنهم من إستلمني من بعد ذلك فكان يشتري لنا من ماله الخاصّ لعبا يلاعبنا بها هو بنفسه في أوقات الرّاحة. ومنهم من قسا عليّ رحمة فأدّبني بعصاه. ومنهم من تعلّمت منه أصول العلم من بعد ذلك في خلايا تنظيمية سرّية أن تنالنا أيدي العلمانية المتطرّفة في تونس وهي تتدثّر بالسلطان. ومنهم من تعلّمت منه عن بعد إذ حبّب إليّ والدي الأمّيّ بالكامل عليه الرحمة القراءة. فكنت ألتهم ما يكتب العلماء إلتهام المنهوم الذي لا يشبع. ومنهم من تعلّمت منه فقه الحياة معاشرة ومعافسة.

كما أهدي هذا العمل إلى الصديق المهندس والإعلاميّ فيصل العشّ الذي يتولّى في كلّ مرّة تشذيب كتابي وتهذيب عملي ليخرجه أنيقا جميلا.

أهدي هذا العمل إلى أهل القرآن الكريم والمستضيئين بنوره والمهتدين بهديه سائلا أن يكون لنا نبراسا منيرا في الحياة وشفيعا يوم الدين.

منهج التأليف

يقوم منهج التّأليف في هذا الكتاب على أعمدة أربعة:

أوّلها : إستقراء وظيفة القرآن الكريم من القرآن نفسه و ممّا صحّ من الحديث الشّريف؛

ثانيها : توفير مقدّمات تحتضن هذا العمل. هي فكرة مقتبسة من الإمام إبن عاشور الذي وطّأ لتفسيره بمقدّمات عشر كانت من خير زادي عامي 1987 و1988 لمّا كنت في سجن برج الرّومي في مدينة بنزرت التّونسيّة. وقد منّ اللّه عليّ وعلى بعض إخواني بمن يسبر لنا أغوارها. تلك سنّة حسنة في البيان والتّفسير لا أعرف أحدا ـ عدا ذلك الإمام النّحرير ـ سنّها. وهي توفّر على طالب العلم كثيرا من الجهد وتساعده على حسن الفهم ودقّة الفقه؛

ثالثها : العكوف على فاتحة الكتاب (السّبع المثاني) بغرض إستنباط مبانيها التي تؤسّس للدّين كلّه : إيمانا وإسلاما وعبادة ومنهجا في الحياة. وبغرض إلتقاط الخيط النّاظم لتلك المباني توحيدا للدّين والعبادة. وهو الأمر الذي تعلّمته من التّفسير التّوحيديّ للدّكتور حسن التّرابيّ. إذ قام

كتابه على إلتقاط الخيط الواحد النّاظم لشعب الإسلام.

أسّ كتابي هذا هي أنّ السّبع المثاني إحتضنت الكليّات العظمى والمحكمات الكبرى للقرآن الكريم كلّه. بل هي ربّان ذلك الكتاب وقائده وسفنه وباب الإستقبال فيه؛

رابعها : إستخلاص حصائل راسخة ثابتة من هذه المقدّمة تكون نهاية لزعمي أنّ السّبع المثاني هي السّفن القائد والربّان الهادي. وبداية المشروع الكبير بيانا موضوعيّا مقاصديّا جامعا للقرآن العظيم.

المحور الأوّل
وظيفة القرآن الكريم

القرآن لغة

القرآن على وزن فعلان. وهي من أعلى أوزان المبالغة: من مثل رحمان وشيطان ووسنان. وهي من : قرأ يقرأ قرء وقراءة وقرآنا. (قرأ) كما يبدأ حرفها الحلقي المفخم (ق) بنحت هويّتها تعني : جمع الشّيء ـ أو الأمر ـ بقوّة وأحاط به. سمّيت المدّة التي تقضيها المرأة على طهر أو على طمث (قرء) بسبب أنّها مجموعة من الأيّام واللّيالي المتّحدة في زمن واحد والملتصقة بجسم واحد والمتكافلة على أداء دور واحد. المعنى المؤسّس لهذا الجذر الثّلاثي (ق ر ء) هو معنى الجمع بقوّة والإحاطة بجدّ. كما تقول العرب : أقرأت ضيفي. أي جمعت له كلّ ما عندي ليهنأ ويسعد ويأمن.

قال سبحانه لنبيّه ﷺ :«سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى»[1]. الفعل هو : أقرأ ـ يقرئ ـ إقراء. الإقراء معنيان : ماديّ ومعنوي. الإقراء الماديّ هو كمثل إقراء الضّيف. الإقراء المعنويّ هو أن يجعله قارئا. كيف يكون كذلك وهو أمّيّ ﷺ؟ هذا دليل على أنّ القراءة ليست بمعناها العرفيّ. وإنّما هي بمعناها الشّرعيّ. إذ أنّ أقرأ الصّحابة ليس بالضّرورة أن يكون قارئا أي ليس أمّيّا. إنّما يكون قارئا أي يحسن القراءة ـ ولم يكن لديهم في تلك

[1] سورة العلق - الآية 6.

الأيّام مصحف يقرؤون منه ـ كما يحسن الفقه.وما سمّي ما نقرأه مقروء سوى لأنّه مجموع من حروف ومن كلمات. إذ لا يقرأ إلاّ ما كان مركّبا من أشياء متجانسة متماثلة. ومن ذا تولّد المعنى المجازيّ من القراءة. إذ تقول العرب: قرأت في وجهه بهجة. أي تفرّست في وجهه وجمعت تضاريسه، وفهمت أنّه في حالة بهجة. كما نقول : إقرأ سلامي على فلان. أي إجمع حركتي أو كلامي بقوّة وأرمه عليه.

(قرية) : أين يكون النّاس في حالي إقراء بعضهم لبعض وللضّيف من جهة، وتجانس وتجاور من جهة أخرى.

القرآن لغة ما يقرأ بكثرة وشدّة وقوّة ومواظبة ومثابرة وتعلّق وتعاهد ولزوم. ولا يطلق القرآن على آخر كتاب سماويّ فحسب. إنّما يطلق على كلّ كتاب ثبتت له الصّفة السّماوية. ولذلك قال سبحانه: «وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا»[2] وليس المقصود هنا بالرّسول محمد ﷺ. ولا بالكتاب الذي أنزل عليه. وسمّي القرآن الكريم قرآنا بسبب أنه ما أنزل إلاّ ليقرأ بقوّة وجدّ وكدّ وشدّة ومواظبة ومثابرة وعناية وإهتمام بمعنيي القراءة. وسمّي كذلك بذلك بسبب أنه مجموع لا يفرّق ويتكافل بعضه مع بعضه لأداء معنى. أي مبنى القراءة الذي قال فيه سبحانه:«فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ» [3]. أي إقرأه وأقرئه النّاس بحسب ما قرأه عليك جبريل عليه السّلام. أو معنى القراءة إذ أنّ القراءة لا ينفصل مبناها عن معناها. أي حرفا وحدّا. كما بيّن ذلك حبر الأمّة إبن عباس عليهما الرّضوان.

---

[2] سورة الفرقان - الآية 30.

[3] سورة القيامة - الآية 18.

والقرآن الكريم هو كذلك واقعا مهما ضعفت الأمّة. إذ لا يوجد كتاب في التّاريخ لقي من العناية بمثل ما لقي القرآن الكريم من النّاس حرفا وحدّا. إذ إنتهى به الأمر أن يُكتب على القراءات العشر ورواياتها. ويحفظ من عدد كثير من المسلمين. ويعلم حده الأدنى عقائد وقيما وعبادات وشرائع وشعائر. وما إلى ذلك ممّا علم منه ومن الدّين بالضّرورة. وما ذلك سوى لأنّه محفوظ بإرادة إلهيّة قد نعلم بعض مظاهرها وقد لا نعلم مظاهرها الأخرى. لذلك كلّه سمّي هذا الكتاب العزيز قرآنا. كيف لا وهو كتاب الجنّة، كذلك وهو أمّ الكتاب في السّماء وبأيدي سفرة كرام بررة؟ بل كيف لا. وهو الكتاب الوحيد الذي يتعبّد بتلاوته تعبّدا ويؤجر عليه من يقرأ منه حرفا واحدا وهو لا يعلم منه شيئا بسبب اللّسان.

القرآن في القرآن

خير من يتحدّث عن القرآن الكريم هو القرآن الكريم نفسه. ومن بعد تتبّع لم يحط إستقراء كاملا بكلّ المواضع تبيّن لي ما يأتي:

من صفاته المذكورة فيه وأسمائه

أنّه ذو الذّكر، بمعنى أنّه يذكّر النّاس بحقيقة رسالتهم وما عليهم فعله وغير ذلك. وأنّ فيه ذكرهم، أي مجدهم الذي يرفعهم بين النّاس، فلا يسترقّون ولا يستعبدون ولا يهانون، وأنّه ذكرى للعالمين. وهو تذكرة وذكر وغير ذلك ممّا ينتهي إلى المعنى نفسه. أي أنّ من يلزم ما جاء فيه ينبذ الغفلة، فيكون ذاكرا لرسالته التي لأجلها هي خلقه اللّه سبحانه.

كما ورد أنّه ينذر النّاس ويبشّرهم في الآن نفسه. فهو نذير يرهّبهم من الوقوع فيما وقعت فيه الأمم السّالفة التي خالفت المنهج الإلهي، فأخذها بذنبها. كما ينذرهم العاقبة السّيئة من بعد الموت. وهو يبشّرهم في الآن نفسه بالحياة الطيّبة وبحياة الحيوان من بعد ذلك في الجنّة إذا أطاعوا اللّه فيما دعاهم إليه. كما ذكر أنّه شفاء مرّة بإطلاق ولكن للمؤمنين فحسب. ومرّة بتقييد مفاده أنّه شفاء لما في الصّدور. أي هو شفاء عقليّ وذهنيّ

وفكريّ ونفسيّ وروحيّ. وغير ذلك ممّا يلي الشّخصيّة المعنويّة للإنسان. وذكر أنّه رحمة وهدى، وأنّه كريم وحكيم ومبارك وغير ذي عوج وعليّ. والحديث دوما عن القرآن وليس عن الأوعية التي يمكن أن تحفظ القرآن الكريم. وهو تمييز لا مناص منه لمن يريد علما. إذ الأوعية تختلف من زمان لآخر ويطالها ما يطال كلّ شيء.

ولكنّ القرآن الكريم الذي هو غير وعائه محفوظ بإرادة رحمانيّة ربّانية. وذكر أنّه مجيد. والمجد هنا يلتحم مع صفة الذّكر. ذلك أنّ المجد هو العلوّ والرّفعة والخلود. والذّكر سبيل إلى ذلك، ولذلك قال عنه سبحانه أنّه فيه ذكركم: «لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ»[4]. أي مجدكم التّليد لمن ينشد مجدا وذكرا ومنزلة رفيعة تتوافق ورسالته وهويّته الإنسانيّة.

وذكرأنّه عزيز، وهذا الإسم يقترن كذلك مع صفات التّحدّي التي وردت في القرآن الكريم مرّات. إذ تحدّى اللّه سبحانه العرب الأقحاح السّلائق الأوائل أن يأتوا بمثله أو بشيء منه فكبّتوا تكبيتا. فمنهم من آمن وفاء لصنعته ومنهم من غره الكبر، فكفر عن بيّنة. القرآن الكريم عزيز بمعنى أنّه لا يقدر على مثله أحد من هذا الجانب، وله جوانب عزّة أخرى. وممّا يحذو حذو العزّة فيه أنّه نزل بالحقّ وهو الحقّ. كما ذكر أنّه حيال الكتاب السّالف مصدّق لما بين يديه. أي لما سلفه من كتاب سماويّ. هذه دعوة رفيقة إلى أهل الكتاب أن يؤمنوا إذ جاءهم كتاب بمثل كتابهم يدعو إلى التّوحيد وليس هو بدعا. وأنّه مهيمن على كلّ تلك الكتب السّالفة هيمنة

---

[4] سورة الأنبياء - الآية 10.

نسخ. إذ أنّه بعد نزوله لا يقرّ صاحب كتاب سماويّ سالف على دينه. وهيمنة علوّ ورفعة، لأنّه جاء متّحدا مع الكتاب السّالف في الجذر التّوحيديّ العقديّ الأعظم. ولكنّه فاق ذلك الكتاب كلّه بالتّشريع والخلود وغير ذلك.

كما ذكر أنّه لا ريب فيه دعوة إلى ناشد الحقّ أن يتواضع في حضرة هذا الكتاب. وقد تصدّق ذلك. إذ ما تهافت متهافت على هذا الكتاب ليجد فيه خطأ يسفّهه به إلاّ ووقع في حبائل حقّه الكريمة. ولكنّ نبذ الرّيب عنه لا يعني نبذ التّفكّر والتّدبّر والنّظر. بل على الضدّ من ذلك. فإنّ تلك هي عملة هذا الكتاب التي بها يقتني ناشد الحقّ المخلص عقيدة صحيحة وإيمانا لا ينفد.

كما ذكر مرّات كثيرات أنّه بلسان عربيّ وميسّر ومبين، وهو أمر مرتبط أشدّ الإرتباط بصفة التّحدّي سالفة الذّكر. والعربيّة هنا هي عربيّة اللّسان وليس عربيّة العنصر بحال. وأنّه ميسّر للذّكر فهما وفقها بنظمه العجيب، وميسّر كذلك للتّزكية والأوبة إلى اللّه سبحانه، لأنّه يخاطب العقل والقلب معا بما يقنع من يريد الحقّ عفوا من أدران الكبر وأشراك الغرور. وأنّه بذلك مبين لا يحتاج إلى واسطة بأيّ ضرب من ضروب الوساطة. وهو هنا يتميّز عن الكتاب السّالف والدّين السّالف بكلّ معاني التّميّز.

وذكر أنّ من وظائفه أنّه يهدي للتي هي أقوم. وليس القويم فحسب. بل بصيغة المبالغة العظمى الممكنة هنا تركيبا، أي الأقوم. ومعلوم أنّ نظمه يدعو دوما إلى الأحسن وذلك هو القرآن الكريم : طموح ويعلّم الطّموح. والأقوم هي الصّراط الأوسط إعتدالا وتوازنا في كلّ شيء من الإعتقاد والعبادة إلى القيم والمعاملات وفي كلّ الأحوال. ولذلك تركها مرسلة

لتضمّ إليها كلّ جوانب الحياة. وأنّه يصرّف للنّاس لأجل التّذكير والتّعليم والتّزكية وبلوغ الأقوم من كلّ مثل. فهو يأتي بخير التّفسير لكلّ مثل جاء به النّاس في تلك الأيّام وفيما يليها. ويمتلأ بالقصّة والمثل ليعلّم النّاس التّزكية والمعالجات القويمة في كلّ جوانب الحياة.

وأنّه تبيان لكلّ شيء ممّا يحتاج إليه النّاس سواء على سبيل التّعيين أو على سبيل الإشارة والإقتضاء إجتهادا من النّاس بناء على أصول تضمّنها.

وأنّه يهدي النّاس ويخرجهم من الظّلمات إلى النّور. إذ الظّلمات كثيرة تتنوع ولكنّ النّور واحد لا يتعدّد. وأنّه ما نزل عليه ﷺ ولا على غيره ممّن يتّبعه ليشقى. ونفي الشّقاء يعني تنزيل السّعادة التي عبّر عنها بالحياة الطّيبة للمؤمن في الدّنيا وبالحيوان في الآخرة. فما كان من شقاء حقيقيّ فليس هو من الإسلام وشريعته إلاّ أن يتلبّس به ذلك فينبذ.

ومن ذلك أنّه نبذ الحرج والعنت والمشقّة. كما أخبر عن آياته بمعنى كلماته ومتونه ـ وليس بالمعنى الماديّ ـ أنّها في الآن نفسه محكمة ومتشابهة ومفصّلة. فهي محكمة لا يبطلها زمان ولا مكان. وهي متشابهة نظما عجيبا يملأ كلّ سياق بما يناسبه. وهي مفصّلة لا يتداخل بعضها ببعض، فيحصل منها غموض إو إبهام. وليس التّفصيل بالمعنى العرفي هنا. أي إشتمال القرآن الكريم على الأحكام التّفصيليّة كلّها.

كما أخبر أنّه نزل مفرّقا في الزّمان والمكان والحال على إمتداد زهاء ربع قرن إلاّ قليلا. ويسمّى ذلك التّنجيم. ومع ذلك كان متماسكا متلازما متناظما لا ريب فيه، إنّما يفسّر بعضه بعضا ويبيّن بعضه بعضا ويفضي

بعضه إلى بعض في تناغم عجيب وتناسق أعجب. وأنّ الغرض من ذلك الفرق هو أن يقرأ على النّاس على مكث ليحصل منه الفهم والفقه والإستيعاب. وليعالج الحدث النّازل الواقعيّ من جانب آخر. وهو على ضدّ رغبة الكافرين هزوا أن ينزل جملة واحدة. أمّا الجِنّة فقد وصفته بأنّه كان عجبا ولذلك قال سبحانه لنبيّه عنه: «بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ»[5].

وهو كتاب يدعو إلى العجب. ومن يعجب ينشدّ إلى المعجب به فيكرع منه وينهل. ومن يسخر كبرا وغرورا فلن يظفر بشيء. كما سمّى نفسه بيانا وبلاغا للناس كافّة. وهو ما نسمّيه نحن اليوم إعلانا. كما سمّى نفسه فرقانا (سورة الفرقان المكّية) ونورا وموعظة.

ومن صفاته التي أكّدها مرّات تثبيت الذين يتنزّل عليهم بداية من النبيّ محمد نفسه ﷺ ونهاية بالعصبة المؤسّسة الأولى وكلّ من يتّخذ الصّراط ذاته. ومن هذا نرى أنّه لا يستمتع بالقرآن الكريم لواذا وحصنا ومطعما على مسبغة وريّا على ظمإ ومأمنا على خوف عدا من يكون في حياته في حال مقاومة ومعافسة ومناكحة للحياة صابرا كالقابض على الجمر بالتّمام والكمال. أمّا الفارّ فلا يغني عنه أيّ عنوان إستخدمه لفراره. سواء كان هلاك النّاس الذي نهينا عن إعتقاده، أو فساد الزّمان، أو إشتداد وطأة الظّلم. كلمة واحدة لا خلاف عليها : القرآن الكريم بُلْغة المقاوم الصّابر، فهو الذي يغذّيه بالثّبات كما تغذّي الأمّ بلبنها ولدها الرّضيع.

---

[5] سورة الصافات – الآية 12.

وظيفة الإنسان العظمى هي : التدبّر

من ذلك أنّ القرآن الكريم خاض معركة المصدريّة خوضا كبيرا. فهو يؤكّد في كلّ مرّة سيما في السّور المكيّة أنّه من عند اللّه سبحانه. وأنّه ليس من تنزيلات الشّياطين. وغير ذلك ممّا يعرفه من يستقرئ القرآن الكريم. لأنّها كانت معركة ضروريّة. فمن إنتصر فيها إنتصر بالنّهاية، ومن خسرها فقد خسر النّتيجة. ولذلك خاضها القرآن الكريم مؤكّدا المصدريّة الإلهيّة لهذا التّنزيل.نحن اليوم لا نشعر بذلك لأنّها معركة خيضت وحسمت، ولكن علينا إستحضار بيئات التّنزيل ومناخاته، فهو يعمّق الفهم ويجوّد الفقه.

كما دعا القرآن الكريم بقوّة إلى التّدبّر. بل جعل وظيفة التّدبّر هي الوظيفة الأولى التي على الإنسان خوضها ورهن بها الفهم والإيمان وأناط بها الفقه والحكمة. فقال في موضعين مستنكرا «أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا»[6]. وقال:«أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا»[7]. وقال في موضع ثالث يؤكّد أن وظيفة الإنسان حياله هي التدبّر بحسبانه مفتاح الإيمان ومفتاح الفهم ومفتاح الفقه ومفتاح الإستنباط «كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ»[8].

التّدبّر وسيلة لغاية هي : الفهم والإيمان والفقه والإستقامة العمليّة والفكريّة معا. وللتّدبّر وسائل كذلك ذكرها القرآن الكريم نفسه وهي :

---

[6] سورة محمد – الآية 24.

[7] سورة النساء – الآية 82.

[8] سورة ص – الآية 29.

التّلاوة والقراءة والإستماع والإنصات. فما ينبغي لمرء أن يجهل أنّ التّلاوة والقراءة والإستماع والإنصات وغيرها إنّما هي وسائل وليست غايات. وأنّها ليست مقصودة لنفسها. وإنّما يقصد منها التّدبّر. ولا يقصد التّدبّر كذلك لنفسه. إنّما يقصد منه الفهم المفضي إلى الإيمان. وهذا بدوره يفضي إلى العمل الصالح. وغير ذلك من طريق طويل من الأسباب والوسائل والغايات والمرامي. وعلى قدر حصول المراد يكون الأجر والثواب.

أمّا البركة في هذا الكتاب، فهي بركة إيمان وتجدّد إيمان يثمر الخير وينمّي الصّلح والصّلاح والإصلاح والعدل وسائر القيم التي جاء بها هذا الكتاب معليا إيّاها. أمّا البركة على الطّريقة الخرافيّة الأسطوريّة التي سادت في عصور الإنحطاط ولازالت، فلا مكان لها في هذا الكتاب الذي لا تكون بركته في الإنسان والحياة إلاّ بتطويعها لقيمه وليس لغير ذلك.

كما خاض هذا القرآن الكريم معركة أخرى حامية الوطيس بمثل خوضه لمعركة المصدريّة. هي معركة الآيات المادّية التي ظلّ المشركون وغيرهم يحرصون عليها حرصا عجيبا. حتّى أنّهم أنكروا إرسال اللّه لرسول بشر وطلبوا ملكا. وناكفوا في ذلك مناكفات لا أوّل لها ولا آخر، وماطلوا وأصرّوا كما أصرّ غيرهم من الأمم السّالفة على آية مادّية لا سلطان لها على العقل بل على الوجدان تمحقه محقا، وتظلّ الأعناق لها خاضعة. ولئن إختار اللّه تلك الآية المادّية الماحقة لأقوام سابقين لحكم كثيرة ليس هنا محلّ الإنبساط فيها، فإنّه سبحانه في الرّسالة الأخيرة أغلق هذا الباب. وأبقى على آية واحدة عليها يؤمن النّاس أو يكفرون. وهي آية القرآن الكريم بما فيه من عقائد وتصوّرات وقيم ومنافع ومصالح وما يهدي إليه من سلام وأمن مع اللّه ومع النّفس ومع النّاس وغير ذلك مما فصّل فيه تفصيلا.

بل إنّه جعله بما فيه من قيم هو أصل الجهاد لقوله:«وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا»[9].

تلكما معركتان خاضهما القرآن الكريم خوضا عجيبا : معركة المصدريّة ومعركة الآية المادّيّة.

بين جهاز بثّ وجهاز إستقبال: تسليم بإحسان أو كبر وطغيان

من أشدّ ما علق به فؤادي أنّ القرآن الكريم جهاز بثّ ينطق بإسم اللّه سبحانه، فهو الحقّ ويهدي إلى الحقّ الذي ليس بعده إلاّ الضّلال. وأنّه لا يهدي بشكل تلقائيّ أو آليّ. إنّما تظلّ الهداية رهينة جهاز الإستقبال الذي تزوّد به الإنسان. فإن كان جهاز الإستقبال عند الإنسان ـ جهازه المناعيّ الرّوحي والعقليّ والمعنويّ بصفة عامّة ـ مسلّما بقوله سبحانه عن جهاز بثّه في أوّل آية يقرأها القارئ «ألم، ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ»[10] ومتّبعا له ولكن بإحسان، وليس بتقليد أعمى يقدّم المبنى ويهمل المعنى، فإنّ صاحبه مهتد بإذن اللّه سبحانه.

وإن كان جهاز الإستقبال مفعما كبرا وينضح غرورا، فإنّ جهاز البثّ القرآنيّ لا يكرهه على إيمان ولا ينفذ إلى فؤاده. الدّليل على هذه الحقيقة التي تشدّ المرء إليها شدّا هو قوله سبحانه: «وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا»[11]. هو شفاء ورحمة للمؤمن المسلّم بإحسان ذي الجهاز الإستقباليّ الممتلئ تواضعا للّه

---

[9] سورة الفرقان - الآية 52.

[10] سورة البقرة - الآيتان 1 و2.

[11] سورة الإسراء - الآية 82.

سبحانه. ولكنّه هو نفسه في الآن نفسه خسار ونقمة وعذاب لمن آثر الكبر والغرور والطّغيان.

هذه قيمة عظمى تجعل الإنسان حرّا وليس مكرها، وتجعله مسؤولا عن إيمانه وعن كفره. هذه قيمة تجعل الدّاعية إلى اللّه سبحانه لا تذهب نفسه على الظالمين حسرات أو باخعا إيّاها أنّهم لم يؤمنوا. عليه أن يعلم أنّ جهاز البثّ صاف سليم قويّ بل هو الحقّ كلّه. عليه أن يجوّد أسلوب عرضه. من بعد ذلك عليه أن يؤمن أنّ اللّه سبحانه لا يهدي الظّالمين ولا يكره أحدا عليه. عليه أن يعي أنّ سلعة اللّه غالية لا تحطّ رحالها إلاّ في فؤاد متواضع.

القرآن في الحديث والسّنة

خير من يتحدّث عن القرآن الكريم هو القرآن الكريم نفسه، ثم يكون خير من يتحدّث عنه هو نبيّ القرآن محمد ﷺ ، ربّما تكون أكثر الأحاديث من الضّرب الذي يحثّ على التّلاوة والقراءة والتّغنّي، أو التي تؤكّد أفضليّة بعض المواضع من القرآن الكريم آيات أو سورا. والغرض من ذلك هو أنّ الحديث ـ ووظيفته تبيين القرآن الكريم ـ يحرّض النّاس على تلك الوسائل التي تدفع إلى التّدبّر ثمّ إلى تجديد الإيمان وتعميق الفهم وتسوّر الفقه وغير ذلك ممّا يتنافس فيه المتنافسون. من ذلك قوله ﷺ «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجّة طعمها طيّب وريحها طيّب. ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيّب ولا ريح لها»[12]. وكذلك تشجيعه ﷺ الذي يتعتع في قراءته أنّ له أجرين. وأنّه لا حسد إلّا في إثنتين منهما من آتاه اللّه القرآن الكريم فهو يعلّمه. هذا دور التّعليم الذي جاء فيه حديث آخر عند البخاري عن عثمان: «خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه»[13]. وهذا مقصد يجنى من وسائل التّلاوة و القراءة. بل هو خير المقاصد ولذلك أناطه ﷺ

---

[12] متفق عليه عن أبي موسى الأشعري.

[13] البخاري عن عثمان إبن عفّان.

بالخيريّة المطلقة. وزاد حبر الأمّة ذلك تفسيرا عندما أخبر الصّحابة أنّ تعلّم القرآن وتعليمه يعني حرفه وحدّه. وهو ما لم تحافظ عليه الأمّة في جزء كبير منها، إذ إنصرفت أذهان النّاس في العموم إلى حرف القرآن الكريم. وهذا مطلوب. ولكن عندما يكون ذلك بإهمال حدّه أي إجتناء العلوم التي جاء بها، نكون قد فارقنا درب الوسطيّة.

كما أكّد ﷺ على بعض الآيات والسّور، إمّا لأنّها تؤمّن للإنسان العافية النّفسيّة بما تضمنه من مقاومات علميّة وقلبيّة للشّيطان. وخصّ بذلك سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران والمعوذات الثّلاث الأخيرة. ومن الآيات خصّ ﷺ آية الكرسي وخواتيم البقرة. ومن جهة أخرى فإنّ ذلك التّأكيد يحمل جرعة علميّة. ذلك أنّ تلك المواضع تكثفت فيها العقائد أو القيم العليا. وما سمّيت آية الكرسيّ بأفضل آية سوى لأنّها تصف اللّه سبحانه. ومن عرف ربّه فقد عرف نفسه وعرف رسالته وإستقامت طريقته تصوّرا وعملا وقيمة معا. ومثل ذلك في خواتيم البقرة، تلك هي البركة الحقيقيّة للقرآن الكريم، أي بركة العلم والتّقوى معا.

وما وصفت سورة الإخلاص بأنّها ثلث القرآن سوى لأنّها تؤمّن ثلث الحياة الطّيبة للإنسان. فهي تحقّق التّوحيد الصّافي عفوا من كلّ شائبة شرك، وبذلك يضمن الإنسان ثلث السّعادة. وثلثها الثّاني هو في تزكية نفسه علما وقلبا. والثلث الثّالث هو في مسيرته بالعدل مع النّاس، وبذلك تلتئم الشّخصيّة الإنسانيّة المؤمنة بالكامل حقّا للّه وحقّا للنّفس وحقّا للإنسان.

كما أخبر الحديث أنّ القرآن الكريم شفيع. وأنّ الزّهراوين منه بصفة خاصّة تشفعان. وكلّ ذلك ترغيبا في الإقبال على مائدة القرآن الكريم

وإجتباء لآلِيه المنثورة تزكية للعقل وللقلب معا وتعلّما للخير والعدل.

كما حثّ ﷺ على التّفقه الجماعيّ في حديثه الصّحيح «وما إجتمع قوم في بيت من بيوت اللّه يتلون كتاب اللّه ويتدارسونه بينهم إلاّ حفّتهم الملائكة وتنزّلت عليهم السّكينة وغشيتهم الرّحمة وذكرهم اللّه فيمن عنده»[14] ولا شكّ أنّ الفقه الجماعي أولى من الفقه الفرديّ، سيما في بعض القضايا التي تعمّ بها البلوى كما يقال قديما، أو المسائل المركّبة بصفة عامّة وتحتاج إلى إجتهاد جماعيّ.

أختم هنا مع حديث صحيح هو للحارث الأعور وهو حديث طويل جاء بمناسبة أنّ الحارث الأعور لقي النّاس في عهد الإمام عليّ عليه الرّضوان يخوضون في الحديث في المسجد (أي يعالجون قضيّة ما بحديث واحد أو بالحديث فحسب، ومن دون تبيّن سنده أو متنه أو علّته أو مناسبته، فيكثر الخلط والجدل العقيم وربّما تفرّق الصّفّ بسبب ذلك)، فهرع إلى الإمام عليّ عليه الرّضوان، فأخبره، فقال له:«أو قد فعلوها؟»، قال الحارث:«أجل». فقال الإمام عليّ عليه الرضوان :«أما إنّي سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «إنّها ستكون فتن. فقلت : ما المخرج منها يا رسول اللّه؟ قال ﷺ : كتاب اللّه فيه نبأ من قبلكم. وخبر ما بعدكم. وحكم ما بينكم. هو الفصل ليس بالهزل. من تركه من جبّار قصمه اللّه. ومن إبتغى الهدى في غيره أضلّه اللّه. وهو حبل اللّه المتين. وهو الذّكر الحكيم. وهو الصّراط المستقيم. وهو الذي لا تزيغ به الأهواء. ولا تلتبس به الألسنة. ولا يشبع منه العلماء. ولا يخلق من كثرة الردّ. ولا تنقضي عجائبه.

---

[14] مسلم عن أبي هريرة.

وهو الذي لم تنته الجنّة إذ سمعته حتّى قالوا : «إنّا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرّشد فآمنّا به». من قال به صدق. ومن عمل به أجر. ومن حكم به عدل. ومن إتبعه هُدِي إلى صراط مستقيم. خذها إليك يا أعور» [15].

ونمرّ إلى بعض الخلاصات المكثّفة من هذا المحور الأوّل.

[15] الترمذي عن الحارث الأعور

خلاصات من المحور الأوّل

للقرآن الكريم وظائف يقودها رأس إسمه(وظيفة الهدى إلى تحصيل الشفاء الجامع)، وأنّ تلك الوظائف لها أسباب ووسائل يعالجها الإنسان بنفسه، منها التّلاوة والقراءة والإستماع والإنصات لأجل التّدبّر والتّزكية معا.

القرآن الكريم شفاء جامع روحا وعقلا وفردا وأسرة وجماعة. ولا شفاء إلاّ بعيادة الطّبيب (فهو الطّبيب) الذي يكشف عن المرض ويصف الدّواء ويحيل إلى الصّيدليّة المركزيّة العظمى، أي السّنة قولا وعملا وإقرارا وسيرة. ولا شفاء إلاّ بتناول الدّواء مهما كان مرّا.

القرآن الكريم مرآة داخليّة عاكسة لما يجري في الخلف يحتاجها الإنسان العابر في هذه الحياة. كما يحتاج سائق السيّارة إلى مرآة عاكسة ليؤمّن نفسه ومن معه والنّاس من حوله.

القرآن الكريم يدلّ الإنسان على موطن سعادته ولا سعادة إلاّ بالإيمان. ولا إيمان إلاّ بالنّظر والتّفكّر والتّدبّر والسّير في الأرض إفتراضيّا وحقيقة. إذ أنّ للإنسان مدرستين لا مناص منها له:مدرسة التّاريخ (القصّة) ومدرسة الحياة (الواقع).

رسالة القرآن العظمى : من هو اللّه؟ فمن عرف اللّه عرف نفسه وعرف رسالته وعرف مصدره وعرف مأواه. وما دون ذلك تفاصيل تعبّديّة وقيميّة ومسلكيّة تأتي ـ ولو بحرج وعنت محتملين ـ راغمة، عندما يعرف الإنسان من هو اللّه.

للقرآن الكريم شقيق صنو هو ليس بشيء بدونه وهو الميزان أو الحكمة، فلا قرآن بلا ميزان، ولا ميزان بلا قرآن. من عالج تلك المعادلة العظمى بوسطيّة وتوازن فهو رجل القرآن.

القرآن الكريم يعالج كلّ واقع جديد، وإلاّ فلا لزوم له إلاّ بركة خرافيّة يحسبها الظّمآن ماء وهو أجاج.

القرآن الكريم محيط هادر لا شطآن لأعماقه ولا لضفافه. يغري الصيّاد والسّبّاح. فإذا ولجاه عرفا أنّ هدوءه الظّاهريّ شيء وحقيقته شيء آخر. فلا يجني منه هذا وذاك إلاّ بقدر ما تسلّح وتجهّز وتأمّن. وإلاّ فهو غريق تخطفه الأمواج وتلتهمه الظلمات ثمّ تدسّه في يمّ سحيق. أوّل مهارة في إجتباء لآلي القرآن الكريم هي مهارة اللّسان.

المحور الثاني:
مقدّمات حاضنة

المقدّمة الأولى

أمّ الفقه في الكتاب : إتباع منهجه تقديما وتأخيرا

للقرآن الكريم منهاج محدّد في معالجة موضوعه الرّئيس الذي لأجله تنزّل وبسط فروع ذلك الموضوع. يقوم ذلك المنهاج في المعالجة على أسّ منها أنّه يقدّم قيما وموضوعات على غيرها ويؤخّر أخرى، أي يكبّر بعضها ويصغّر أخرى. ولا ريب في أنّ أمّ الفقه وناصيته هو رصد ذلك المنهاج، إذ أنّ المنهاج مقدّم دوما على كلّ شيء. فمن فقه منهاج أيّ شيء فهمه، وله بعد ذلك معارضته أو موافقته، فذلك أمر آخر.

وما يضطرب التّفكير وتتصرّم الحياة سوى عندما يتنكّب المرء المنهاج الذي رسمه لنفسه، أو كان يسير على غير منهاج أصلا، أو يعارض أو يوافق هذا أو ذاك بدون معرفة منهاجه. ألا ترى أنّ بعضا من مظاهر التديّن المعاصر ما تنكّبت أقوم المسالك سوى لأنّها تنكّبت المنهاج نفسه. إذ كبّر بعضها المظهر وأهمل الباطن، وفي مقابل ذلك قدّم بعضها هذا وأخّر ذاك، في حين أنّ بعضها الآخر عكف على الفرد وأخّر الجماعة. وفي مقابله من كبّر الجماعة وأخّر الفرد. إلى غير ذلك من التورّمات التي لا تكاد تحصى، وتعود كلّها إلى فقدان المنهاج القرآني وعدم الإعتناء به فهما وفقهـا؟

من معالم المنهج القرآنيّ الكريم تقديمه ما يتعلّق بالإعتقادات والتّصورات بصفة عامّة وما يتعلّق منها باللّه سبحانه وتأخيره لغيرها تأخير أولويّة وأفضليّة وليس تأخير تفاهة وإحتقار أو هوان ودونيّة.

من تلك المعالم كذلك تكبيره للشّأن العامّ الجماعيّ التّكافليّ وتأخيره للشّأن الفرديّ. وبمثل ذلك هو تأخير أولويّات وأفضليّات وليس تأخيرا يقصد منه نبذ الفرد بالكلّية. معنى ذلك هو أنّ الفرد لا يقصد في الدّنيا لنفسه ولكن يقصد منه إنصهاره في المجموعة لأجل تغذيتها وتقويتها وشدّ إزرها.

ومن تلك المعالم كذلك تقديم المنهاج القرآنيّ الكريم لما يتعلّق بالإنسان حياة وعقلا ومالا ومحرّمات وكرامات وحرّيات، وما تقوم به الحياة الطيّبة. وتأخيره لما يتعلّق بغير الإنسان سيّما من العجماوات والبكماوات وما سخّر سبحانه لذلك الإنسان، وهو عمل ذو صبغة تفاضليّة دوما. وليس معنى ذلك إباحة قهر تلك العجماوات بغير إذن من تسخير أو إنتفاع.

ليس الصّدد هنا بيان معالم المنهاج القرآنيّ الكريم في أولويّاته وأفضليّاته وتراتبيّته. ولكنّ المقام هو مقام بيان أنّ القرآن الكريم ليس هو كومة من السّور والآيات والمعاني والقيم التي لا ينتظمها خيط واحد يجعلها متراكبة منضودة موحدة في وحدة موضوعيّة مقاصديّة جميلة، فيها المقدّم وفيها المؤخّر وفيها الكبير وفيها الصغير.

هذا هو غرض هذه المقدمة الأولى، أي أنّ أوّل خطوات الفقه في هذا الكتاب العزيز هو العلم بأنّ لذلك الكتاب منهاجا معلوما، يستقرأ بيسر وسهولة لمن يريد ذلك. فإذا علم المنهاج علمت المقدّمات وعلمت المؤخّرات

وعرفت المكبّرات وعرفت المصغّرات. والثمرة الطيبة هي إنبناء العقل المسلم المعاصر وفق ذلك المنهاج، فهو يقدّم ما قدّمه المنهاج ويؤخّر ما أخّره ويكبّر ما كبّره ويصغّر ما صغّره. فمن لم يفعل مثل ذلك فقد عالج القرآن الكريم الذي تباهى بنسيجه النّظميّ العظيم وبيانه الباهر وإعجازه التشريعيّ على أنّه كومة تبن لا فرق فيها بين جزء وآخر. وغدا من يبحث في القرآن الكريم عن منطق ناظم كمن يبحث في تلك الكومة عن إبرة أو قشّة ذات لون مختلف.

ألا ترى أنّ الكتاب قدّم من النّاحية الكمّية القصّة والمثل تقديما كبيرا لا يضاهيه فيه سوى تقديمه الكون وتضاريسه؟ من يقرأ القرآن الكريم مرّة واحدة فلا يستثيره ذلك فعليه مراجعة نفسه. ذاك لأنّه كمن يرى في الأفق في أرض ملأت جبالا، فلا يرى من الجبال شيئا، بل يرى الأرض منبسطة.

ألا ترى أنّ ذلك المنهاج القرآنيّ الكريم ينشئ ويعيد ويبدئ وينتهي في كلّ نظمه السّاحر ليعرّف النّاس بمن هو اللّه الذي يدعو إلى عبادته وحده؟ من فاته ذلك فقد فاته كلّ شيء، بل هو يقرأ بعينه وليس بعقله. أو هو يردّد كلاما حفظه كما تحفظ الأشرطة المعاصرة والأقراص المضغوطة كلاما كثيرا، فإذا ضغط عليها صاحبها إستحضرت ذلك الكلام مهما كان كثيرا. ليس هو ذاك الحفظ الذي أُمرنا به، إنّما الحفظ الأوّل هو حفظ القلوب وأوعية العقول. فإذا كان الحفظ حضور ذاكرة فحسب فيا خيبة المسعى.

خلاصة هذه المقدمة هي أنّ للقرآن الكريم منهاجا معلوما يفقهه كلّ مستقرئ يقظ نابه متدبّر. مراد ذلك المنهاج الأسنى هو إنشاء عقل إسلامي معاصر وفق ذلك المنهاج الجامع بين أطرافه عرضا وطولا. ولكن تلك الأطراف التي يجمع بينها مختلفة في الكمّية والقوة والصّراحة والثّواب والعقاب في الآخرة

المقدّمة الثانية

ما هي رسالة القرآن، وما هي مقاصده العظمى؟

للقرآن الكريم رسالة وهدف دون ريب، وقد تكفّل منهاجه بذلك. السّؤال الذكيّ هو أنّى لنا أن نعرف تلك الرّسالة؟ وكيف نتوصّل إلى فقه المقاصد العظمى التي جاء القرآن الكريم بها إلى النّاس؟

أيسر سبيل إلى ذلك هو سبيل الإستقراء الكامل، أي تتبّع الآي آية آية وتخزينها والتشبّع بها، ثمّ النّظر فيها تدبّرا وفهما وفقها بمفاتح أشير إلى بعضها فيما يأتي من هذه المقدّمات.

أخطر شيء هنا هو الإستقراء الناقص، أي أخذ عيّنة إعتباطيّة كما يقول علماء الإجتماع، لأنّ ذلك هو النّظر الجزئيّ الممقوت. النّظم القرآنيّ الكريم نفسه لم يبخل على النّاس بإثبات تلك الرّسالة ومقاصدها العظمى في أدلّة جزئيّة وأخرى كلّية وعامّة وفي مواضع كثيرة. عدا أنّه لا مناص من جمع تلك المواضع كلّها بعضها إلى بعض حدبا خلف نظر موضوعيّ مقاصديّ جامع.

من الوسائل كذلك معرفة ما قدّمه النّظم القرآنيّ الكريم على غيره تقديم تكبير وتعظيم. فما كان يكرّ عليه كرّا عجيبا يبدئ فيه ويعيد في كل

مرّة، وحين لا بدّ أن يكون أمرا عظيما مقدّما. وما لا يذكره إلاّ قليلا ليس له الشّأن ذاته. وما رتّب عليه عقوبات في الدّنيا أو وعيدا في الآخرة أو أغلظ فيه القول وأنكره بقوّة وشدّة فأتبعه بلعنة أو غضب، لا بدّ أن يكون كذلك مقدّما كبيرا معتبرا بشدّة وقوّة. وما كان خلاف ذلك فهو أهون شأنا. وما عبّر عنه سبحانه بلفظ الإرادة فهو كبير دون ريب. وما جاء بالنّداء الجماعيّ وهو موضع تشريعيّ كما سنرى لاحقا «يا أيّها الذين آمنوا»، فهو مقدّم كبير، وليس هو صغيرا.

ومعلوم أنّ الخطاب في القرآن الكريم لا يكون إلاّ بصيغة الجمع، وما كان بمبنى الفرد فهو إمّا خاصّ به ﷺ. أو هو بمثل ذلك ثوبا ولكنّ معناه الجماعة في مثل نداءات النوع (يا أيّها الناس). لست بصدد إحصاء الأسباب والمداخل التي تقود إلى إعتبار هذا مقدّما كبيرا معظما وإعتبار غيره مؤخّرا صغيرا، ذلك يطول الحديث فيه. ولكنّي بصدد التّشديد أنّ لهذا القرآن الكريم رسالة تحمل مقاصد عظمى.

القرآن الكريم في الأغلب لا يهتمّ بالوسائل التي فوّت فيها لنبيه ﷺ إلاّ ما كان متّصلا بمساحات ثلاث عظمى هي : العقائد والعبادات والأسرة. الأصل العامّ أنّ القرآن الكريم هو كتاب كلّيّات وخيارات وتوجّهات. وليس كتاب وسائل. بخلاف السّنة قولا وعملا في الأغلب إذ هي المتكفّلة بالتّبيين. والتّبيين يحتاج إلى وسائل.

أعترف أنّ تحديد رسالة القرآن الكريم ومقاصده العظمى أمر يتهيّب دونه المرء الذي يحترم نفسه. ليس لأنّها غير معلومة. ولكن لأنّها لفرط إنبثاثها فيه وإرتباطاتها بسياقاتها تحتاج إلى عمليّات إستقرائيّة صحيحة تجري على تأنّ وتمهّل وتدبّر، لا عجلة فيها. ولكن لا بدّ ممّا ليس منه بدّ

كما قالت العرب. تبيّن لي أنّ رسالة القرآن الكريم هي هداية النّاس كلّهم إلى اللّه سبحانه لضمان حياة طيّبة لهم في الدّنيا، ولمثل ذلك وأجزل عطاء في الحياة الحيوان. رسالة هداية عامّة جامعة شاملة للفرد والجماعة وفي كلّ زمان وفي كلّ مكان وفي كلّ حال، وعرف ووضع، وفي كلّ جانب من جوانب الحياة.

رسالة هداية للعقل الذي يقود الإنسان كما يقود الربّان سفينته. فمن سلم عقله ومنهاجه التفكيريّ سلمت جوارحه وطابت حياته. كيف لا، والعرب تقول : «كيف يستقيم الظلّ والعود أعوج؟».

من وسائل تلك الرّسالة : التّذكير بالتّاريخ الذي حمل لنا من التّجارب البشريّة ما لا يحصى. ولذلك إمتلأ القرآن الكريم بالقصّة إلى مستوى الثّلث وزيادة، والثلث كثير. من لا يستثيره ذلك فعليه أن يتّهم نفسه بالغفلة. تلك الملحمة القصصيّة في عرض التّجارب السّابقة ـ غيضا منها لا فيضا ـ تركّبت من تجربة نوح وتجربة هود وتجربة صالح وتجربة إبراهيم وتجربة لوط وتجربة شعيب وتجربة موسى عليهم السّلام جميعا.

أنظر بنفسك لترى أنّ تلك الملحمة القصصيّة تتكرّر تكرّرا عجيبا. ثم سل نفسك : «لم يا ترى؟»، لن تظفر بغير هذا الجواب الصّحيح، وهو أنّ القرآن كتاب يدعو إلى التّدبّر في القصّة الخالية لأجل التّذكّر. فمن تدبّر تذكّر، ومن تذكّر حضر وتنكبته الغفلة. ومن أحاطت به الغفلة إفترسه الشّيطان دون ريب وأفلح في نظمه في حزبه. تلك هي الرّسالة العظمى فيما قرأت وعلمت، أي رسالة الهداية. وذلك هو سبيلها الأكبر، أي سبيل القصّة التي تعزّرت بالنّظر الكونيّ. وما عدا ذلك ثمرات ونتائج حتّى لو كانت كليّات كبرى، من

مثل الدّعوة إلى الإصلاح والعدل والقسط والبرّ والإحسان والمعروف والفضل والرّحمة والعفو والرّأفة والتّعارف والعلم والمعرفة وتسخير الكون وبسط السّلم ومقارعة الإكراه وقيم أخرى عظمى.

لا مناص من القول بأنّ القرآن الكريم ما جاء سوى لترسيخ هذه المنظومة القيميّة الإنسانيّة العظمى في النّفس وفي الحياة : «عبادة اللّه وحده لا شريك له سبحانه» مع «تزكية الإنسان فردا وجماعة تزكية روحيّة وعقليّة معا، أي تزكية جامعة شاملة لمركبات الإنسان في وحدته» مع «عمارة الأرض بقيم الحق والخير والقوّة».

إختصر القرآن الكريم في بعض مواضعه مقصده الكليّ الأعظم في قيمة العدل. ولكنّه كعادة نظمه دوما ينقبض وينبسط بحسب حاجة السّياقات المتنوعة، فيعبّر عن تلك القيمة بتعابير أخرى. وليس كالعدل يوفّر للإنسان حياة طيّبة. وليس كالعدل يوفّر بمثل ذلك وأجزل حياة الحيوان في الآخرة. فمن هدي إلى العدل علاقة مع ربّه سبحانه أي عبادة مبرأة من الشّرك، وعلاقة مع نفسه توازنا فيها، وعلاقة مع النّاس إحسانا وبرّا، فقد هُدي إلى صراط مستقيم.

المقدّمة الثالثة

بين الموضعيّ والموضوعيّ : تمايز وتكامل

أملي كلّه ورجائي أجمعه هو أن يمدّ الله في العمر والسداد معا لعلّي أنجز هذا العمل الكبير كما عزمت وإرتأيت. هذا الكتاب هو مقدمة لبيان موضوعيّ مقاصديّ جامع للقرآن العظيم. فما هي الموضوعية بدل الموضعية؟ وما هي المقاصدية بدل الوسائلية وما هي المعاصرة بدل التراثية؟

الموضوعية مع الموضعية

البعد الموضوعيّ في هذا العمل يعني الإحاطة ببيان القرآن الكريم في مستويين :

- المستوى الأدنى الجزئيّ وهو مستوى السّورة، وهو المنهج الذي إلتزمه بعض المتأخّرين، منهم العلامة إبن عاشور[16]، وسيد

---

[16] محمد الطاهر بن عاشور (تونس، 1296 هـ/1879-13 رجب 1393 هـ/12 أوت 1973) عالم وفقيه تونسي.

قطب[17] في ظلاله الشّهيرة، والترابي[18] في تفسيره التّوحيدي. لا أعلم فيما درست ورأيت عدا هؤلاء الثّلاثة من حبّر سياقات إبتدائيّة في مفتتح كلّ سورة إحاطة بموضوعها وهي سنّة حسنة.

- المستوى الثّاني وهـو المستـوى الكليّ العـامّ، أي مستـوى الموضـوع في القرآن الكريم كلّه. وهو الأمر الذي لا يزال بكرا لم يجترحه مجترح حتّى هذا اليوم. المقصود بالموضوع هنـا هو أيّ موضوع عالجه القرآن الكريم (الإلهية ـ الأسرة ـ العبادة ـ الجهاد) إلى غير ذلك من مئات المواضيع التي عالجها القرآن الكريم .

البعد الموضوعيّ في البيان ذو بعدين مزدوجين كما أنف الذكر، وهما بعدان يتكاملان ولا مناص من جمعهما حتّى يكتمل المشهد الموضوعيّ. البعد الموضوعيّ هو في مقابل البعد الموضعيّ الذي جرت عليه التّفاسير. البعد الموضعيّ هو معالجة كلّ آية على حده. أو كلّ سياق من السورة على حده. ولكنّه لا يلتقط الخيط النّاظم للسّورة ليجني موضوعها أو مواضيعها إذا تعدّدت وتنوّعت إلاّ قليلا. ذلك هو معنى أنّ البيان الموضوعيّ مطلب غير المطلب الموضعيّ ولا ريب أنّهما يلتقّيان، إذ أنّهما يعالجان كتابا واحدا. ولا ريب كذلك أنّ الحاجة إليهما معا فلا يغني هذا عن ذاك ولا ذاك عن هذا.

---

[17] سيد قطب إبراهيم حسين الشّاذلي (9 أكتوبر 1906م - 29 أوت 1966م) كاتب وشاعر وأديب ومنظّر إسلامي مصري، مؤلّف كتاب في ظلال القرآن.

[18] حسن عبد الله الترابي (1 فيفري 1932 - 5 مارس 2016) مفكر وزعيم سياسي وديني سوداني. ويعتبر رائد مدرسة تجديد سياسي إسلامي.

أي حاجة للبيان الموضوعيّ؟

بيان القرآن الكريم لا ينفصل عن بيان التّاريخ. الوعي الصّحيح بالتّاريخ الخصيب الثرّ للأمّة الإسلاميّة كفيل بتعميق التّديّن وتكميل الفهم وترسيخ الفقه. ومن ذا إمتلأ الكتاب العزيز إلى ثلثه وأكثر بالتّاريخ. وهي رسالة ساطعة أنوارها تنادينا أنّ الوعي بالتّاريخ شرط لحسن التّديّن، إذ التّاريخ مرآة عاكسة لما جرى في الخلف، أي في الماضي. أغلب الظّنّ أنّ الأقدمين عنوا بالتّفسير الموضعيّ ـ أي آية بآية ـ بسبب أنّ رسالة القرآن الكريم في كلياتها العامّة ومحكماتها العظمى واضحة جليّة في العموم لدى النّاس، وأنّ سلطانا سياسيّا يقوم عليها حماية وذبّا ورعاية وبثّا. ومن ذا، تأمّنت الجبهة الخارجيّة من الغزو الفكريّ. ويكون من الأنجع إشباع النّاس بما لا يحصى من المعاني والدّلالات الفرعيّة للآيات والسّياقات والأدلّة الجزئيّة. فمنهم من توجّه إلى الإعجاز البيانيّ البلاغيّ، وربّما تربّع على ذلك العرش صاحب الكشّاف، أي الزمخشريّ [19] وصاحب الوجيز المحرّر أي إبن عطية[20]. ثم إلتحق بهما صاحب التّحرير والتّنوير، أي إبن عاشور. ومنهم من توجّه إلى تفسير تغلب عليه النّكهة الفقهيّة العمليّة. كما هو الحال عند الإمام القرطبيّ[21]. ومنهم من تأثر بمعارك الكلام

---

[19] جار الله، أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري (467 هـ / 1074 م - 538هـ /1143 م). من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب

[20] أبو محمد عبد الحق بن عطية الاندلسي (481 هـ / 1088 م - 541 هـ /1146 م). فقيه أندلسي وعالم بالتفسير والأحكام والحديث.

[21] محمد بن أحمد شمس الدين القرطبي (610 هـ / 1214 م - 671 هـ /1272 م) صاحب كتاب «الجامع لأحكام القرآن» وهو كتاب جمع تفسير القرآن كاملاً

من مثل الرّازي [22]. ومهما تعدّدت التوجّهات وتنوّعت الإهتمامات فإنّ الطابع العامّ لتلك التّفاسير هو الطّابع الموضعيّ، أي معالجة كلّ آية على حده، ذلك ظنّي. وهو منهج موضعيّ وفيّ لزمانه ومكانه، إذ أنّ الإنسان إبن بيئته مهما علا شأنه. ولا يمكن لمفسّر يعيش في مناخ للإسلام فيه سلطان أن يهتم بالتفسير الموضوعيّ لأنه يكون عندها كمن يضع إصبعه على غير موضع الداء.

أمّا عندما أُغتيلت الخلافة الإسلاميّة في آخر معاقلها، أي قبل قرن كامل 1923م، فإنّه لم يعد يليق بمن يتصدّى لتفسير القرآن الكريم أو بيانه إلاّ أن يرعى ذلك التّحوّل الأخطر في تاريخ الأمّة.

تعرّضت الأمّة في تلك الأيام وقبلها بقليل وإلى يومنا هذا إلى هجوم فكريّ ثقافيّ كاسح يستهدف الرّسالة نفسها والكلّيات ذاتها والمحكمات عينها. عقائد ومعاقد وليس تفاصيل وجزئيّات وفرعيّات. ومن ذا إنبرى بعض المفسّرين إلى رفع التّحدي المعاصر، منهم على سبيل الذكر فضلا عمّن ذكرت آنفا العلامة محمد عبده في تفسير المنار [23].

خلاصة هذه الفقرة هي أنّ التفسير الموضوعيّ حاجة معاصرة تلبّي حاجة الأمّة إلى صون رسالتها وكلياتها ومحكماتها وعقائدها ومعاقدها

---

[22] شيخ الإسلام فخر الدين الرازي (544هـ / 1149 م - 606هـ/ 1209 م) صاحب كتاب «التفسير الكبير» أو «مفاتيح الغيب».

[23] الامام محمد عبده حسن خير اللّه ، (1265 هـ/1849م - 1322هـ /1905م) سياسي وفقيه إسلامي، وكتاب تفسير المنار ينسب إلى الشّيخ محمد رشيد رضا الذي عمد إلى جمع ما تناثر ووقع في يده من دروس أستاذه محمد عبده في التفسير، فجمعها في التفسير المسمى بتفسير المنار.

وشريعتها وشعائرها. وهو أمر لا تقوم عليه آية أو آيات أو حتّى سورة أو سور، إنّما لا مناص فيه من جهد إستقرائيّ موضوعيّ جامع خاصّة على مستوى الموضوع محلّ المعالجة.

البيان الموضوعيّ ضرورة منهجية

من أقوى الأسباب التي تجعل البيان الموضوعيّ للقرآن الكريم ضرورة منهاجيّة ـ أي مرتبطة بمنهج نظم الكتاب نفسه ـ هو أنّ القرآن الكريم لم يعالج أيّ قضيّة من مئات القضايا التي عالجها وحسم فيها في موضع واحد. خذ إليك أيّ مسألة وهي بالمئات المئينة وفي أيّ حقل أو مجال، وستقف بنفسك على هذه الحقيقة. وهي أنّ الكتاب العزيز إعتمد نظما لا عهد للنّاس به ـ وهو ضرب من ضروب الإعجاز النّظميّ ـ وهو نظم يقوم على بثّ مواضع قد تقلّ وقد تكثر في سور قد يقلّ عددها وقد يكثر، ويكون موضوع تلك المواضع واحد، أي أنّه يعالج المسألة نفسها ولكنّه لا يحسم فيها في موضع واحد ولا في آية واحدة ولا حتّى في سورة واحدة.

خذ إليك ما شئت من الأمثلة وهي بالمئات. موضوع الإلهيّة مثلا، وهو أخطر موضوع تمحّض له القرآن الكريم بالكلّيّة. موضوع النّبوة مثلا. وغير ذلك من الموضوعات العقديّة. موضوع الأسرة مثلا. موضوع القصّة التي تكتنز سنن العمران وقوانين النّصر وأسباب الهزيمة ومثلها الأمثال. موضوع الإدارة والسّياسة والحكم والمال والعلاقات وغير ذلك ممّا لا يعدمه موضوع واحد. حتّى موضوع النّذر الذي هو تعبّديّ، فإنّ الإحاطة به غير ممكنة إلاّ بتجميع المواضع التي ذكر فيها النّذر، ثمّ إستقراؤها، ثمّ تحليلها، ثمّ إستخراج الحكم والحكمة معا. ولك أن تقيس على موضوع

النّذر الذي هو من أندر المواضيع ذكرا ما شئت من الموضوعات والمسائل والقضايا. وكلّما كان الموضوع خطيرا وكبيرا كانت معالجاته بعشرات المواضع وعشرات السّور. من ذلك مثلا موضوع الكفر بكلّ أنواعه وخاصّة الشّرك والنّفاق والإنتماء الكتابيّ.

البيان الموضوعيّ الإستقرائيّ الجامع ضرورة منهاجيّة لحسن الفهم ودقّة الفقه إستنباطا للحكم والحكمة معا. وذلك بسبب النّظم القرآنيّ نفسه، وليس بسبب التّغيّرات السّياسيّة التي طرأت على الأمّة فحسب.

من حسنات البيان الموضوعيّ

مناهج البيان لا يمكن حصرها، ومعنى ذلك أنّ الأمّة تظلّ دوما في حاجة إلى البيان الموضعيّ الذي يبحر في الآية والسّياق والكلمة والسّورة. إذ أنّ هذا الكتاب لا تنقضي عجائبه ولا يخلق من كثرة الردّ كما قال الذي أنزل عليه ﷺ، ومثل ذلك إلى البيان الموضوعيّ. كما أنّ تلك المناهج المختلفة تكسب الأمّة مناعة وحصانة لتظلّ دوما بحاجة إلى البيان البلاغيّ وإلى البيان التّشريعيّ وإلى البيان العلميّ بمعناه المادّي الكونيّ وإلى البيان السّننيّ الذي لم ير النّور بعد.

الحديث عن مختلف مناهج البيان سواء عموديّا (بين موضعيّ وموضوعيّ) أو أفقيّا (بيان بلاغيّ وتشريعيّ وسننيّ وغير ذلك) ليس هو حديث عن متعارضات أو متقابلات بالمعنى الرّياضيّ، بل هو حديث عن متكافلات متعاونات، عدا أنّ البيان لهذا الدّستور الأعظم والأوحد في الأمّة عليه أن يواكب العصر. وذلك على معنى فقه أهله لتحدّيات العصر التي

تنزل منزلة (واجب الوقت). ولولا فطنة العلماء والفقهاء والمصلحين في التّاريخ لما نشأ علم الكلام الذي لم تكن له من رسالة عدا رسالة الدّفاع عن العقيدة الإسلاميّة في وجه الزّحف اليونانيّ أساسا وغزوات أخرى. ولو لم يكن هناك زحف لما نشأ علم الكلام. وبمثل ذلك على الأئمة بالمعنى القرآنيّ الرّئيس (الرّواحل والعدول بالتّعبير النّبويّ)، إلاّ أن يظلّوا على أهلية دائمة لإنتاج البيان المعاصر للقرآن الكريم، أي البيان الذي يحيط بالواقع ويسدّد خلله ويهجم عليها كما يهجم الطّبيب على الثّغرات التي تعيق المريض. ومن هنا تظهر لنا حسنة من أكبر حسنات البيان الموضوعيّ، ألا وهي إكساب المسلم فردا وأمّة الفقه الصّحيح المتكامل والرّاسخ لرسالة القرآن الكريم. وهي الرّسالة التي تحدّد البوصلة العامّة، أي الصّراط المستقيم. فإذا سار على ذلك الصّراط ألفى أمامه وبين يديه موجهات من الكلّيات العامّة التي تحفظ حياته ودينه وعقله وماله ونسبه ووطنه وأمته. وكلّما توغّل على درب ذلك الصّراط المستقيم طعم حلاوة الإيمان وسلامة الإسلام فأضحى إليه داعية.

لا مناص من البيان الموضوعيّ في زمن مثل زماننا يكون فيه ملايين مملينة من المسلمين الخلّص فؤادا رأس حربة في أيدي أعدائها يقاتلونها بالحديد والنّار، وهم غافلون أنّ من يحرّكهم لذلك إنّما يحرّكهم كما تحرّك الدّمى.

لا مناص من بيان موضوعيّ في زمان مثل زماننا، يفرّ فيه ملايين مملينة إلى الكهوف الحقيقيّة أو المجازيّة من ساحة المعركة بإسم الخلاص الفرديّ. ولا مناص من ذلك عندما تجد ملايين مملينة أخرى تسبّح بحمد

الدّولة وأمرائها وهي تجهض الإسلام مـن سقفـه وتنخـره من أسّـه. وما كان هؤلاء كذلك إلاّ لأنّهم جمدوا على بيانات تاريخيّة سالفة مضى زمانها وولّى.

لا مناص من بيان موضوعيّ يعيد الإعتبار لكليّات القرآن العظيم أوّلا قبل إعادة الإعتبار لجزئيّاتها. إذ أنّ تمسّك الأمّـة بالجزئيّـات والفرعيّـات لم يسعفها في وجه أعدائها من إحتلالات عسكريّة وإقتصاديّة وفكريّة عندما تضبّبت الكلّيات في وعيها.

ذلك هو معنى أنّ زماننا هو زمان أولويّة البيان الموضوعيّ. فإذا إستقرّت على هذه طائفة من الأمّة ذات أغلبيّة ولبثت على ذلك زمنا، فإنّه لا بأس من بعد ذلك من التّطرّق إلى البيان الموضعيّ الذي يزيد من مناسيب المعلومات وليس من مناسيب العلم نفسه. تلك هي طبيعة النّظم القرآنيّ العجيبة التي بهرت العرب الأقحاح الأوائل، إذ هو نظم مبثوث منثور يعالج أقضيته وهي بالمئات المئينة ومسائله مبثوثة منثورة منشورة على مواضع تصل إلى المئات والآلاف وليس العشرات فحسب. ومن ذا، فإنّ الإحاطة بأيّ من تلك القضايا وكثير منها كلّيّات وأصول ومعاقد وعقائد وأعمال عظمى وأفعال كبرى وتوجّهات عليا لا تتأتّى إلاّ بالمنهج الإستقرائيّ إستقراء كاملا لا منقوصا. الإستقراء رصد الأدلة وتتبّع المواضع موضعا موضعا بغرض الجمع، ومن بعد الجمع يكون التّحليل إبتغاء.

الفهم وتعميق الفقه، البيان الموضوعيّ حاجة منهاجيّة وضرورة معاصرة. أنقل كلمة جليلة للشّيخ محمد الغزالي عليه الرّحمة عن البيان الموضوعيّ: «وكما أتناول على المائدة مجموعة من السّكريّات والنّشويّات

والدّهنيّات وما إلى ذلك في طعام واحد أو في أغذية واحدة في وجبة واحدة، فكذلك يتقدّم القرآن إلينا برسالة حياة شاملة لا تدع جزء منها إلاّ وتمتدّ إليه ويجري الوحي الإلهيّ خـلال هذا النّسق القرآنيّ كما تجري الدمـاء في العروق لتشمل الرّأس والقدم»[24].

[24] محمد الغزالي ـ كيف نتعامل مع القرآن الكريم

المقدّمة الرّابعة:
نحو بيان مقاصديّ

المقاصدية صنو النصية وليست نقيضا لها

هذا بيان مهمّ يعيد موضعة القيمة المقاصديّة على أساس أنّها صنو شقيق للقيمة النّصّية وليست نقيضا لها. ذلك أنّه سرى فينا جميعا، إلاّ قليلا من النّابهين، أنّ الأمرين منهاجان مستقلاّن، فإمّا أن تكون نصّيّا غير آبه بالمقاصد أو أن تكون مقاصديّا غير آبه بالنّصّية. هذا تحريف وزيف لا يتحمّله اللّسان.

القيمة المقاصديّة صنو النّصّية من جهة وهي في مقابل الوسائليّة من جهة أخرى. لا مناص لتحرير المعنى السّديد من الجمع بين القيمتين معا (النصّية والمقاصديّة) وبعلاقة جدليّة طرديّة هي الأجمل. ولا مناص كذلك لذلك التّحرير السّديد من التّمييز بين القيمتين (الوسائليّة والمقاصديّة). أروع مثال يعجبني ـ إذ الضّلال فيه في الأمّة منداح لا تعرف له حدودا ـ هو مثال قول المسلمين اليوم كلّهم ـ عامّتهم وأئمتهم إلاّ قليلا ممّن رحم الله سبحانه بالرّسوخ في العلم ـ أنّ شهادة المرأة بسبب أنوثتها هي

نصف شهادة الرّجل بسبب فحولته. يروج ذلك بإنديا ح ووثوق وإطمئنان. وعند المنتسبين إلى الطّبقة الدّينيّة والفئة المتعلّمة قبل غيرهم. وعليه جرى التّحاكم حتّى أضحى عرفا معروفا. منبع ذلك هو آية الدّين في آخر سورة البقرة. السّرطان الأعظم الذي جعل النّاس يتصوّرون ذلك فيضلّون ويضلّون، هو أنّهم إقترفوا السّيئتين معا : سيئة إهمال البيان الموضوعيّ، وسيئة إهمال البيان المقاصديّ. أمّا نبذهم البيان الموضوعيّ فهو أنّهم غفلوا عن رسالة أطول آية في الكتاب العزيز (آية الدّين). وليست هي سوى رسالة حفظ أموال النّاس ورعاية حقوقهم الماليّة تكريما لهم بغضّ النّظر عن دينهم.

من يغفل عن رسالة أيّة آية أو أيّة سورة أو أيّ سياق، فقد كتب على نفسه شقاء الفهم العقيم قطعا مقطوعا لا مجاملة فيه ولا مراء. وبديلهم عن ذلك هو أنّهم تبنّوا ـ لأسباب تاريخيّة معروفة في علاقة المجتمع العربيّ بالمرأة قبل الإسلام وبعد إنهيار الخلافة الرّاشدة المهديّة الأولى ـ رسالة أخرى إسمها أنّ هذه الآية جاءت لتسعّر المرأة وتسعّر الرّجل، وتخلع على كلّ واحد منهما ثمنا معيّنا. فهذه شهادتها بنصف شهادة الرّجل بسبب أنوثتها وشهادة الرجل تساوي شهادة إمرأتين بسبب فحولته. وأمّا نبذهم البيان المقاصديّ هنا، فهو أنّهم أوصدوا العقول عندما قرأت العيون قوله سبحانه «أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى»[25]. ولو لزموا منهج حبر الأمّة عليه الرّضوان ـ وقوامه قالته أنّه كسب العلم بلسان سؤول وفؤاد عقول ـ لعلموا أنّ تنصيف الشّهادة هنا ليس مقصودا لذاته بل هو

---

[25] سورة البقرة – الآية 282

مقصود لغيره. وكلّ ما كان مقصودا لغيره وليس لذاته فهو وسيلة وليس غاية. وكلّ ما كان وسيلة فهو يتغيّر ويتبدّل ويتحوّل ما لم يكن في دائرة العقائد والعبادات بحسب ما يتبيّن للنّاس أنّه يضمن تأمين تلك الغاية.

لو أنّ اللّه سبحانه لم يذكر المقصد الأسنى من شهادة المرأة بصفة خاصّة والإشهاد بصفة عامّة لكان الأمر ـ في أذهان الذين يفضّلون الموضعيّة القاصرة على الموضوعيّة الشّاملة ـ محلّ جدل وجدال. ولكن كيف وهو نفسه سبحانه قد بيّن لنا المقصد الأسنى من تنصيف الشّهادة؟ ذلك يعني أنّ إعمال البيان المقاصديّ في القرآن الكريم جنبا إلى جنب مع البيان الموضوعيّ إنّما هو لتأمين الفهم الصّحيح والفقه الدّقيق في الكتاب العزيز. ذلك أنّ الكتاب العزيز كما ذكر صاحبه نفسه سبحانه يضلّ ويهدي معا. الهداية والإضلال وهما بيد اللّه سبحانه إنّما ينشآن بحسب وضع أجهزة الإستقبال.

الإسلام سلاح ذو حدّين، فهو يهدي من أسلم عقله لمنهج القرآن الكريم، ويضلّ من أسلم عقله للظّنون أو للأهواء أو لتقليد هذا أو لإتباع ذاك. ما لم يكن المتبوع هو رسول الله ﷺ. أظن أنّ هذا المثال (شهادة المرأة) كاف ضاف وشاف في أنّ البيان المقاصديّ حاجة وضرورة. مثله مثل البيان الموضوعيّ. هما يتكافلان على تأمين الفهم الصّحيح لمن كان له قلب أو ألقى السّمع وهو شهيد. الأمثلة كثيرة في الكتاب والسّنة وليس هنا محلّ عرضها ولكن عرضت هذا المثال لأنّه صارخ يضلّ كثيرين من جانب. وبسبيل التّمثيل ذكرا لا حصرا من جانب آخر.

المقدّمة الخامسة

نحو بيان معاصر

أعرف أنّ أكثر المسلمين اليوم يتهيّبون من خلع صفة المعاصرة على كلّ ما يتّصل بالدّين وخاصّة بكتاب الدّين. وإنّه لأحرى أن ينسب إلى العلمانيّة والنّفاق من يستخدم كلمات من مثل الفهم المعاصر والفقه المعاصر والبيان المعاصر. والأمر معلوم. ذلك أنّ أكثر من تبنّى تلك النّعوت والأوصاف إنّما هم ممّن سماهم ﷺ في حديث العدول [26] أنّهم ينتحلون الباطل « إنتحال المبطلين» وهذا صحيح. ولكن عندما يغير غريب على بضاعتي فينسبها إلى نفسه فإنّي لا أستحي أن أستعيد بضاعتي وأعيد خلعها هي نفسها على نفسي. فإذا إنتزع منّي خصمي أو عدوّي في كلّ مرّة جزء من بضاعتي ليخلعها على نفسه ويجرّدني منها، ثمّ يقوم بتزييفها وتزويرها، فإنّي سأضحى عاريا من كلّ قيمة بعد عقود قصيرات.

---

[26] ورد في الحديث قول النّبي ﷺ: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين». روى هذا الحديث جماعة من الصحابة رضي اللّه عنهم، ولهذا الحديث طرق كثيرة عنهم وهو حديث حسن لتعدّد طرقه.

من حصائل تدبّراتي في الكتاب العزيزـ وأنا الكافر بالكلّية بالرّسوم والأسماء والأسمال الملتزم بالكلّية للمقاصد والمعاني ـ أنّي جنيت أنّ ما عبّر عنه القرآن الكريم بالحكمة وبالميزان هو نفسه ما نعبّر عنه اليوم بالمعاصرة والحداثة وغير ذلك. عدا أنّه لا حيلة لك مع من آثر التّاريخ على العصر واهما أنّ الإسلام حبيس زمان معيّن، ولو زمن الخلافة الرّاشدة المهديّة الأولى. لا، الإسلام فوق الزّمان وفوق المكان وفوق الإجتهاد وفوق التّاريخ وفوق الحاضر وفوق كلّ شيء. عدا أنّه كتاب كريم صحيح معجز محفوظ، فيه المحكمات وفيه المتشابهات، وفيه القطعيّات وفيه الظّنيّات، وفيه النّصّ وفيه المقصد، وفيه التّعليم وفيه الحكمة والميزان. وأنه بمثل ذلك سنّة نبويّة فيه ما في القرآن الكريم، عدا ما يعرفه أهل علم الحديث من فروع أخرى لا أرب لنا فيها الآن بسبب خروجها عن هذه الرّسالة وعن هذا السّياق على وجه خاصّ.

أمثلة من البيان المعاصر: الرقّ

غرقت تفاسير ـ وحقّ لها ذلك ـ في بيان موضعيّ في شأن الرّقيق وما يتعلّق به. وما ذاك سوى لأنّ أصحاب تلك التّفاسير كان الرّقيق في زمانهم بضاعة إقتصاديّة وعملة إجتماعيّة وواقعا معيشا. وما كان ينبغي لهم سوى أن يبيّنوا للنّاس ما يتعلّق بذلك. وتلك هي المعاصرة عينها، وتلك هي الحكمة ذاتها. ولكن عندما نكون في زمان ليس فيه رقيق بالمعنى الأصليّ المباشر، فأيّ حاجة لنا في أن نطنب في ذلك بيانا موضعيّا بصفة خاصّة حتّى لو كان يحتاج بيانا موضوعيّا ومقاصديّا إلى كلمات أو نسهب؟ أظن أنّ صرف الجهد إلى قضايا أخرى أولى.

مثال آخر: الجهاد القتاليّ

ومثل ذلك الجهاد القتاليّ العسكريّ الذي ضاقت سبله بسبب تبدّل الأحوال الدّولية، وخضوع النّظام العالميّ كلّه اليوم إلى الإستحقاقات العسكريّة المترتّبة عن مخرجات الحرب العالميّة الثّانية. الجهاد القتاليّ العسكريّ اليوم واقع محكوم بقوانين دوليّة مفروضة بالقوّة، وبذلك ظلّ متاحا لمن يدافع عن أرضه المحتلة فحسب. ومن ذا، فإنّ معالجة قضايا الجهاد وخاصّة في وجهه القتاليّ العسكريّ من لدن المفسّرين والفقهاء والعلماء والأئمة وكأنّ شيئا لم يتغيّر مغالطة كبرى سببها إعتبارهم أنّ التّاريخ توقّف.

الجهاد بوجهه القتاليّ العسكريّ وسيلة وليس غاية أبدا مطلقا. والوسيلة تتغيّر وتتبدّل، والغاية منه عند لزوم ضوابطه التي أحصاها سبحانه في قوله : «وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ»[27] . هي دفع العدوان على أنفسنا أو على غيرنا سيّما ممّن بنا يستجير، أو تأديب عدوّ يوشك أن يوقع الخيانة والغدر، أو تحرير أمّة أو شعب أُخضع للإكراه، وليست هي غاية دينيّة بمعناها الضّيّق، أو غاية قوميّة أو إقتصاديّة.

إنّما هي غاية تحريريّة عامّة، أي غاية إجتماعيّة. ولا شك أنّها تفتح سبل الإسلام، ولكن أولويّتي فيما تدبّرت وعلمت هي أنّ التّحرير أسبق من التّعبيد، كما أنّ العدل أسبق من الشّريعة، وأنّ الهداية أسبق من العقوبة في دين اللّه. وغير ذلك من الأسبقيّات أو الأولويّات أو ميزان التّرجيحات التي

---

[27] سورة الحج - الآية 78

أبدع فيها أئمة منهم الشّاطبي وإبن عاشور والفاسيّ [28] وغيرهم من قبل ومن بعد. لا حاجة إذن لإستنساخ ما ذكره المفسّرون الأوائل فيما يتعلّق بالجهاد العسكريّ القتاليّ الذي كان متاحا في زمانهم لأسباب معروفة وما كان ينبغي لهم عدا ذلك. فإذا إنتظمت الأرض في سياق آخر مغاير فإنه على أولي النظر لزوم المقصد الأسنى وتغيير الوسائل. أولى بنا اليوم الإطناب والإسهاب في ضربين من الجهاد : جهاد قتاليّ عسكريّ في الأرض المحتلة. أي فلسطين. وكلّ أرض محتلة بغض النظر عن المعتدي وعن المعتدى عليه. وجهاد سلميّ مدنيّ سلاحه الكلمة وما تفرزه من أوعية ووسائل منها الفنون كلّها وبلا أيّ حدّ عدا ما تجاوز القيم الإسلامية ذلك أنّ الجهاد في أسّه في الكتاب العزيز إنّما هو الجهاد بالقرآن الكريم أي الجهاد بكلمته «وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا» [29]. وهو مثال آخر من أمثلة البيان المعاصر

مثال ثالث : الديمقراطية هي شورى العصر

هذا مثال معاصر مهمّ. أعرف أنّه صادم سيما في عنوانه. ممّا لا يجب أن يغيب عن طالب العلم الحاذق والمقاوم الماهر أنّ الشّورى ليست نظام حكم، إنّما هي وسيلة حكم، وذلك يعني أنّ المقصود من الشّورى ليس إسمها ولا رسمها، وأنّ اللّه لم يتعبّدنا بها عنوانا. إنّما المقصود منها إدارة المجتمع بهيئة أو دولة تقوم على التّشاور والتّراضي والتّبايع المتبادل. ومن

---

[28] علال بن عبد الواحد بن عبد السلام بن علال، الفاسي الفهري (1328 هـ / 1910م - 1394 هـ / 1974م) أحد أعلام الحركة الإسلامية الحديثة التي ظهرت في القرن العشرين.

[29] سورة الفرقان - الآية 52

ذا فإنّ الشّورى ليست نظاما سياسيّا، إذ أنّ الإسلام نفسه لم يأت بنظام سياسيّ، وإنّما إكتفى كما هو شأنه في الأمر العامّ بقيم عظمى من مثل نبذ الإكراه ووحدة الأمّة وحفظ التّنوّع.

ومعلوم أنّ أي نظام ـ ولو كان غير إسلاميّ ـ إذا لزم تلك القيم، فإنّه يكون نظاما عادلا مقسطا. ومن ذا، فإنّه ليس دقيقا القول أنّ النّظام السّياسيّ في الإسلام هو نظام شوريّ، لأنّ هناك قيما أخرى عدا قيمة الشّورى، ولأنّ الشّورى وحدها لا تصنع ذلك النّظام.

منتهى القول هنا هو أنّ الشّورى فقرة من فقرات تلك القيم وأنّ إستبدالها بأيّ عنوان آخر أو إسم آخر لا يغيّر من الأمر شيئا حتّى لو كانت مفردة قرآنيّة. اللّه لم يتعبّدنا بالكلمات والرّسوم فيما هو خارج الدّائرة العقديّة والتّعبديّة. ومن أكبر الأدلة على ذلك أنّ الفاروق تنازل عن تسمية الرّسوم الماليّة التي كان يجبيها من نصارى تغلب بإسمها القرآنيّ، أي الجزية، وقال كلمته الشّهيرة أنّ هؤلاء حمقى إذ هم رضوا بالمسمّى وأنفوا من الإسم.

خلاصة هذا أنّ الدّعوة إلى نظام ديمقراطيّ في مجتمع مسلم لا يعني شيئا سيّئا، بل يعني أنّ الدّاعي ذكيّ. إذ أنّه يتساوق مع أهل زمانه ويخاطبهم بالكلمات التي درجوا عليها وأعفى نفسه وأعفاهم من جدل فارغ لا فائدة منه، إذ إبتعد بنفسه وبهم عن إقامة جدالات طويلة عريضة فيما بين الشّورى والدّيمقراطيّة من إتصال أو إنفصال. ولا يعني ذلك إستبعاد ذلك في الحلقات العلميّة المعرفيّة البحثيّة، ولكن في دوائر الإصلاح والتّغيير لا يغني ذلك شيئا. ولا أظنّ أنّ إستصحاب مفردات عفا عنها الزّمن من مثل أهل الحلّ والعقد والخليفة والخلافة والحسبة وغيرها مفيد

في بيان موضوعيّ مقاصديّ معاصر وجامع لكتاب اللّه سبحانه الذي جاء لإستيعاب التّجارب والإنفتاح عليها. ولذلك جاء مقصورا على الكلّيّات الكبرى والقيم العظمى ولا تعنيه الأشكال والأسماء والرّسوم والعناوين.

أكتفي بهذه الأمثلة على أنّ مثل ذلك البيان المنشود من حقّه أن يكون معاصرا على معنى أنّه يتصدّى لمشكلات العصر وليس ناقلا أو ناسخا لمشكلات عصر ولّى أو تحديّات زمان مضت وإنقضت.

خلاصة في قيم الموضوعية والمقاصدية والمعاصرة والجماع

الموضوعية تعني إستقراء الموضوعات التي عالجها القرآن الكريم موضوعا موضوعا إستقراء كاملا غير منقوص، إبتغاء إستنباط الحكمة والحكم معا من تلك القضيّة المبثوثة فيه في عشرات المواضع، بل في مئات المواضع. هي موضوعيّة تتجاوز مستوى السّورة وخاصّة في السّورة المدنيّة التي عادة ما لا تقصر على موضوع واحد (البقرة مثلا) بخلاف السّورة المكّيّة التي عادة ما ينظّمها خيط واحد حتّى لو تفرّعت شرايينه. الموضوعيّة المقصودة هنا هي موضوعيّة القضيّة أينما ذكرت في الذّكر الحكيم.

المقاصديّة تعني الجمع بين الدّليل الجزئي أو النصّ من جهة وبين حكمته من جهة أخرى سواء ذكرت أو فوّت فيها للجهد الإنسانيّ إبتغاء قصر فهم أي نصّ ـ خارج الدّائرة العقديّة والتّعبديّة ـ على ضوء مقصده وحكمته الرّاجحة، وليس معناها تقديم الحكمة على الحكم أو تسبيق

المقصد على نصّه كما يهرف الذين يريدون إنتحال الباطل لهدم الدّين من داخله بإسم التّنوير والتّجديد. ولا تقديم الحكم على الحكمة أو النصّ على مقصده كما يهرف إخوانهم في الإتجاه المعاكس، ممّن يريدون حصر الإسلام في تجربة تاريخيّة خلت وولّت بإسم الأصالة أو نبذ الإبتداع أو إتباع السّلف الصّالح.

المعاصرة تعني التمحّض للتحدّيات الجديدة والقضايا التي عمّت بها البلوى الحاضرة وليست البلوى الغابرة وترك ما عفا عنه الزّمان من مثل قضيّة الرقّ. وليس معناها تبديل العقائد أو العبادات أو ما هو معلوم من الدّين بالضّرورة، مما ثبت الإجماع عليه ثباتا راسخا ليس فيه إجتهاد آخر. ويعني الجماع محاولة الإحاطة بكلّ ذلك من جانب الموضوعيّة والمقاصديّة والمعاصرة قدر الإمكان وهو متعسّر ولكنّه ليس مستحيلا.

المقصود بالجماع نبذ الإجتزاء والإبتسار ما أمكن. ظنّي أنّه إذا أفلح المجتهدون المعاصرون في إجتراح بيان بهذا الشّكل، فإنّهم يشيّدون لبنة أخرى على درب تقدّم الأمّة ونهضتها وتحرّرها إذ ما جاء الكتاب الكريم إلا لتحرير النّاس.

المقدّمة السّادسة

مفاتح البيان

غرض البيان هو التّفقيه. فإذا نفذ الفقه تحرّر المرء وإكتملت رسالة العلماء الذين هم ورثة الأنبياء. رسالة البيان (التّفسير) رسالة مزدوجة: طرفها الأوّل هو بيان اللّفظ والتّركيب، أي البيان البنيوي (نسبة إلى المبنى). وطرفها الثّاني هو بيان المعنى، أي بيان المراد والمقصود. هي عمليّة مركّبة جدليّة تفاعليّة بين ما أسماه الفقهاء : المنطوق والمفهوم. ذلك هو الغرض الأسنى لكلّ بيان أو تفسير. للبيان مفاتح لا مناص منها هذه أمّهاتها:

اللّسان العربيّ يقود معركة التأويل

اللّسان العربيّ هو المفتاح الذي إفتخر به الكتاب نفسه في أكثر من عشرة مواضع، بل إنّه علّق العقل على ذلك اللّسان في مثل قوله سبحانه «قرآنا عربيا لعلكم تعقلون» [30]. ولا علاقة لذلك بالعنصر.

---

[30] سورة يوسف – الآية 2

اللّسان وسيلة لحسن الفهم ودقّة الفقه. ومن ذا غدت هذه القالة صحيحة: «قل لي ما هو وزنك لسانا عربيا، أقول لك ما هو فقهك في الدّين». المسألة لا علاقة لها بالإيمان، إذ الإيمان لا لسان له إلاّ لسان القلوب والأرواح. إنّما المقصود هو أنّ عمليّات الإستنباط والإجتهاد سواء في الأحكام أو في الحكم لا يسلس قيادها سوى لمن أبحر في اللّسان إبحارا وعلم أساليب العرب في كلامهم.

نهج النّظم القرآني العجيب تراكيب وأساليب في التّعبير يقف حيالها العربيّ القحّ مشدوها لجمالها، فمن ذلك أنّه يعتمد الظّاهر الذي هيمن على الكتاب العزيز عدا فيما هو محكم أو مفسّر، وهذا قليل إذ أنّه يتعلّق بالأحكام القطعيّة فحسب من الإعتقاديّات والتّعبّديّات والعائليّات وغير ذلك ممّا عرف في عرف الأقدمين من المعلوم بالدّين بالضّرورة. كما أنّه أعتمد المجاز إلى جانب الحقيقة. وهو مجاز لفظيّ ومجاز معنويّ. وبمثل ذلك فإنّه يناسب زمن التّنزيل ليعالج المشكلات الرّاهنة في تلك الأيّام، ولكن بأسلوب تركيبيّ عجيب يجعله يحمل في أحشائه ما تعالج به المشكلات الطارئة حتّى يوم القيامة. ولذلك أعرض عن أسماء المكان والزّمان والنّاس. وإنّما قصر إهتمامه على إستلال العبرة وإقتناص الدّرس البليغ. وإمتلأ هذا الكتاب العزيز بالمحذوف المقدّر الذي يحتاج إليه الدّارس والتّالي. وبمثل ذلك تكون الكلمة فيه في أمثلة كثيرة حاملة لبعض المعاني التي لا مناص من تهذيبها وتشذيبها، فهي إمّا حاملة للمعنى اللّغويّ أو للمعنى الشرعيّ أو للمعنى العرفيّ. وأيّ خلط بين تلك المستويات يفضي إلى خلط في الفهم. ومن مناهجه اللسانية كذلك أنه يعتمد الجدل. ومن ذا نشأ علم الجدل في الكتاب العزيز وهو ما نسمّيه نحن اليوم الحوار إذ ينبسط القرآن

الكريم طويلا ناقلا إلى الإنسان جدالات واسعة مع النّاس سواء كانوا كفّارا وبشتّى أنواع الكفر بلا أيّ إقصاء، أو مسلمين أو أنبياء مع أقوامهم بل حتّى مع إبليس.

ومن ذلك أنّه ينقل مشاهد مطوّلة من الحياة الآخرة وينسب القول أحيانا لصاحبه، وفي أحيان أخرى يفوّت في ذلك الجهد للمتدبّر. ويعتمد الإخبار أحيانا والإنشاء للتعبّيات تزكية أحيانا أخرى أو إقرارا لصور أخرى من الحياة. وتظلّ الكلمة فيه تتنوّع في تصريفاتها من زمان إلى آخر ومن ضمير إلى آخر، ومعلومة حينا ومجهولة الفاعل حينا آخر. وغير ذلك من أساليب التّركيب ومستويات الخطاب التي بكتت العرب الأوائل الأقحاح تبكيتا، فما ظفروا بموضع سمّ خياط بحثوا عنه طويلا يكون طريقا إلى هدم هذا السّقف.

ومن ذلك كذلك أنّه أتاح بأسلوبه لكلّ صاحب رأي فيما هو دون المحكمات القطعيّات أن يدلي برأيه. ومن ذا نشأت المذاهب الفقهيّة التي لا تحصى، ومثلها المذاهب الكلامية، ومناهج التفسير. وظلّ هذا الكتاب قبلة الباحثين ودوحة الدّارسين. ولا يشبع منه طلبة العلم بل إنّه ينفتح إنبجاسا عجيبا غدقا لكلّ مقبل كالبحر المحيط الذي لا ينفد طعامه ولا حليّه ولا نسيمه العليل ولا جماله الأخّاذ. ولكن يجني منه كلّ جان بقدر ما يسيل واديه. أو هو زيتونة لا يحتكرها شرقيّ ولا يغتصبها غربيّ. إنّما تظلّ تغدق بثمرها وظلالها ليضيء زيتها لكلّ مستضيء. أنّى لقلم أن يخلع على هذا النّظم القرآنيّ العجيب البديع ما يوفّيه؟ وأنّى للسان أن يأتي بمثل ذلك؟

القرآن الكريم يفسر بعضه بعضا

هذا الكتاب كيان واحد متكامل، لا يفقه حقّ الفقه ولا ينتفع به الإنتفاع المطلوب، عدا من عالجه بتلك المنهاجيّة الواحدة التي تجعله مبثوثا منثورا في آي وكلمات وسور وسياقات. ولكنّها تحتفظ بخيطها النّاظم لكلّ ذلك المبثوث المنثور لتكون منه رسالة عظمى.

ما جنت علينا عدا القراءات الجزئيّة المبتسرة التي تجعل القرآن عضين. بل إنّها أفضت في القرون المتأخّرة إلى الإيمان من قطاع غير يسير فينا ببعضه والكفران ببعضه الآخر على غرار ما جرى لبني إسرائيل.

قولنا أنّ القرآن الكريم يفسّر بعضه بعضا لا يخرم قولنا أنّه بحاجة لا مناص منها إلى السّنة على وجه التّحديد لتبيينه. تفسير القرآن الكريم بعضه لبعض يعني أنّه يحيل هو بنفسه إلى السّنة إذ قال «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا»[31]. إنّما المقصود من تفسير القرآن الكريم بعضه لبعض فيما دون ذلك. ومن ذلك أنّه يأمر بالإيمان بالغيب في موضع فيه ثمّ يبسط ذلك الإيمان بالغيب أنّه إيمان باللّه ورسوله واليوم الآخر، وغير ذلك ممّا ورد من الأركان.

من أمثلة ذلك أنّه يعتمد الإجمال حينا والتّفصيل حينا آخر. فعندما يأمر بالعدل والمعروف والإحسان والبرّ والرّحمة والودّ وغير ذلك في شأن الأسرة، فإنّه يعزّز ذلك مبيّنا إيّاه بتشريعات منها الصّدقات أي النّحلات والمهور، ومنها حقّ المرأة المطلقة وغير ذلك.

---

[31] سورة الحج - الآية 78

ومن أمثلة ذلك أنّه يخلع على نبيّ الإسلام أوسمة الرّحمة، ثم يبيّن لنا خلقه. فهو يخفض الجناح ويعفو وغير ذلك. ومن أمثلة ذلك أنّه يدعو إلى عبادة اللّه وحده لا شريك له سبحانه، ثمّ يبيّن لنا من هو الله الذي ندعى إلى عبادته. فهو الرّحمان الرّحيم. ويفصّل لنا رحمانيته ورحمته كما يفصّل لنا علمه وغير ذلك.

ومن أمثلة ذلك أنّه يذكر لنا الوسيلة في موضعين لا مناص لنا من جمعهما بعضهما إلى بعض حتّى نعرف ما هي الوسيلة. إذ ذكر الوسيلة في سورة المائدة المدنيّة في قوله «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» [32] . ثمّ ذكر الوسيلة في موضع آخر أخير، إذ قال في سورة الإسراء المكيّة « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ» [33]. ومن ذا نعلم أنّ الوسيلة المطلوبة هي نشدان القربى من اللّه زلفى رجاء لرحمته وخوفا من عذابه.

الوسيلة الموهومة التي كان عليها المشركون ـ أي دعاء أولئك الذين يدعون اللّه ربّهم ـ هي وسيلة مقطوعة. وسيلة نشدان القربى منه سبحانه زلفى رجاء لرحمته وخوفا من عذابه إنّما تكون بالتّقوى. وأنّ التقوى نفسها هي الجهاد في سبيله. وأنّ ذلك هو الفلاح الحقيقيّ. المراد من هذا هو أنّ كلّ ما ورد في القرآن الكريم سواء من لفظ أو سياق أو معنى ما انقبض هنا إلاّ وإنبسط هناك. وذلك هو سرّ النّظم القرآني الكريم المعجز.

---

[32] سورة المائدة - الآية 35

[33] سورة الإسراء - الآية 57

من أمثلة ذلك أنّ الذّكر المطلوب هو التّفكّر، ولذلك قال سبحانه «الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ» [34]. أفاد ذلك أنّ ذكر اللّه على كلّ حال هو التّفكّر في تضاريس الكون والتّاريخ معا. كما أفاد أنّ التّسبيح ومفردات الذّكر الأخرى إنّما تكون مثمرة طيّبة عالية الأجر عندما تكون إنبجاسا من ذلك التّفكّر. وممّا وقفت عليه بنفسي ولي فيه أمثلة لا تحصى هو أنّ القرآن الكريم يفسّر بعضه بعضا في أحيان كثيرة بسبب أنّه يبيّن المراد المطلوب على وجه التّحديد والدّقة والبيان. إذ يذكر شيئا وبعده بقليل يذكر المراد من ذلك الشّيء، سواء في الآية نفسها أو في التي تليها، وأحيانا يتباعد السّياق قليلا أو كثيرا. بل يكون أحيانا في سورة تالية وأحيانا يتباعد كثيرا، فتعثر عليه في موضع آخر بعد صفحات طويلات ومسافة أطول. ذلك هو معنى أنّ خير فقه في القرآن الكريم إنّما هو القراءة المتدبّرة المتأنّية المتريّثة الهادئة المتتابعة التي تحرص على التّخزين في العقل ما علق منها. وبمرور الأيام والسّنين تكون العلاقة مع الكتاب العزيز كمثل العلاقة بينك وبين الدّرب الذي تسلكه بنفسك يوما من بعد يوم لسنوات وعقود. فأنت به خبير بسبب الدّربة والمعافسة والتّجربة. حتّى إنّك لتعرف الطريق في اللّيلة الظّلماء بموقع نبتة فيه.

القرآن الكريم يفسّر بعضه بعضا تعني أنّه ينقبض وينبسط ويجمل ويفصّل ويحيل بعضه إلى بعض ولا يعني ذلك أنه يستغني عن السّنة. كيف وهو نفسه الذي أشار إلى أنّ الأخذ بها هو أخذ به؟

---

[34] سورة آل عمران – الآية 191

العلم بالسّنة والسّيرة معا

السّنة لا مهمّة لها عدا تبيين الكتاب لقوله سبحانه «وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ»[35]، وقد تواتر هذا المعنى مرّات. وهو معنى مجمل فصّله قوله سبحانه الذي تواتر هو بدوره مرّات «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ»[36] . فالتّبيين إذن مجمل، تفصيله تلاوة آيات الكتاب والتّزكية وتعليم الكتاب والحكمة معا. ومن ذا فإنّ السّنّة والسّيرة هما المفتاح الثاني لحسن الفهم ودقّة الفقه، حتّى إنّ العلماء قالوا بحقّ أنّ القرآن بحاجة إلى السّنّة أكثر من حاجة السّنّة إلى القرآن. أي حاجة المبيّن (إسم مفعول وهو القرآن) إلى المبيّن (إسم فاعل وهو السّنة). ومن ذا كانت السّنّة المبيّنة للقرآن الكريم محفوظة حفظ القرآن نفسه.

السّنّة المبيّنة التي لا عبادة إلاّ بتبيينها وليس غيرها إلاّ قليلا. ومن ذا كانت السّنّة التّعبّديّة صحيحة في كلّياتها وأكثر تفاصيلها إذ هي مدار الدّين إعتقادا وتعبّدا وحياة الأسرة، وما عدا ذلك لا يزيد السّنّة في مختلف مستوياتها قوّة وضعفا إلاّ ثراء وخصوبة.

ذلك هو الذي عالجه علم أصول الفقه فيما عرف بتخصيص السّنّة لبعض عموميّات القرآن الكريم، أو بتقييدها لبعض مطلقاته، أو تبيينها أو تفصيلها لبعض مجملاته. أحوج النّاس إلى السّيرة غير الملزمة للنّاس

---

[35] سورة النحل - الآية 44

[36] سورة الجمعة - الآية 2

هم المصلحون الذين يعالجون الحياة في مختلف حقولها، ولكن لا يشعر بذلك القاعدون. ومن ذا جاءت السّنّة مكفولة الإسناد لا خلاف عليها فيما هو دين، لا تستقيم حياة دينية إلاّ به. وظلّت السّيرة مرسلة ولكن ما سجّل القرآن الكريم منها يظلّ عمدة لأولئك المصلحين.

التجربة الراشدة أو إعتبار أعلى إجماع

حول إعتماد الخلافة الرّاشدة المهديّة الأولى حقلا يبيّن القرآن الكريم خلاف معتبر. عندما يكون المقصود بتلك الخلافة أمرين هما : تحديد مدّتها وتحديد معنى الإتّساء، فإنّ تلك الخلافة تكون عندي حقلا للاقتداء. أمّا مدّتها فهي من أبي بكر حتّى الحسن عليهم الرّضوان جميعا، ولا يعدّ بعدها خلافة بل ملكا عضوضا أو جبريّا. أمّا محلّ الإتّساء فهي معالجاتها العامّة الكبرى، أي المعالجات السّياسيّة والماليّة والإداريّة والعلاقات الخارجيّة وغير ذلك ممّا لا ينطوي تحته الدّين بل الدّنيا. ومن مثل ذلك معالجة الإمام عليّ عليه الرّضوان للخوارج أنّهم معارضة سياسيّة تعامل بالإعتراف وفق قالته الشّهيرة أنّهم لا يحرمون فيئا ولا مساجد وغير ذلك. أو معارضة مسلّحة تنسف الإعتراف بالدّولة ومشروعيّتها بالكلّية وتعامل هنا بالقتال والحرب.

في الأمر حديث ضعيف السّند ولكنّ معناه صحيح. ومنه «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيينَ»[37]. ولا شأن لذلك بالعصمة. إذ

---

[37] من حديث أَبِي نَجِيحٍ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ - رضي اللّه عنه- رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ [رقم:4607]، وَالتِّرْمِذِيُّ [رقم: 266] وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

لا عصمة بعد موت محمد ﷺ. ولكن تظلّ العصمة الجماعية مسبغة على أمّة الإسلام قطعا مقطوعا. فلا تجتمع الأمّة على ضلالة لا في أمر دينيّ موقوف لا خلاف عليه ولا حتّى في أمر دنيويّ فيه كليّات إسلاميّة كبرى معروفة.هنا نحال على الإجماع، أوّل مصادر التّشريع في الأمّة بعد ما هو محلّ يقين من كلّ مسلم أي الكتاب والسّنّة.

الإجماع درجات وأنواع، وليس هنا محلّ الإنبساط فيه ولكن ما يناسب هذه المقدمة هنا هو أنّ إجماع الصّحابة ـ وخاصّة رؤوسهم المعروفة بالعلم والفقه والإنخراط في الشّأن العامّ وبصفة أخصّ من تولّى المسؤوليّات في الخلافة الرّاشدة ـ هو أعلى الإجماعات وما عداه دونه. وجه الكلام هنا هو أنّه ظهرت تأويلات في زماننا لغير يسير من المعاني الإسلاميّة والقيم القرآنيّة ممّا كان يعدّ إجماعا ولأسباب معروفة منها الجهل وسقوط السّقف السياسيّ للأمّة، وجدت تلك التّأويلات لها في الأمّة أمكنة. ولعلّ أخطرها التّأويل العلماني وبناته. سيما أنّه تعزّز بالسّلطان وأسند بغزو فكريّ. هنا نحتاج إلى تفعيل الإجماع ولكن بعد أن يكون متيقّنا إذ أنّ الإجماع نفسه يحمل ـ كما قال ذلك الإمام أحمد نفسه ـ وجها آخر يحمّله ما ليس فيه. تلك هي الحياة وقيمها. إمّا أن تستقيم عدلا وإلاّ فإنّها معرّضة لأن تمتطى ممّن سماهمﷺ الغلاة المحرّفين أو البطلة المنتحلين. في هذا السياق فإنّ التعلّم من إجتهادات الفاروق عمر عليه الرضوان أمر بالغ الأهمية. وذلك هو معنى أنّ إجماع الصّحابة سيّما من تولّى منهم الشّأن العامّ وشهد له بالرّسوخ في العلم يعمّق الفهم في القرآن الكريم ويفتح آفاقا كانت مخبوءة عن النّاس.

تراتبية مصدري الوحي

هذا مفتاح مهمّ قوامه أنّ القرآن الكريم حاكم على السّنّة نفسها. فلا تكرّ السّنّة على القرآن مطلقا. إلاّ بمعنى التّبيين الذي ورد معناه فيما أنف مرّات، ومرجع ذلك قوله سبحانه فيما عدّ الآية الدّستوريّة العليا في التّشريع الإسلاميّ التي جاءت في إثر بيان اللّه سبحانه لرسالة الأمّة «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ، إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا»[38]. وبعدما حدّ اللّه سبحانه للأمّة رسالتها أو شريعتها أرشدها إلى المنهاج الذي به تنزّل تلك الرّسالة وتحقّق تلك الشّريعة. وهو قوله سبحانه «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ، فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا»[39].

ويعضد هذا أدلّة جزئيّة كثيرة في القرآن الكريم وفي السّنّة، ومن ذلك قوله ﷺ لمعاذ وقد أرسله إلى اليمن قاضيا «بم تحكم؟ قال معاذ : بكتاب الله. قال عليه السّلام : فإن لم تجد؟ قال معاذ : بسنّة رسوله. فقال له عليه السّلام ثانية : فإن لم تجد؟ قال معاذ : أجتهد رأيي. فسرّ عليه السّلام وقال : الحمد لله الذي وفّق رسول رسول اللّه لما يحبّه اللّه ورسوله»[40]. والحقيقة أنّ هذه التراتبية محلّ إجماع ولا خلاف عليها البتّة. ولكن خلفت خلوف

---

[38] سورة النساء - الآية 58

[39] سورة النساء - الآية 59

[40] رواه الإمام أحمد في المسند وأصحاب السّنن وغيرهم بألفاظ مختلفة ومتقاربة.

بسبب عوامل كثيرة لا أرب لنا الآن فيها صرّمت تلك التّراتبيّة الدّستوريّة المكينة، فقدّمت السّنّة على القرآن الكريم تشريعا بإسم إستقلال السّنّة أحيانا بالتّشريع، وهو كلام قد نفصّل فيه فيما يأتي إن شاء اللّه لأنّ فيه ما فيه من اللّغط. وكثيرة هي الحقائق التي لا تستقبل حقّ الإستقبال أو لا تعلم حقّ الوعي، فيختلط حابلها بنابلها. وتارة بإسم النّسخ، وهذا مفتاح من المفاتح التي تبيّن هنا إن شاء اللّه، وفي أحيان أخرى جهلا مقذعا لا تأويل فيه.

إضطراب هذه التّراتبيّة سيّما في الأعصار الأخيرة لأسباب سياسيّة وطائفيّة ومذهبيّة وغيرها، أسهم في تصريم جوانب من التّديّن. ولذلك تصدّى بعض الرّجال المعاصرين لهذه الفوضى، رافعين لواء علميّا عنوانه: «ألاّ فقه إلاّ بالسّنّة. ولا سنّة إلاّ بالفقه، وأنّ القرآن الكريم حاكم متبوع، وغيره محكوم تابع» والمقصود هنا السّنّة. شغب الشّاغبون بسبب إضطراب ذلك السلّم الدّستوريّ في قضايا مهمّة من حياة النّاس، من مثل إقصاء حقّ المرأة من الصّلاة في المسجد بسبب تقفّي آثار إمّا ضعيفة لا تصمد أمام آثار أخرى من الحديث نفسه وممّا جرى عليه العمل في عهده ﷺ وفي عهد أصحابه الكرام عليهم الرّضوان، أو أنّها آثار مرتبطة بملابساتها فهي خاصّة بوجه من وجوه التّخصيص. كما شغب على حقّها في تولّي بعض المسؤوليات الإداريّة والسّياسيّة للخلط ذاته. وأمثلة أخرى كثيرة يمتلأ بها الخطاب الدّينيّ المعاصر إجترارا في المساجد وخارجها، سيما أنّ وسائل التّواصل الإجتماعي أغرت الكسالى بطلب العلم بطريق غير آمن . فهي سوق مفتوحة لكلّ من هبّ ودبّ ينفث فيها ما يشاء وبإسم غير إسمه. بل ربّما تقمّص إسما علميّا مغريا ومن خلفه ناعقون كثر يحطبون بليل

تراتبية القرآن الكريم نفسه

من بعد الفراغ من تأكيد التّراتبية الدّستوريّة العليّا، أي علويّة القرآن وحاكميته على كلّ ما سواه بما في ذلك السّنّة إلاّ تبيينا كما ورد، فإنّ تلك التّراتبيّة تحتاج إلى كلمة أخرى قوامها أنّ القرآن الكريم نفسه، بسبب تنوّع مستويات خطابه، يخضع إلى سلّم تتقدّم فيه أشياء وتتأخّر أخرى.

من ذلك أن يتقدّم النّصّ على الظّاهر فيه في مستوى التّشريع المقصود به تحريم الحرام أو إيجاب الواجب، وفيما عدا ذلك فلا تضير الإختلافات. ومن ذلك أن يتقدّم النّصّ المحكم المفسّر على نصّ ليس بمثل ذلك الإحكام. وما ذلك سوى ليتميّز التّشريع فلا يوجب على النّاس ما لم يوجبه عليهم ربّهم سبحانه، ولا يحرّم عليهم ما لم يحرّمه عليهم ربّهم سبحانه.

ومن ذلك أن تتقدّم المحكمات على المتشابهات، وهذا أمر لنا فيه آية صريحة في أوائل سورة آل عمران. وهو الأمر الذي عبّر عنه الفقهاء بالقطعيّات وتقدّمها على الظّنّيات.

ومن ذلك أن يتقدّم ما يتسوجب عذابا في الدّنيا على غيره أن تنتهك أعراض النّاس بإسم تطبيق الشّريعة. حتّى إنّ الفقهاء وضعوا قاعدة لها أصل من السّنّة، قوامها أنّ خطأ القاضي في العفو أولى من الخطإ في العقوبة، وغير ذلك ممّا لا يحسن التّفصيل فيه هنا لخروجه عن الموضوع.

ومن ذلك أن تتقدم الفرائض الجماعيّة التّكافليّة التّضامنيّة التي لا مناص منها لمناعة الأمّة وحصانتها، فلا تستهلك الفرائض الفرديّة الزّمن كلّه وتستبدّ به ليظلّ التّديّن شأنا فرديّا شبيها بالدّين الآخر.

ومن ذلك تقدّم القيم العظمى التي تأسّست عليها الأحكام والواجبات والنّواهي والقطعيّات وغير ذلك ممّا يعرف في محالّه. ذلك هو معنى أنّ التّراتبيّة داخل البيت القرآني نفسه بحاجة إلى ضبط، فلا يستوي مستوى تشريعيّ مع مستوى ترغيبيّ، ولا يستوي مكروه بالتّعبير الحادث مع محرّم، ولا ترفع التّرهيبات إلى درجة المحرّمات، ولتظلّ الأحكام الخاصّة بالبيت النّبويّ خاصّة.

من الأمثلة التي تورد هنا عنوانا فحسب دون بحث بما يتعلّق بهذه التّراتبيّة موضوع الرّدّة تمييزا لها عن الحرابة، وموضوع الرّجم في عقوبة الزّنى، وغير ذلك ممّا يتطلّب فقها أعمق.

القرآن الكريم محكم لا ينسخ

النّسخ معناه الإلغاء والإزالة والإستبدال معا. المرجع في ذلك قوله سبحانه «إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ»[41]. أي أنّ الملائكة الموكّلة بكم في الدّنيا كانت تسجّل بقوّة وضبط ما كنتم تعملون (لذلك جيء بالفعل مزيدا بأعلى درجات الزّيادة) ، وذلك يعني تضمينا أي إشارة وإقتضاء أنّ ذلك المستنسخ يمكن إعادة إظهاره وإخراجه وإبرازه. فالإستنساخ زيادة والنّسخ تجريدا هو فعل يتركّب من مرحلتين : مرحلة التّسجيل ومرحلة إعادة الإظهار.

---

[41] سورة الجاثية - الآية 29

يلوذ بعضهم بقوله سبحانه «مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا»[42] بغرض إثبات النّسخ في القرآن الكريم. والحقيقة أنّ سياق هذه الآية في سورة البقرة يتّجه إلى نسخ الآيات المادّية التي عليها يؤمن النّاس أو يكفرون، إذ أنّ الحديث هنا عن بني إسرائيل. ذلك أنّ هؤلاء وغيرهم من الأقوام السّالفة يصدّون عن الإسلام متذرّين بالمطالبة بآية مادّية، وأنّ هذا الأمر من المعارك الضارية التي خاضها القرآن الكريم كما تقدّم معنا في المحور الأوّل. ولذلك يظلّ القرآن الكريم يبدئ فيه ويعيد مرّات ومرّات.

ومعلوم أنّ بني إسرائيل بصفة خاصّة وهم التّحدّي الأكبر في المدينة أوّل العهد كانوا يشوّشون على الإسلام بأنه لم يأت بآية مادية قاهرة تظلّ الأعناق لها خاضعة. كما هو الحال عند أنبيائهم. وفي هذا السياق قال سبحانه كما أثبت ذلك مرّات أنّ الأمر لا يتعلّق بعدم قدرة اللّه سبحانه على ذلك «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّه عَلَى كُلّ شَيْء قَدِير»[43]. إنّما يتعلّق الأمر بأنّ شيئا جديدا جدّ في البشريّة، وهو أنّ اللّه سبحانه لن يعلّق الإيمان على آية مادّية، إنّما على آية معنوية، وهي القرآن الكريم فحسب، ولا شيء غير القرآن الكريم، ذلك هو سياق الآية.

عالج السّابقون هذا الأمر كثيرا، ومنهم من شطّ فيه شططا حتّى ذهبوا إلى أنّ اللّه سبحانه أنزل آيات في الكتاب العزيز سمعها الصّحابة أنفسهم، ثم نسخها لحما ودما، ولكن ظلّت حكما. ويوردون على ذلك زعما أنّه قال

---

[42] سورة البقرة - الآية 106

[43] سورة البقرة - الآية 107

سبحانه إثباتا لحكم الرّجم «والشّيخ والشّيخة إذا زنيا، فاجلدوهما البتّة» وغير ذلك. هذا لا يستقيم بأيّ طريقة، بل إنه لا يليق. عدا أنّ بعضهم عندما يريد أن يصل إلى شيء يطوّع كلّ شيء له. الحوار هنا يظلّ دوما مع الإجتهادات إذا سمح المرء لنفسه أن يخلع عليها هذا الفضل الكبير، وليس مع أهلها. فلهم الذي لهم وعليهم الذي عليهم شأن كلّ ناظر.

ولم يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ، بل ذهبوا إلى نسخ عشرات بل مئات من الآيات. أنّى يستقيم ذلك والقرآن الكريم يؤكّد مرّات أنّه كتاب أحكمت آياته ثمّ فصّلت؟ من حيث المبدأ يمكن أن تنسخ بعض الأحكام في الإسلام زمن التّنزيل، بل وقع هذا دون نكير. ولكن المنكور هو دعوى النّسخ بلا دليل، وخاصّة في القرآن الكريم من ناحية. وبصفة أخصّ الآيات المحكمات التي هي أمّ الكتاب.

أيّ قيمة لكتاب تنسخ أمّه؟ هناك مشكلة يعرفها طلبة العلم المثابرون وهي مشكلة لفظيّة ومخّها هو أنّ الأقدمين كلّهم تقريبا يسمّون التّقييد نسخا، ويسمّون التّخصيص نسخا، ويسمّون التّفصيل نسخا. وبعضنا عندما يقرأ ذلك يظنّ أنّه النّسخ بمعناه اللّغويّ والعرفيّ وليس الشّرعيّ أي أنّ كلّ ما هو مطلق فهو منسوخ، وكلّ ما هو عامّ فهو منسوخ، وكلّ ما هو مجمل فهو منسوخ.

أمّا بعض أتباع التيّار السّلفي المعاصر، فإنّهم إقترفوا ما لا يعدّ علما ولا فقها، إذ عمدوا إلى القول بنسخ آية السّيف ـ من دون حتّى أن يجمعوا عليها إجماعا ـ نسخت محكمات أخرى كثيرة، من مثل الدّعوة بالحسنى والموعظة والحكمة والجهاد بالقرآن الكريم والصّفح وغير ذلك ممّا هو محكم في الكتاب العزيز، منثور مبثوث لا تخطئه عين قارئ متدبّر. ما

شغب على النّسخ كذلك أمر آخر وهو مراعاة القرآن الكريم لحالات الضّعف والقصور والقلّة في المؤمن أو في الجماعة نفسها. وبذلك قال كثيرون منهم تعلّقا بتلك الحالات أنّها نسخ. والحقيقة أنّها ليست نسخا إنّما هي رخص شرعيّة أو بثّ للشّريعة أمام النّاس لإمكانيّات المعالجات في مختلف الحالات. من ذلك قوله سبحانه «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ»[44]. هذا ليس موضع نسخ، ولكنه موضع تنبيه، إذ أنّه علّل ذلك بقوله «حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ». ومن ذا فلا يقصر الأمر على شرب الخمر بل على كلّ ما يمكن أن يصرف المصلّي عن صلاته من صوارف الإنشغال الكبيرة. هذا الموضع هنا يقاس على قوله ﷺ «لا يقضي القاضي وهو غضبان»[45]. فهل يقضي القاضي وهو يطير فرحا؟ أو وهو ظمآن؟ أو جوعان؟ أو خوفان؟ أو وسنان؟ طبعا لا. أي أنّه لا مناص من مراعاة العلّة. ومواضع أخرى كثيرة في الكتاب العزيز يحال الأمر فيه من حال القوة إلى حال الضعف. أو من حال الكثرة إلى حال القلّة. ليس هذا نسخا لحكم إنّما هو رعاية لطارئات وإثبات لرخص من بعد عزائم. تشبّث بعضهم بآية البقرة كذلك وهي قوله سبحانه «كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ»[46]. وقالوا بأنها منسوخة بآيات الفرائض في سورة النساء. القول الأصوب والأدنى إلى النظم القرآني المحكم أنّ ذلك ليس نسخا لحكم إنما هو إيصاء

---

[44] سورة النساء - الآية 43

[45] البخاري عن أبي بكرة

[46] سورة البقرة - الآية 180

بالوالدين والأقربين ـ كما هو الحال في سورة النساء نفسها وفي موضوع تقسيم المال نفسه ـ عندما تجدّ حالات خاصّة. ذلك أنّ حديث «لا وصيّة لوارث» لم يثبت[47]. وأمثلة أخرى كثيرة ليس الغرض هنا تتبّعها. إنّما الغرض هو إثبات أنّ القرآن الكريم كتاب لم ينسخ منه حرف واحد ولا آية واحد ولا حكم واحد. حتى ما يمكن أن يكون محلّ إشكال هنا وهو قوله سبحانه «وَاللاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلا»[48] فإنّه ليس نسخا بآيات سورة النّور، إنّما هو تحوّل من حال إلى أخرى لبيان حكمة التّشريع من جهة ورحمته من جهة أخرى. سيّما أنّه حمل ـ هذا الموقع المدّعى له بالنّسخ نفسه ـ السّبيل الذي وعد به في الآية نفسها. بل إنّ الحكم لم ينسخ كلّه، إذ أبقى على قيمة الشّهادة، بل على عدد الشّهود.

لا أجد موضعا واحدا في الكتاب العزيز يمكن أن أخلع عليه صفة النّسخ، لا نسخ حكم بحكم ولا نسخ آية بآية، إنّما هو كتاب أحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير. لمن يريد تجنّب فتح هذا الباب الذي يتسلّل منه المغفّلون حتّى مع حسن طويّة. بمثل ما يتسلّل منه الخصوم. ثمّ إنّهم لم يتوقّفوا عند هذا الحدّ، بل إدّعوا أنّ السّنّة نفسها تنسخ القرآن الكريم. وهنا تكون الطامّة حقّا ليكون الكتاب المحكم ألعوبة بأيدي الجهلة والخصوم.

---

[47] الترمذي عن عمرو إبن خارجة وقد ضعّف الحديث

[48] سورة النساء - الآية 15

مناسبات النزول بين حكمتها وضابطها

معلوم أنّ القرآن الكريم نزل منجّما بالتعبير البشري ترجمانا لقوله سبحانه «وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا»[49]. وظلّ كذلك لزهاء ربع قرن. سمّيت في القديم أسباب النزول، ولكنّ التّسمية الأوفى هي أنّها مناسبات وليست أسبابا. ومعلوم أنّ الحكمة من ذلك مركّبة، فهي حصول المكث كما ورد في الآية آنفة الذّكر. ومعنى ذلك هو يسر الفهم والفقه والوعي من النّاس. وهو منهاج تربويّ تعليميّ تأديبيّ صحيح. ولو نزل جملة واحدة كما رغب في ذلك الكافرون ما كان ليحتفظ بتلك الحكمة.

من صور تلك الحكمة أنّه بنزوله منجّما يعالج التّحديات الواقعيّة والمشكلات التي هي محلّ معافسة ومعاناة، وتلك هي الفائدة العظمى من هذا الكتاب العزيز أنّه كتاب واقعيّ لا تجريديّ، وأنّه يهتمّ بما يشغل النّاس وليس بمعالجة مشكلات غير مشكلات عصرهم، أو بتحدّيات ليست من تحدّيات مكانهم. والمعجز فيه الأبهر هو أنّه يحتفظ بتلك الخاصّية على الدّوام لمن يقبل عليه أنّه طبيب وصيدلية معا. لذلك ولغير ذلك نزل منجّما على مكث مفرّقا على الزّمان والمكان. ومن ذا نعرف نحن اليوم كما عرف من سبقنا ما هو مكّيّ منه وما هو مدنيّ.

مناسبات النّزول إذن لا مناص منها لإدراك الحكمة. ولكن لا مناص منها للزوم ضابطها، وهو أنّ العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب.

---

[49] سورة الإسراء – الآية 106

من أكبر فوائد معرفة مناسبات النّزول تعميق الفهم. أبهر تمثيل عندي لذلك هو أنّ من عاش الأمر وعافس المشكلة وحيي القضيّة بلحمه ودمه يكون أقدر على الفهم في الحياة. كمن عاش بنفسه حربا مثلا أو صلحا أو حادث سيارة أو ظروف موت، فإنّه يُدعى دون غيره من القاضي، بسبب أنّه الأقدر على وصف الواقعة. ذلك هو الذي جعل الصّحابة سيّما الكبار منهم هم الأجدر بنحت الإجماع الأعلى وتفسير القرآن الكريم وبيانه. وما ذلك سوى بسبب أنّهم يعرفون فيمن نزلت هذه وأين وكيف، ولماذا وغير ذلك.

ليس ذلك عامّا في كلّ آية، إذ أنّ عدد الآيات التي ثبتت مناسباتها قليلة قياسا إلى عدد الآيات الجمليّ. وهو على خلاف بعض من سوّلت له نفسه أن يجعل بالكاد لكلّ آية سببا أو مناسبة، إذ أنّ آيات الإعتقاد ليس لها مناسبة إلاّ مناسبة البعثة نفسها، وآيات القيم العامّة، وآيات التعبّد نفسها وغير ذلك.

هناك مناسبات نزول ولكنّها قليلة نادرة قياسا إلى عموم الآيات، فمن توسّع فيها فقد ظلم نفسه. ومن نفاها بالكليّة فهو مثله. ومن يظلّ بين ذينك الأمرين أي الحكمة من جهة لنزول الكتاب منجّما والضّابط من جهة أخرى يصيب الحقّ. أي أنّ العبرة بعموم اللّفظ وليس بخصوص السّبب حتّى عندما يكون ثابتا راسخا مجمعا عليه، إلاّ أن تكون هناك خصوصيّة. وهذه لا تتعلّق إلاّ بشخص رسول اللّه ﷺ .

ممّا لا ريب فيه مثلا أنّ الآيات الأولى لسورة الممتحنة المدنيّة نزلت في حاطب إبن أبي بلتعة. ومثل ذلك فإنّ آيات سورة النّساء «إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ

الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ»[50] وما تلاها نزلت في تبرئة يهوديّ أتهم بالسّرقة زورا، وغير ذلك ممّا هو معروف.

الفرق في الفهم والوعي بين من يعلم مناسبة النّزول وبين من لا يعلمها هو الفرق نفسه بين رجل شهد الواقعة ـ أيّ واقعة ـ بنفسه لحما ودما، وبين رجل لم يشهدها ولكنّه علم بخبرها صحيحا. الأصل الذي قد يتخلّف هو أنّ الذي شهدها يكون أجدر بالفهم. ولكنّ ذلك الأصل يتخلّف ولذلك قال ﷺ «بلّغوا عنّي ولو آية، فربّ مبلّغ أوعى من سامع»[51]. و ستمرّ بنا ـ إن شاء اللّه ـ قصّة عمر مع أبي هريرة عليهما الرّضوان بسبب حديث قاله ﷺ، فحمله هذا على ظاهره بل على حقيقته وظلّ يبشّر النّاس به في حين أنّ الأوّل توقّف عند عاقباته ومآلاته، فراجع فيه النبيّ ﷺ فتراجع.

الإعتبار السّياقي محكّم

سياق الكلام ـ كلّ كلام ـ هو ما سيق له من لدن صاحبه مقولا كان أم مكتوبا، أم حركة جسد أو صورة. سياق الكلام ـ أيّ كلام ـ مناسبته وبيئته ومناخه وحاضره الرّاهن. لذا يشتكي أكثر السّياسيّين من أنّ تصريحاتهم عندما يهاجمون وقع إخراجها من سياقها، أي أجتزأت وأبتسرت. وذلك يعني أنّ كلّ كلام في كلّ لهجة ولغة إنّما يتكافل السّياق مع إعتبارات أخرى لتأدية مقصوده وتجلية مفهومه. من أمثلة السّياق في القرآن الكريم قوله

---

[50] سورة النساء - الآية 105

[51] البخاري عن عبد الله إبن عمرو إبن العاص

سبحانه «ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ»[52] . هذا الكلام لو أخرج من سياقه إبتسارا وإجتزاء، فإنه يعني لأوّل وهلة أنّ اللّه سبحانه يكرم أهل الجنّة بالنّعيم الرّوحيّ، فيدعوهم إلى الذّوق وهم معّززون مكرّمون. عدا أنّ السّياق الصّحيح يخالف ذلك البتّة. إذ أنّ الكلام موجّه إلى أهل النّار نكاية فيهم. الأمثلة على ذلك لا تحصى في كتاب إنّما جاء يتحدّى العرب الأقحاح لعلّهم يتواضعون أنّ هذا الكلام فاق كلامهم فيؤمنون به، وأنّ صاحبه الأمّيّ ﷺ ما ينبغي له أن يأتي بمثله.

من الأمثلة التي أهمل فيها السّياق وسرت على ألسنة العامّة بل في صدورهم سريان النّار في الهشيم، قوله سبحانه في سورة آل عمران «وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ»[53] ومن يبتسر هذا من سياقه فإنّ المعنى يكون أنّ الذّكر خير من الأنثى، أي أفضل منها. قبل المضيّ ولتكون السّيئة على هؤلاء مضاعفة فإنّ هذا التّعبير «وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ» يعني في اللّسان العربيّ القحّ أنّ الأنثى أعلى من الذّكر. ولكن ليس للجهل عندما يعربد بالعقول حدّ ينتهي إليه. وردت هذه (الليسيّة) أي إمتناع التّماثل والتّجانس في سياق معروف معلوم هو خدمة بيت المقدس في تقاليد تلك الدّيانة، إذ أنّ الأنثى لا تخدم البيت بما جعل أمل أمّ مريم عليها السّلام يخيب. إذ نذرت ما في بطنها لذلك. ولكن مردت علينا باقيات جاهليّات من الزّمن الماضي، فألغت إعتبار السّياق، وألغت مجرد التّفكير فيه، وإنزلق الفهم بشكل آليّ متعجّل إلى المعنى الجاهليّ العربيّ القديم.

---

[52] سورة الدخان - الآية 49

[53] سورة آل عمران - الآية 52

اليوم عندما تريد أن تعود بالنّاس إلى ذلك تواجه بمجادلات لا حصر لها. كيف لا، وقد أضحى هذا الفهم المنحرف بسبب إغتياله السّياق عرفا معروفا. وما أقسى سجون الأعراف لمن يعي ومنافي التّقاليد، عدا أنّها ناعمة تفعل في السّجين فعل السّحر.

لا فائدة في إستجلاب أمثلة أخرى من القرآن الكريم وهي كثيرة لا تحصى. ولكنّ المقصود من هذا المفتاح أنّ إهمال السّياق في أيّ كلام وفي أيّ لغة ومهما كان صاحب الكلام مفض بالضّرورة إلى عدم إلتقاط الرّسالة. وعندما يكون ذلك في كتاب العزيز الكريم سبحانه، فإنّ النّاكية هي الأنكى. في مواضع كثيرة يتحدّث القرآن الكريم عن قيم سيئة يقوم بها المؤمنون وهو يريد التّحذير منها. وبما أنّ تلك القيم منسوبة في العادة إلى غيرهم، فإنّ قاصري النّظر يخلعون صفة الكفر أو الفسق أو حتّى الردّة على من يأتي بعض تلك القيم. في هذه النّاكية وقع شباب كثيرون والسّبب هو إهمال السّياق أو الجهل به بالكليّة.

من السّياقات التي لا يتيقّظ لها بعضنا هو أنّ القرآن الكريم يتحدّث أحيانا عن الآية بحسبانها الآية المادّية التي يطالب بها غير المسلمين، ويتحدّث أحيانا أخرى عن الآية بالمعنى الحقيقي، أي الكلام المحشور بين فاصلتين في السّورة. وبالجملة فإنّ مراعاة السّياق شرط مشروط لحسن الفهم.

بين المكيّ والمدنيّ تميّز وتكامل معا

من المفاتح الأخرى لحسن فهم القرآن العظيم مراعاة زمن نزول الآية، هل هي مكية أو مدنية. إذ أنّ التّمييز بينهما فيما ترجّح يستند على المعيار

الزمنيّ، أي أنّ ما نزل قبل الهجرة هو مكيّ حتّى لو نزل خارج مكّة، وما نزل بعد الهجرة هو مدنيّ حتّى لو نزل في مكّة. الحكمة من هذا التّمييز هي أنّ المرحلة المكّيّة لم تشهد نزول التّشريعات العمليّة لا في المستوى التعبديّ ـ عدا الصّلاة المكتوبة في هيئتها الأخيرة قبل الهجرة بثمانية عشر شهرا ـ ولا في المستوى الحياتيّ العامّ، إنّما ظلّت التّعليمات تؤكّد قضايا عقديّة، من مثل مصدريّة القرآن الكريم ومصدريّة النّبوة نفسها وإستجلاب القصص الخالية من الأقوام الذين كذّبوا عنادا وكبرا فحاق بهم سوء شنيعهم. ومثل ذلك من الأمثال والإحالة على الكون للنّظر والتدبّر، وخاصّة في الدورة الحياتيّة التي تبدأ بنزول الماء من السّماء لتخضرّ الأرض فإذا إطمأنّ إليها أهلها أضحت غثاء وحطاما. وهو المثل الذي سيق عشرات المرّات بغرض التّدليل على أنّ البعث من بعث الموت أمر ممكن ويسير، وهو يقع في عالم الأحياء من إنس ودابّة ونبات.الغرض من ذلك هو تعريف النّاس بربّهم الحقّ حتّى يعظّم ويكبّر ويخشى مقامه، فيعبد من دون شريك وغير ذلك ممّا تمحضت له السّور المكّيّة الثّمانين ونيف.

كما ظلّت تلك المرحلة لا تكلّف المسلمين عدا بالبلاغ المبين والصبر الجميل. بخلاف المرحلة المدنيّة التي شهدت نزول التّشريعات في كلّ الحقول التّعبّديّة والحياتيّة العامّة. ومن ذا فإنّ إستنبات التّكليفات العمليّة من السّورة المكّيّة تكلّف لا أسّ له. ذاك هو معنى إتباع الظّاهر من الآي عند نزوغ شهوة من المتديّن إلى تكليف ما هوت إليه نفسه ولم يجد له في الوحي الكريم دليلا. من أروع الأمثلة على ذلك ما إستبدّ بالنّاس اليوم وفي العقود الأخيرة بسبب الجهل والأميّة الدّينيّة واللّغويّة فيما يتّصل بقوله سبحانه في سورة الواقعة المكّيّة «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ، فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ، لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا

الْمُطَهَّرُونَ، تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ»[54]. وبمثل ما ورد في شأن المثال السّابق في المفتاح السّابق، فإنّ عامّة المسلمين اليوم يعتقدون أنّ الأمر متعلّق بالمصحف الشّريف، وأنّ مسّه من غير الطّاهر طهورا ماديّا ـ سواء كان أمرا مكتوبا منه سبحانه على بنات حوّاء أو كان إختيارا من ذكورهم ـ هو ذنب أو معصية. تسلّل هذا الخطأ الشّنيع بسبب عدم إعتبار التّمييز بين ما نزل في مكّة فهو مكيّ لا يحتمل بأيّ وجه التّكاليف العمليّة وبين ما نزل بعد الهجرة فهو يحتمل ذلك. لن أفصّل هنا في الحكم، إذ كتبت في ذلك كثيرا وهو منشور. ولكنّ الغرض هنا في هذه المقدمات هو توفير ما يمكن أن يحتضن هذا الكتاب. والغرض في هذا المفتاح هو أنّ التّمييز بين المكيّ والمدنيّ ضروريّ لإحسان الفهم وتدقيق الفقه. أمّا الإمّعية والتّقليد الأعمى فيحسنهما كلّ كسول.

فواصل الآي سُرُجٌ منيرة

الفاصلة في القرآن الكريم هي الكلمات التي عادة ما تكون في جملة قصيرة وتفصل بين آية وأختها، مثال قوله سبحانه «إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ»، وهي فاصلة تعقّب على قوله سبحانه في سورة النور «قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ، ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ»[55].

ومن تتبّع الفواصل في القرآن الكريم يرصد بيسر أنّها تضخّ ما يكفي من أضواء للسّامع والقارئ على حدّ سواء بما يمكنه من حسن فهم الكلام

---

[54] سورة الواقعة – الآية 79

[55] سورة النور – الآية 30

المتقدّم من الآية. فإذا كانت الفاصلة ذات طابع علميّ، فإنّ اللّه يريد أن يهدّد التّالي بأنّ ما ورد ذكره معلوم عنده سبحانه. وقد يأخذ التّهديد هنا معنى التّرغيب. وإذا كانت الفاصلة مشدّدة فيها وعيد أو عذاب أو عقاب لازم في الدّنيا نفسها، فإنّ الآية تقرّر حكما أو تستشنع جراءة أو تستفظع قباحة. وإذا كانت الفاصلة في الإتجاه المضادّ لذلك أي فيه ترغيب وثناء وغفران، فإنّ الآية السّالفة تقرّر عملا محمودا أو صغيرة أو سيئة أو لمما بما يجعل المرء رجّاء روح منه سبحانه لا قنوط فيه و لا يأس بعده. وغير ذلك من إختلاف الفواصل في أغراضها. المراد من هذا المفتاح هو أنّ التّوقّف بلبث عند كلّ فاصلة مهمّ، لأنّ الفاصلة متعلّقة دوما وأبدا بما سبقها وليس بما يليها. بل إنّ الفواصل هي التي تحدّد الكبائر من السّيئات في القرآن الكريم وبنسبة عالية أن يختلط حابلها بنابل غيرها، فتكون من ذا فتنة.

العلماء يقولون أنّ الفاصلة متكفّلة بثلث المعنى وهو كلام صحيح. وبالجملة فإنّ حسن فهم الفاصلة يكفل صحّة المعنى المراد مع إعمال المفاتح الأخرى طبعا. إذ تتكافل المفاتح كلّها بعضها مع بعض لتأدية المعنى المقصود. يساق هذا الكلام إذ أنّ كثيرا من النّاس لا يعيرون الإنتباه اللاّزم لتلك الفواصل.

جمع المنظور إلى المسطور

هذا مفتاح مهمّ مقدّم وربما كان حقّه التّقديم ذكرا. هذا مفتاح دلّت عليه الآيات نفسها، ومعناه أنّه ما من سورة واحدة تقريبا في الذّكر الحكيم،

فضلا عمّا في أحشائها، إلاّ وهي تحيل الإنسان إلى الكون المنظور. وفي ذلك قال العلماء قالة بليغة قوامها أنّه لا بدّ من جمع الكتابين : المسطور،أي القرآن الكريم نفسه. وسمّي مسطورا حتّى عندما لم يكن مسطورا في مصحف في العقود الأولى لنزوله على صدر محمد ﷺ، إشارة إلى ثباته ثبات السّطر ورسوخه رسوخ السّطر. وما كان مسطورا فهو موثّق لا يمحى بل هو عقد من العقود. والكتاب المنظور الذي يحيل إليه الكتاب المسطور نفسه في مواضع هي بالمئات المئينة. ذلك أنّ اللّه يوجّه النّاس لإكتساب عقيدة صحيحة وإيمان قويم إلى الكون وإلى النّفس والفطرة وإلى التّاريخ والقصّة الغابرة. ومن ذلك أنّه أقسم عشرات المرّات بمحطّات الكون ومحطّات الزّمن من سماوات وما يعتلج فيها وضحى وعصر وشفق وليل ونهار وفجر وصبح وغير ذلك. ولم يكن ذلك سوى لصرف الأنظار إلى إبصار الكون والزّمان والمكان، وأصداء ذلك في النّفس. وهو التدبّر الذي يكفل لصاحبه إيمانا صحيحا وعقيدة سليمة. هذا الأمر ما ينبغي لمؤمن إغفاله.

المقصد الآخر من ذلك هو تسخير الكون لعمارة الأرض وجلب السّعادة ورغد العيش وإتخاذ أسباب القوّة. ذلك هو العلم والمعرفة التي تجعل من الأمم شهودا على النّاس لا مشهودا عليها. وإنّه لممّا يؤلم حقّ الإيلام أن ترى بناظريك آلافا مؤلّفة من النّاس اليوم يحفلون أيّما حفل بحبّة بطاطا أو بصغير بقرة رسم عليها إسم اللّه كما يهرفون أو إسم محمد ﷺ كما يتوهّمون، حتى ليكون ذلك لهم أوّل الإيمان الصّافي أنّه المعجزة التي عليها يؤمن النّاس أو يكفرون. في حين أنّ أسلافهم كانوا غزاة الكون بالعلم والمعرفة والنظر والتّفكّر والتّدبّر والتّأمّل والملاحظة والتّحليل. فنبغوا في

كلّ مضامير العلم وميادين المعرفة وبوّؤوا الأمّة المكانة الأولى. ومن يدرس التّاريخ يجد ذلك مبسوطا، بل إنّ المنصفين من الأوروبيّين شهدوا به مسطورا. ألا ترى أنّ كثيرين منّا يغرقون في مثل هاته الخرافات والأساطير ليتحوّل التّديّن عندهم ـ سيّما أنهم من شباب الصّحوة الإسلاميّة المعاصرة ـ عامل ردّة عن العلم والمعرفة وحركة الزّمان. والحال أنّه ليس هناك في الإسلام معجزة عدا معجزة القرآن الكريم؟

الخلاصة من هذا المفتاح هي أنّه لا فهم يوطّئ لصاحبه أكناف العلم والعرفان والفقه المطلوب عدا بضمّ المنظور إلى المسطور. وليست هذه قراءة من فلان أو علاّن، إنّما هي دعوة القرآن الكريم نفسه الذي رهن التّديّن المقبول بالسّمع. والسّمع هو نافذة العلم الأولى، إذ السّمع نظر وتفكّر وتدبّر وتأمّل وملاحظة. وذلك في مثل قوله سبحانه في سورة الأنعام التي يسمّيها بعضهم بحقّ سورة التّوحيد الكبرى «إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ»[56]. وآيات أخرى لا تحصى حضّا على التّدبّر والتّفكّر والنّظر. حتى كتب العقاد عليه الرّحمة سفره العظيم الذي جعل له عنوانا حريّا بالتّدبّر «التّفكير فريضة إسلاميّة». أجل، التّفكير فريضة إسلاميّة وليست مستحبّا أو رغيبة لمن ألقى السّمع وهو شهيد. أمّا الغافل اللاّهي المتعلّق بأسمال الخرافات والمتدثّر بسرابيل الأساطير، فلن يكسب في إيمانه خيرا قطعا مقطوعا، بل ربّما يستوي يوم تطلع الشّمس من مغربها مع من لم يؤمن، كما أخبرت بذلك آية هي عندي الأشدّ تخويفا «يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا»[57] ، والله أعلم.

---

[56] سورة الأنعام – الآية 36

[57] سورة الأنعام – الآية 158

التنجيم ومعناه المعاصر

التّنجيم معناه أنّ القرآن الكريم لم يتنزّل مرّة واحدة كما كان يتمنّى الذين لا يفقهون أو السّاخرون سواء بسواء. وهو المعنى الذي أكّده سبحانه في قوله في سورة الإسراء المكيّة «وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا»[58].ومواضع أخرى أكّد فيها المعنى ذاته وحقنها ببعض الحكمة، من ذلك في مثل قوله سبحانه «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، كذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ، وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا»[59].

التّنجيم لغة من فعل نجم بالتّجريد. ونجّم بالزّيادة، معناه الظّهور والبروز. إذ تقول العرب : نجم النّفاق أي ظهر من بعد إستتار، وما سمّي النّجم نجما إلاّ لظهوره وبروزه من بعد إختفاء. ونجم الماء ونجم النّبت، فالنّجوم هو الظّهور والبروز. أمّا تنجيم القرآن الكريم فمعناه أنّه ظهر للنّاس وبرز من بعد إستتار في اللّوح المحفوظ. وأنّ ظهوره كان على مكث وتريّث. أي لم يظهر مرّة واحدة، إنّما ظلّ يتنزّل مبثوثا في الزّمان والمكان والموضوع. وتلك هي حال النّجم الذي يظهر هنا في هذا الفصل ثمّ يظهر هناك في فصل آخر.

حركة النّجوم ـ أحد مصادر فعل نجم ـ إذن تعني الظّهور من جهة وإختلاف مواقع ذلك الظّهور من جهة أخرى. ما يهمّنا هنا هو سرّ النّجوم أو حكمته. ولم يتردّد القرآن الكريم نفسه في تعيين ذلك فبالإضافة إلى

---

[58] سورة الإسراء - الآية 106

[59] سورة الفرقان - الآية 32

الحكمة السّالفة أي التّثبيت هناك حكمة الإعجاز. ولكنّ الحكمة التي تعنينا هنا في هذا السّياق هي حكمة معالجة القرآن الكريم لواقعات النّاس وأحوالهم، وهو أسلوب في التّربية بليغ ومنهج في التّأديب عظيم. ذلك أنّ القرآن الكريم في معالجة الواقعات المعاصرة لتلك الجماعة المؤسّسة الأولى سواء في العهد المكيّ أو المدنيّ، إنّما كان يتنزّل من بعد وقوعها ليبيّن للناس حقّها من باطلها وصوابها من سوئها وخيرها من شرّها. ومن الحكم المتعلّقة بذلك أشدّ التعلّق هي أنّ التّربية والتّعليم عمليّات متدرّجة تلتقط إنبساطات النّفوس وإنقباضاتها. ولذلك قال فيما سبق ذكره «لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ»، إذ لو تنزّل مرّة واحدة وقرئ مرّة واحدة كان ثقيلا على النّفوس، فلا تفقه معانيه ولا يكون لتعليماته أيّ معنى. ولا معنى لمعالجة النّفوس وتربيتها وتأديبها وتعليمها إلاّ عندما تتنزّل المعالجة في إثر الواقعة. وهو المنهج الذي لزمه القرآن الكريم.

المعنى المعاصر الجدير بالإلتقاط هو أنّ هذا الكتاب العزيز إنّما جاء ليعالج الحياة البشريّة المتقلّبة وهي حياة متحرّكة. بل هي معركة ملؤها الكدح والكبد والسّعي والعمل كما ذكر ذلك في الكتاب العزيز. ومن ذا فإنّ التّنجيم الملازم لتنزّل الكتاب في الغابر ما ينبغي لنا سوى مراعاة معناه إذ قد تمّ رسمه.

مراعاة معنى التنجيم تعني إستخدام القرآن الكريم لما إستخدم له سابقا، أي معالجة الواقعات بعد وقوعها. كمن يمرض فيعود طبيبا يصف له دواء، فلا قيمة للدّواء إلاّ من بعد مرض يعالجه. الدّعوة في هذا الكتاب هي إلى إستقراء تنجيميّ للقرآن الكريم أو إلى قراءة تنجيميّة، أي إلى إستعمال القرآن الكريم لما كان يستعمل له في السّالف، أي معالجة الواقعات من

بعد وقوعها. ولذلك أعرض نظمه بالكّليّة عن ذكر جنبات القصّة من إسم مكان وإسم زمان وإسم بطل وصاحب قصّة وظالم ومظلوم وغير ذلك ممّا يحرص عليه القصّاصون. وما كان ذلك منه سوى لجعل الإنسان منهمكا في فقه العبرة وإستجلاء الحكمة. ذلك هو معنى التّنجيم في الغابر. وذلك هو معنى إستدعاء الفهم التّنجيميّ في الحاضر.

من فوائد المعالجة التّنجيمية توخّي التدرّج في معالجة القضايا، وفهم أسبابها قبل معالجتها، ووضعها في أطرها بلا إجتزاء أو إبتسار، وتقديم العلم على العمل، والموعظة على العقوبة، والتّحرير على الدّعوة، والعدل على الشّريعة، ومصلحة الجماعة على مصلحة الفرد، وأولويّة القلب على الجارحة، وغير ذلك ممّا لا أرب فيه الآن. ولو خولف هذا المنهج، فإنّ القرآن يستحيل فينا تعويذات مبهمة وقصصا غابرة لا شيء فيها عدا التّسلية. وإنّه لعمري ما نزل عدا لإصلاح الحياة ومعالجة الحركة فيها.

فهم زمن التنزيل

من أجلّ المفاتح التي تساعد القارئ والمستمع المنصف على حسن الفهم ودقّة التّنزيل فقه الحالة الإجتماعيّة العامّة للنّاس زمن نزول القرآن الكريم. تلك هي معجزة هذا الكتاب الخالد، إذ أنّه يعالج الحالة الرّاهنة بأسلوب تعبيريّ ومنهج تركيبيّ يشفي الغليل، فإذا خلف جيل جيلا وجد الخالف ما وجده السّالف في الكتاب نفسه وباللّفظ نفسه والمعنى نفسه. هذا أمر إنفرد به هذا النّظم الباهر.

بالمثال يتّضح الحال كما قالت العرب. فمن ذلك قوله سبحانه في سورة البقرة في شأن القصاص «الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ»[60]. في هذا التّركيب الدّقيق يريد القرآن الكريم أن ينبذ قصاصا جاهليّا كان يأخذ البريء بجريرة المجرم. إذ عندما يقتل لقبيلة رجل فإنّها تقتل من القبيلة المعتدية رجالا. الآية هنا ليس وفق ما فهمها كثيرون، بل وثبّت هذا في بطون بعض الكتب المعتمدة أنّ سعر الحرّ هو ليس سعر العبد في تلك الأيام، إذ نجح الإسلام بتشريعه الواقعي في تجفيف منابع الرقّ. أو أنّ سعر الذّكر هو غير سعر الأنثى. إنّما جاء هذا التّركيب في نكهته التّدقيقيّة ليقول للنّاس أنّ ما كان يفعل من قبل جاهليّا ليس هو قصاص، إنّما هو عدوان. وأنّ القصاص الحقّ هو قتل واحد بواحد فحسب.

عندما ذكر الوحي الكريم الخيل ورباطها في سياق إعداد القوّة العسكريّة فإنّما هو يناسب زمن التّنزيل، ولذلك ذكر القوّة أصلها في البداية ومنكّرة حتّى تكون هي الأصل وما الخيل ورباطها إلاّ وسيلة من وسائلها.

الأمر نفسه عندما تعرّض لشهادة المرأة في سورة البقرة وقد مرّ بنا هذا في سياق آخر، إذ أنّ المرأة في تلك الأيّام تكون شهادتها بنصف شهادة الرّجل ليس بيانا لسعرها ولا دحضا لقيمتها بسبب أنوثتها كما سجّل ذلك ويا للأسف الشّديد في بطون كتب معتمدة صاغت العقل المسلم لقرون سحيقة، وإنّما كان ذلك لأنّ المرأة لم تعافس القضايا الماليّة والإقتصاديّة. فإذا تساوت شهادتها مع الرّجل الذي يفعل ذلك فإنّ حفظ حقوق النّاس الماليّة يكون في محلّ التّهديد.

---

[60] سورة البقرة – الآية 178

لم تحدّث القرآن الكريم دوما عن النّذر بصيغة الأمر بالوفاء به ولم يمل ولو مرّة واحدة ميلا خفيفا إلى إستحسانه حتّى لو كان نذرا غير معلّق؟ إنّما راعى في ذلك مناخ التّنزيل، إذ أنّ النّاس حديثو عهد بشرك. والنّذر فقرة ثابتة ومفردة راسخة في الطّقوس الشّركيّة اليّوميّة. والقرآن الكريم متشوّف بجدّ إلى حفر خندق غائر لا يعبر بين الإيمان وبين الشّرك سيما في الزّمن المكّيّ، ولذا قصر الحديث عن الوفاء به إذا صدر بحسبانه يمينا كما قال الفقهاء قياسا. ولإمضاء حاسّة العزم عند النّاس ووأد حاسّة التردّد عندهم.

الأمثلة كثيرة والغرض هنا ليس إحصاؤها، إنّما الغرض هو القول بأنّ التيقّظ لمناخات التّنزيل في الوحي الكريم مهمّ وضروريّ وهو لبنة حيّة وجرعة حرّى لبناء عقل مسلم معاصر ينشئ الجدل المطلوب بين مناخ تنزيليّ ومناخ حادث.

المقدّمة السّابعة

الكتاب والميزان صنوان

صرّح القرآن الكريم في سورة الحديد أنّ اللّه سبحانه أنزل إلينا الكتاب والميزان معا وذلك في قوله «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ، وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ»[61]. كما ذكر المعنى ذاته في سورة الشّورى، إذ قال سبحانه «اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ»[62] . وذكر الميزان ثالثة في سورة الرّحمان إذ قال سبحانه «وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ »[63]. ولأنّ النّظم القرآنيّ بليغ بديع يعالج المعنى نفسه في مواضع لا تحصى ولكن بتراكيب جديدة يقتضيها السّياق الجديد، فإنّ القرآن الكريم نفسه ذكر قيمة الحكمة التي أنزلها مع الكتاب الحكيم نفسه. مثال ذلك في قوله في سورة البقرة «وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ »[64]. وقال في موضع آخر عن الحكمة التي جعلها مادّة من مواد التّعليم النّبوي للأمّة في مواضع كثيرة «وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ»[65]. وذكر أنّ الحكمة مادّة يتعلّمها أمّهات المؤمنين

---

[61] سورة الحديد – الآية 25

[62] سورة الشورى – الآية 17

[63] سورة الرحمان – الآيات 9.8.7

[64] سورة البقرة – الآية 231

[65] سورة البقرة – الآية 129

عليهنّ الرّضوان في البيوت في سورة الأحزاب، إذ قال «وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ»[66]. كما وردت قيمة الحكمة في مواضع أخرى كثيرة. ولكنّ غرضنا الآن هنا لأسباب منهاجيّة هو تتبّع إستبدال الميزان المنزّل مع الكتاب بالحكمة. ولقد ثبت بالإستقراء أنّ الحكمة تنزّلت مع الكتاب الكريم، وأنّ الميزان مثلها. ومن ذا فإنّه لنا أن نقول بإطمئنان أنّ الحكمة ولو في جانب منها هي الميزان، وأنّ الحكمة أو الميزان منزل مع القرآن الكريم جنبا إلى جنب وسواء بسواء بصريح القرآن الكريم نفسه. ولكن مع ذلك تظلّ قيمة الميزان أو الحكمة محلّ جدل. وذلك مقصود من القرآن نفسه الذي لا يهب المرء فكرة بل يعلّمه كيف يفكر.

عالج النّاس من قبل هذا ومازالوا يعالجون، أي ما هي الحكمة المنزلة مع الكتاب، وما هو الميزان المنزل مع الكتاب؟ فمن قائل أنّها السّنة النّبويّة، وهو قول صحيح ولكنّه ليس بكاف إلاّ بمعنى أنّ النّبي محمدا ﷺ تولّى تبيين الكتاب الكريم بسنّته قولا وعملا وإقرارا وسيرة كذلك. ومن هذه الزّاوية فإنّي أقول مع القائلين أنّ الحكمة أو الميزان المنزّل مع الكتاب الكريم جنبا إلى جنب هو السّنّة والسّيرة معا. وذلك مشروط بشروط الإجتهاد في السّنّة ذاتها متّى تكون تشريعيّة ملزمة ومتى لا تكون، ومتى تكون خاصّة ومتى تكون عامّة، ومتى تكون وسيلة ومتى تكون غاية، وغير ذلك ممّا يفيض فيه علم مازال مطمورا فينا وهو علم مقامات الشّريعة أو المشرّع نفسه، والمقصود به هنا هو محمد ﷺ.

---

[66] سورة الأحزاب – الآية 34

ومن قائل أنّ الحكمة أو الميزان هي حسن الفهم المفضي إلى حسن التّنزيل، وهو قول صحيح كذلك، بسبب أنّ لزوم المنهج الإسلاميّ قرآنا وسنّة يفضي بالضّرورة إلى إكتساب منهج تفكيريّ صحيح سليم متوازن وسطيّ عادل، يضمن الصّراط المستقيم قولا وعملا وفردا وجماعة.

ومن قائل أنّ الحكمة أو الميزان هو ما يحقّق العدل والقسط والقيم التي أرادها سبحانه للبشريّة جمعاء قاطبة. ذلك أنّ الميزان يرمز إلى تلك القيم. وهو ميزان ماديّ في المعاملات الماليّة وميزان معنويّ فيما عداها. وهو قول صحيح كذلك بسبب الأيلولة والصّيرورة أو النّظرة المقاصديّة.

والحقيقة أنّ ذلك هو مقصود النّظم القرآني الكريم الذي يبثّ القيمة في سياقات متعدّدة من جهة وبألفاظ مختلفة من جهة أخرى وينيطها بعللها ومقاصدها من جهة ثالثة. وعندما تلتئم حلقات تلك المعاني والقيم من خلال إستقراء سياقاتها ومقاصدها في القرآن والسّنّة معا ـ ولا أتردّد في إضافة أعلى درجات الإجماع أي إجماع الصّحابة وخاصّة في الشّأن العامّ الذي زاولوه في المرحلة الأولى من الخلافة الرّاشدة المهديّة الأولى ـ فإنّ ذلك العمل هو الحكمة نفسها. وهو الميزان نفسه حتّى لو إختلف القائلون هل هو سنّة وسيرة، أم هو نشدان لتنزيل قيم الحقّ والعدل والقسط وما يرمز إليه الميزان والحكمة، أو هو إعمال العقل والنّظر والتّدبّر وخاصّة الجماعيّ منه بإستقلال عن تقليد سلف مهما أصاب أو خلف مهما نجح. كلّ ذلك هو الحكمة عندي وكلّ ذلك هو الميزان.

ما يعنيني هنا في هذه الفقرة هو أنّ الكتاب وحده لا يكفي، وأنّ الحكمة أو الميزان وحده لا يكفي كذلك. فلا مناص من جمع الكتاب لأنّه دستور نظريّ يحمل عقائد وتصوّرات وأفكارا ومعالجات فكريّة ثقافيّة إلى السّنّة

والسّيرة من جهة وإلى الإجماع الصّحابي الأعلى سيما في الفترة الأولى من الخلافة الرّاشدة المهديّة الأولى، ثمّ جمع مخرجات النّظر العقليّ من كلّ ناظر في كلّ زمان وكلّ مكان، وتقديم النّظر الجماعيّ دون إقصاء حقّ الفرد في ذلك، ومن بعد ذلك كلّه مراعاة العصر ولازماته وقراءة مواطن التّغيير في الأحكام الظّنيّة والفتاوى ومعالجة الواقع ومعافسة المحيط والإنخراط في المشروعات الإصلاحيّة في أيّ حقل أو مجال.

ومن ذا، فإنّ الحكمة أو الميزان إن هما إلاّ كلّ ذلك مجموعا متكافلا لا يطغى هذا على ذاك ولا يتقدّم هذا على ذاك إلاّ تقدّما معلوما معروفا قوامه أولويّة القرآن الكريم نفسه على كلّ شيء، ثمّ أولويّة ما ثبت من الحديث عفوا من ملابساته الظّرفيّة وغير ذلك من أصول التّراتبيّة الدّستوريّة الإسلاميّة المعروفة.

بذلك التّمشّي الجامع وفق منظومة قيميّة محكومة بالأولويّة من جانب، وبحقّ النّظر لكلّ ناظر من جانب آخر، وبنشدان رموز الميزان والحكمة أي قيم الحقّ والعدل والقسط وغيرها، فإنّ الأمة تصيب المقاصد التي لأجلها تنزل الميزان مع الكتاب ولأجلها تلبّست الحكمة بالكتاب.

ذلك هو المراد من أنّ الوحي والعقل صنوان، وأنّ الكتاب والحكمة شقيقان، وأنّ القرآن الكريم والميزان معلمان يضمنان الثّبات على الصّراط المستقيم إعتقادا وعبادة وخلقا وعملا في كلّ حقل ومجال في المستوى الفرديّ والأسريّ والجماعيّ والدوليّ.

الكلمة الفصل عندي في الميزان هي أيلولة من المعالجات تحقّق المراد الإلهيّ المنصوص عليه هنا أي : القسط، الذي هو أبلغ من العدل وأدقّ.

فإذا قام النّاس بالقسط في الحياة قدر الإمكان، فإنّ الكتاب والميزان أو الكتاب والحكمة قد إقترنا. وهل يكون ذلك بلا حديد؟ أبدا. ومن ذا جاء إنزال الحديد تاليا لإنزال الكتاب والميزان بلا تخلّف ولا تردّد. تلك هي ثلاثيّة الإسلام وأمّته : الكتاب الذي يؤمّن الحقّ، والميزان الذي يؤمّن الحكمة والعقلانية، والحديد الذي يؤمّن القوّة. وعندما تكون القوّة بأيدي أهل الحقّ والحكماء من ذوي العقل، فإنها تكون قوّة مؤمنة لا قوّة كافرة، وتكون قوّة عدل لا قوّة جور. هل ترك هذا التّنزيل شيئا لم يذكره؟ أبدا واللّه.

المقدّمة الثامنة

القرآن : كتاب الأمة وليس الفرد فحسب

لست مبالغا إذا عدّدت أنّ هذه المقدمة هي أخطر مقدّمة حاضنة لمقاربة بيانيّة موضوعيّة جامعة لهذا الكتاب العزيز على أساس أنّ (السّبع المثاني) هي عاصمة ذلك البيان. ذلك أنّ من يستقرئ هذا الكتاب العزيز إستقراء موضوعيّا جامعا سيجد أنّ هذا البلاغ موجّه إلى الإنسان من حيث أنّه جنس وإلى البشريّة جمعاء قاطبة بحسبانها أمّة دعوة كما يقولون وإلى الأمة الإسلامية كلّها بحسبانها أمّة الإجابة.

حظّ الفرد في هذا الكتاب العزيز عزيز نادر وهو لا يتعدّى الحقل العقديّ والتّعبديّ والخلقيّ والأسريّ. بل حتّى في هذه الحقول فإنّ الفرد مخاطب في هذا الكتاب بالحقل العقديّ فحسب، لأنّه حقل فرديّ خاصّ لا سلطان فيه سوى لصاحبه الذي خيّر بين الإيمان والكفر كما ورد في سورة الكهف. حتّى الحقل التّعبديّ ليس متمحّضا بالكلية للفرد إذ يدعو إلى صلاة الجماعة والجمعة وغيرها ممّا فصّلت فيه السّنة. وبمثل ذلك فإنّ الصيام عبادة جماعيّة في زمن واحد، ومثلها الزّكاة التي لا بدّ فيها من طرفين. بل

هي حقّ الدّولة وليست حتّى عملا تعبديّا فرديّا. وبمثل ذلك الحجّ والعمرة وغير ذلك، كلّها تقترف في جماعة. وبمثل ذلك الحقل الأسريّ الذي فيه تعاقد بين زوجين وبين أسرتين ويبثّ اللّه منهما رجالا كثيرا ونساء. أين إذن حظّ الفرد في هذا الكتاب؟ ذلك هو ما أعنيه على وجه التّحديد من هذه المقدمة. فمن وعاها نحت له مدخلا رحبا منه يفقه رسالة هذا الكتاب وكلياته وعقائده ومعاقده ومقاصده وأصوله، ومن تنكّب ذلك فقد ولج إلى هذا الكتاب مولجا ضيّقا.

إقرأ بنفسك هذا الكتاب مرّة أخرى بغرض البحث عن حظّ الفرد والبحث في الآن نفسه عن حظّ الجماعة لتلفى بنفسك أنه يتحدث دوما بصيغة الجمع داعيا المؤمنين أو النّاس أو بني آدم أو الإنسان جنسا. ثم إقرأ كرّة أخرى لتجد أنّه يتحدّث عن القضايا العامّة سواء قضيّة النّفاق أو الشّرك أو الظّاهرة الإسرائيليّة أو السّلم أو الحرب والجهاد أو الإنفاق أو العلوم والمعارف أو شؤون الأمّة في الحكم والسّياسة والعدل والقسط والتّعارف والوحدة وحقّ الإختلاف أو غير ذلك ممّا إمتلأ به الكتاب. عندما تفعل ذلك بنفسك تعي تمام الوعي أنّ هذا الكتاب هو كتاب الإنسان جنسا وكتاب البشريّة وكتاب الأمّة. وأنّ حظّ الفرد فيه ليس هو ضئيل فحسب ولكن لا طول له ولا حول ولا إعتبار إلاّ بقدر إنصهاره في الحظّ الجماعيّ.

الجهاد مثلا قضيّة مثارة في زماننا وهي قضيّة لا يكلّف به الفرد كائنا من كان إنّما تكلّف بها الأمّة حتّى وهي في يمّ ضعفها. فلا وجود لجهاد فرديّ ولا يمكن أن يكون الجهاد فرديّا. ومثله إنفاق المال جهادا به، ومثله العلوم والمعارف والدّعوة وفعل الخير والتّعاون عليه والتّواصي بالحقّ والصّبر والمرحمة.

حقيقة عظمى كبرى نحن عنها غافلون، معلوم أنّ هذا التّحريف الخطير الذي جعل أكثرنا اليوم ومنذ عقود وقرون ننظر إلى القرآن الكريم أنّه كتاب فرد أو أسرة في أقصى الحالات، إنّما نشأ من آثار ذلك الإنقلاب الأمويّ الرّهيب الذي إستأثر بأخطر الشّؤون العظمى التي جاء بها هذا الكتاب، أي شؤون الحكم والدّولة والسّياسة والمال والتّعاون والتّراحم والوحدة وحقّ الإختلاف والجهاد وغير ذلك ممّا لا يحصى من القضايا العظمى العامّة. ومن ذا لم يسع الفقهاء والعلماء والخطباء والأئمة والمصلحين إلاّ أن يتوجّهوا إلى المجتمع إذ صدّت في وجوههم أبواب الإصلاح السّياسيّ. إلاّ ثورات وشغبات سرعان ما خبا ريحها من جانب وقيّض الفقه لها غلبة وإضطرارا من يقول بشرعيّة السّيف والغلبة والعصبة. وكلّما تقدم التّاريخ بالأمّة ترسّخ ذلك الإنحراف الخطير حتّى ظنّ النّاس مع رقّة الدّين وذهاب العلم وعوامل أخرى أنّ القرآن الكريم كتاب إصلاح فرديّ وخلاص فرديّ وهو شأن خاصّ. بل تعمّق الإنحراف حتى ظنّ النّاس في جانب كبير منهم أنّ معالجة تلك القضايا العامّة الكبرى هو إفتئات على السّلطان وإغتصاب لمساحته. أو هو أمر لا علاقة له بالدّين والتّديّن والتّقوى.

أجل، وقع كلّ ذلك والكتاب نفسه يقول صراحا بواحا أنّ العدل تقوى، وأنّ الإيفاء بالوعد حتّى مع الكافر والمشرك تقوى. «اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ»[67]. و قوله «فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ»[68]. وغير ذلك من إناطة أعمال جماعيّة هي من صميم مهام

---

[67] سورة المائدة – الآية 8

[68] سورة التوبة – الآية 7

الدّولة التي تفرزها أمّة بالتّقوى. يا حسرة على العباد إذ إنحسرت قيم التّقوى فيهم لتكون عبادة فرديّة خاصّة ولا شأن لها بالشّأن العامّ. أليس ذلك هو تحريف الكلم نفسه ولكن بصيغة أخرى؟

المقصود إذن من هذه المقدمة هو أنّ خير سبيل صحيح لحسن فقه هذا الكتاب العزيز هو الولوج إليه بحسبانه بلاغا إلى الأمّة جمعاء قاطبة فهي المكلّفة به تضامنا وتكافلا بين فعاليّاتها دولة ومجتمعا وعلماء ومصلحين وإعلاميّين وفلاحين ورجالا ونساء وغيرهم. وأنّ من تنكّب ذلك فلن يجني من هذا الكتاب العزيز شيئا وأنّه سيجده يتحدّث في قضايا كثيرة إحتلت تسعة أعشاره لا علاقة لذلك الوالج إليه منها بشيء. من يتلو هذا الكتاب سيما في أيّامنا فلا يبكي بكاء مرّا لأنه يجد بلاغه في واد وواقعنا في واد آخر، فلا حاجة للّه في بكائه.

أنقل في ختام هذه المقدّمة كلمة أخرى للشّيخ الغزالي عليه الرّحمة من كتابه آنف الذّكر «فإذا سقطت الدّول الإسلاميّة فجهد النّاس إقامة الدّولة الإسلاميّة التي تقوم بوظيفتها أي أنّ نصيبهم من الخطاب إقامة الدّولة، وفي غياب الدّولة لا يمكن أن أعطي الأفراد حقوق الدّولة»[69] ذلك هو المقصود من هذه المقدّمة.

---

[69] : محمد الغزالي ـ كيف نتعامل مع القرآن الكريم

المقدّمة التاسعة
قراءة في الهندسة الكمية للقرآن الكريم

القرآن الكريم كتاب معجز في بنائه وهندسته وفي نظمه الكمّيّ. المعيار الكمّيّ رسالة على السّامع أو التّالي إلتقاطها. من يستقرئ الكتاب العزيز يلفى بيسر أنّ قضيّة القرآن الكريم الأولى هي بيان من هو اللّه سبحانه، فمن عرف ربّه قد عرف نفسه وعرف رسالته وعرف مآله ومصيره وعرف خصمه وعدوه وصديقه وحليفة وما عليه وما له وسار على نهج قويم.

تلك هي رسالة القرآن الأولى ولأجل تلك الرّسالة ـ أي من هو اللّه وما يريد من العبد ـ سخّر اللّه سبحانه في نظم كتابه الأخير ثلثه للقصّة والتّمثيل، وثلثه الآخر للكون نظرا وتدبّرا وتسخيرا، وما بقي من بعد ذلك وهو جزء صغير سخّره لحال النّفس ومشاهد القيامة وبعض التّشريعات العمليّة والتّربويّة التي لم تتجاوز في كميّتها جزءا واحدا من عشرين جزء. ماذا يعني ذلك؟

كتب الإمام الغزاليّ عليه الرحمة كتابا أسماه : «المحاور الخمسة في القرآن الكريم»، وهو عمدة في هذه المقدمة المراد منها أنّ إستقراء البناء

الكمّيّ لهذا الكتاب العزيز مفاده أنّ رسالة الهداية التي هي أعظم مقاصد هذا الكتاب إنّما أنيطت بالقصّة والمثل والكون وحال النّفس بصفة خاصّة. وأنّ التّشريعات العمليّة والتّربويّة ليست سوى آثارا وظلالا.

الهداية التي هي مقصد الكتاب العزيز أناطها اللّه سبحانه إذن بالتّاريخ قصّة ومثلا من جهة، وبالكون نظرا وتدبّرا وتسخيرا من جهة أخرى، كما أناطها في جزء ثالث هو أقلّ من ذلك كمّا وهو النّفس البشريّة في حالي اليسر والعسر والسّراء والضّراء وغير ذلك .

ذلك يعني أنّ الإيمان مستودعه النّظر والتّفكّر والتّدبّر والتّأمل، وأنّ الإنسان مدعوّ إلى إجتنائه من هناك وليس من بطون الكتب، بل من بطون النّظر والتّفكّر الذي دعا إليه وجعله مناط الإيمان ومناط العلم والمعرفة والتّسخير والتّقدّم والنّهضة والصّناعة والغلبة والقوّة بكلّ مظاهرها.

تلك القراءة الكمّية مهمّة في الولوج إلى فقه هذا الكتاب فقها صحيحا. فلا يضمر تديّن فرديّ ليتورّم تديّن جماعيّ، ولا ينحبس هذا ليتمدّد ذاك. الهداية في الكتاب العزيز هي هداية موضوعيّة مادّيّة محسوسة ملموسة، ليست خاضعة لتعليم شيخ أو إيحاء فقيه. إنّما هي مبسوطة أمام من يقرأ بنفسه أو يسمع بنفسه وما عليه سوى إتباع الإحالات. فإذا أحالك الخطاب إلى الكون، إذهب إلى الكون ناظرا متفكّرا متدبّرا ملتقطا منابع التّسخير. وإذا أحالك إلى التّاريخ، فاذهب وسر في الأرض بقلبك لتجبي عبرا من التّاريخ الذي يعاد في كلّ يوم فلا تختفي عدا آثاره المادّيّة وأبطاله، أمّا حقيقته فهو هو لا يتبدل. وإذا أحالك إلى نفسك فعد إلى نفسك لترى أنّها كذلك . من لزم ذلك لم تثقل عليه من بعد ذلك التّكاليف العمليّة في الشّريعة.

ولذلك جاءت هذه قليلة فيها العفو والصّفح والحلم، لأنّها ثمرة وليست أصلا.

كيف عالجنا نحن اليوم هذا الكتاب؟ أليس إنصبّ إهتمامنا حول حلاله وحرامه وكأنّه كتاب قانون لا علاقة له بغير ذلك؟ ألم نحوّل الكتاب إلى قانون؟ كأنّه قانون طرقات جامد باهت؟ أين أثر القصّة وأين أثر المثل وأين أثر النّظر الكونيّ والنّفسيّ فينا وفي خطابنا؟ وبأثر من ذلك التّحريف تورّمت مباحث الإعتقاد تورّما، وبمثلها مباحث العبادة، وبذا إقترفنا التّحريف المعنويّ. وليس هو تحريف كلميّ مباشر إذ الكتاب محفوظ. الخلاصة أنّنا توسّعنا فيما حقّه الإجمال وضمر إهتمامنا فيما حقّه التّوسّع.

المقدّمة العاشرة

القرآن يشيّد منهاجا تفكيريا ولا يلقّن فكرة

القرآن الكريم مجموعة تصوّرات وعقائد وأفكار مشيّدة وفق منهاج محدّد. ولئن كانت مفرّقة على عدد من الحقول، فإنّها تبني في الخلاصة شخصيّة إسلاميّة متوازنة معتدلة مؤهّلة للقيام برسالة الإسلام أي العبادة والتّزكية والعمارة.

المنهج القرآنيّ لا يزوّد الإنسان بأفكار يهديها إيّاه بالمجّان، وهو ما يسمّى التّلقين في علوم التّربية. إنّما يفتح بصيرته من جميع جوانبها، ويعرض عليها صورا وقيما، ويدعوه إلى القيام بأشياء منها التّفكّر والتّدبّر والتّأمّل والإبصار العقليّ والسّعي في الأرض سياحة والنّظر والملاحظة وغير ذلك. ومن ثمّ فهو يسدّده بمنهاج تفكيريّ وسطيّ وفيّ في الآن نفسه لفطرة الإنسان وللسّنن المبثوثة في الكون والعمارة. ذلك هو معنى أنّ القرآن الكريم ليس كتابا تلقينيّا، إنّما هو منهاج يؤهّل صاحبه الذي يتلوه أو يستمع إليه ـ كما قال حبر الأمّة إبن عباس بلسان سؤول وفؤاد عقول ـ إلى إكتساب ذلك المنهاج الذي يجعله يفكّر ويتفكر ويشيّد المعادلات العقليّة

ويخلص إلى النّتائج الصّحيحة وخاصّة في القضايا الكبرى التي عليها عماد تلك الرّسالة، أي العبادة والتّزكية والعمارة. وعندما يخطئ فهو يخطئ في بعض التّنزيلات الفرعيّة أو التّطبيقات الجزئيّة أو في بعض الحقول ذات الأثر الضيّق المحدود. ولكن يظلّ مساره العام وصراطه الكليّ صحيحا. دعنا نؤكّد مرّة أخرى معنى الصّحة في الفكرة والعقيدة والتّصوّر العامّ قبل أن نخلص إلى بعض التّمثيلات.

الصّحة هي الوفاء لأمرين لا مناص منهما : أوّلهما الفطرة البشريّة، لأنّ الإنسان إمّا أن يكون في حياته وفيّا لفطرته أي شخصيته المعنويّة التي تقوده، وهي مركب من عقل ونفس وروح وذوق وعاطفة وغير ذلك ممّا يرى أثره ولا يرى شخصه أو أن يكون غير وفيّ لذلك. ولذلك يكون في حياته ضدّ نفسه أي يسير في الإتجاه المضادّ لنفسه. وهو الذي عبّر عنه القرآن الكريم بتعبير جميل إذ قال «أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ»[70]. وثاني شرطي الصّحة أن يكون الإنسان بعقائده وتصوّراته وأفكاره الكبرى التي تقود الصّغرى وتصنعها منسجما مع الكون. الكون مصنوع مقود بسنن وقوانين ونواميس مبثوثة فيه، بعضها معلوم وبعضها غير معلوم.

الإنسان إمّا أن يكون في الإتجاه ذاته الذي يتّجه فيه الكون بأسره وهو المحضن الذي يحضن الإنسان وفعله وحركته، ومن ذا يكون الإنسان إلى جانب الوفاء لنفسه أي لفطرته منسجما مع محيطه العامّ، أي الكون العابد كرها بتعبير آخر، وإمّا أن يكون في الإتجاه المضادّ لحركة الكون.

---

[70] سورة الملك – الآية 22

ومن ذا لا يفيد منه تسخيرا ولا منفعة ولا مصلحة، فلا ينظر فيه ولا يتفكّر وربّما رماه بالصّدفة أو أنّه خلق نفسه أو غير ذلك من الأوهام الموهومة.

من الأمثلة التي ترينا أنّ القرآن الكريم لا يمنحنا فكرة بالمجّان ولكنّه يسلّحنا بمنهاج تفكيريّ صحيح سليم قوله سبحانه يؤكّد وحدانيته وتهافت نسبة الولد إليه سبحانه «أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ»[71]. معنى ذلك أنّه لا ينفي الولد عنه سبحانه بشكل تلقيني، ولكنّه يدعو أولي الألباب إلى بناء معادلة عقليّة منطقيّة ذهنيّة صارمة يثبتون فيها له سبحانه الصّاحبة، أي الزّوجة التي لا مناص منها لنشوء الولد. فإذا فعلوا ذلك فله ولد سبحانه. ولكن سبحان من ليس كمثله شيء، وسبحان من لم يلد ولم يولد. وهاهو التّحدي وغيره من التّحديات الأخرى لا تحصى والأحقاب تمضي تترى وتتعاقب، ولم يثبت من ذلك من شيء أحد.

وفي موضع آخر قال سبحانه وفي الموضوع العقديّ ذاته «وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ »[72]. لك أن تتوقف طويلا وتمكث بمهل عند قوله سبحانه «لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ» وهي جملة إعتراضيّة لا محلّ لها في النّحو، ولكنّ وظيفتها في المعنى عظمى. لو قال «وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ» لكان المعنى تامّا والتّركيب صحيحا. ولكنّه جاء بتلك الجملة الإعتراضيّة ليؤكّد أنّ وحدانيّته سبحانه أمر عليه برهان ساطع وسلطان قاطع وليست هي دعوى مجرّدة لا دليل عليها.

---

[71] سورة الأنعام – الآية 101

[72] سورة المؤمنون – الآية 117

ومعنى الآية أنّ من يرتاب في ذلك فليس له أن يشيّد إيمانا تقليديا. بل عليه أن يثبت أنّ الإله الآخر الذي يدعوه عدا اللّه سبحانه أو حتّى معه عليه برهان ودليل.

هذا تركيب غنيّ بالمعنى خصيب يتحدّى فيه اللّه سبحانه الإنسان أينما كان أن يثبت إلها آخر. ولكنه يدعو الإنسان وهو يبحث عن إله آخر أن يلزم البرهان ويصحب السّلطان، فإن نجح فلا جناح عليه. ولكن هل نجح الإنسان وقد مرّت على التّحدي قرون وستمضي أخرى؟ إنّما هي تحدّيات عقليّة تبعث في الإنسان روح التّحدي ليكون إمّا مؤمنا على بيّنة كما قال هو نفسه سبحانه في موضع آخر أو كافرا عن بينة. إذ ليس هناك منطقة وسطى بينهما أو منزلة بين المنزلتين.

اللّه يحبّ المؤمن الذي ينصب لأجل رأسماله الإيمانيّ ويتعب، فينتزع عقيدته ليس بالتّقليد والمحاكاة أو باللاّمبالاة، إنّما بالنّظر والتّفكّر والتّدبّر والتّأمّل والسّؤال والعقل، أي بفعل العقل. ولقد مرّ بنا كثيرا أنّ الإيمان بضاعة تشترى من النّظر في الكون وفي التّاريخ وفي النّفس. وبعملة ككلّ بضاعة تشترى. عملة الإيمان من تلك المحالّ هي عملة النّظر والتّفكّر، ولذلك ظلّ القرآن الكريم في زهاء ثمن كامل من القرآن الكريم في سورة التّوحيد الكبرى ـ كما يسمّيها العلماء المعاصرون أي سورة الأنعام ـ يسرد علينا رحلة إبراهيم الخليل عليه السّلام من الشكّ إلى اليقين. وليس ذلك سوى ليرينا أنّ الإيمان معاناة ونصب. وهو ككلّ رأسمال لا يتوفّر لصاحبه بجرّة قلم أو بسهولة، إنّما بكدّ وجدّ وعمل وسعي.

وممّا يؤكّد أنّ القرآن لا يهبك فكرة بالمجّان بل يسلّحك بمنهاج تفكيريّ يجعلك تقتني أفكارك بنفسك، أنّه جاء بنظم إمتلأ حوارات وجدالات حتّى

جعل العلماء ضمن علوم القرآن علما أسموه علم الجدل. ولذلك إمتلأ بالدّعوة إلى الحوار. فهو يبسط الحوار مع الكفّار بمختلف أصنافهم من منافقين ومشركين ودهريين وأهل كتاب ومرتدين وغيرهم ومع إبليس نفسه والجنّة والملائكة والإنسان والكون وغير ذلك. من يستقرئ ذلك النّظم البديع لا يفوته أن يلحظ ذلك. وبذلك نأى المنهج القرآنيّ عن التّلقين الذي يصلح للطّفل الصّغير الذي يحسن له التّقليد والمحاكاة. أمّا من عقل ورشد فلا يصلح له سوى المنهاج الذي يعلّمه كيف يفكر، وليس المنهاج الذي يمنحه فكرة.

كتب العبد الفقير قبل سنوات كتابا أسماه «بل علّمني كيف أفكر» [73] وتسلّلت إليّ الفكرة من الحكمة الصّينيّة البليغة التي تقول : «لا تعطني سمكة بل علمني كيف أصطاد». أجل، القرآن الكريم لا يعطيك فكرة حتّى في العقيدة كما رأينا إلاّ إخبارا لا مناص منه. ولكن الإخبار نفسه لا يجعل الإنسان مؤمنا أو مؤمنا محسنا، بل يعلّمه كيف يفكّر. فإذا تعلّم الإنسان كيف يفكّر ـ سيّما أنّ الإنسان كائن مفكّر بالطّبيعة والضّرورة ـ فإنّه يشيّد بالأفكار قصرا منيفا من التّصوّرات الصّحيحة. من يرصد الدّعوة من القرآن الكريم إلى التّفكّر والتّدبّر والنّظر ليعجب أشدّ العجب ثمّ يؤول عجبه إلى أنّه لا يجعل الإنسان يتسوّل الفكرة إنّما يجعله يصنع الفكرة.

[73] صدر هذا الكتاب ضمن سلسلة كتاب الإصلاح عدد 13 - أفريل 2016
لتحميل الكتاب اضغط على الرابط التالي: www.alislahmag.com/livre-13.pdf

المقدّمة الحادية عشر

فقه مقامات التشريع والمشرّع

النّظم القرآنيّ البديع مختلف في مستوياته، فمنها الإخباريّ وهو عادة ما يقصر على الغيب، إذ لا مناص في الإخبار من الغيب الذي لا يحيط به الإنسان من تلقاء نفسه مهما تطوّرت علومه وتقدّمت معارفه. ومنها الإنشائيّ، وهو عادة ما يقصر على العبادات التي بها يتزكّى المرء عقلا وروحا، فيؤدّي حقّ اللّه عليه لله وحقّ نفسه عليه لنفسه وحقّ النّاس عليه للنّاس. ومنها الإقراريّ وهو ما يثبّت ما وقر في الأعراف والنّفوس والعادات والتّقاليد ما كانت حسنة على الفطرة لم تدنسها المرجسات، وعادة ما يكون ذلك في الحقل القيميّ العامّ.

من أمثلة مقامات التّشريع المرعيّة أنّ النّظم القرآني نفسه يجمع بين إقرار الحكم وبين الدّعوة ترغيبا إلى التّحلّي بخلق أو قيمة أو ترهيبا من خلق آخر أو قيمة أخرى. المقام التّشريعيّ أو القانونيّ بالتّعبير المعاصر هو مقام مرعيّ كبير ومقدّم. وعادة ما يكون مسبوقا بذلك النّداء الدّستوريّ القانونيّ التّشريعيّ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا».

تتبّعت هذه المواضع التي إقتربت من المائة، وألفيت أنّها مواضع تشريعيّة. المقام التّشريعيّ في القرآن الكريم موجود ولكنّه قليل نادر بالمقارنة مع أطول مقام وأوسعه وهو مقام التّعريف بمن هو اللّه. المقام التّشريعيّ نفسه تختلف مقاماته الدّاخليّة، فمنه مقامات عظمى مقدّمة لا جدال فيها، ومنه مقامات أخرى يغلب عليها الطّابع التّرغيبيّ وخاصّة عندما تكون العلّة فيها ظاهرة ومقصدها بيّن، ومنها الأمر بكتابة الدّين في آخر سورة البقرة، فبالرّغم من أنّ المقام تشريعيّ ولكنّ الأمر بالكتابة نفسه ليس مقصودا لنفسه، إنّما قصد به حفظ حقوق النّاس المادّية والماليّة بوسائل منها الكتابة والإشهاد وغيرها.

وإلى جانب المقام التشريعيّ هناك مقامات ترغيبيّة وترهيبيّة لا تحمل القوّة التّشريعيّة نفسها، وتكون أحيانا في شكل إستعارات معنويّة تدعو إلى القياس، ومنها الإخبار في سورة التّوبة عن الأحبار والرّهبان الذين يأكلون أموال النّاس بالباطل ويصدّون عن سبيل اللّه سبحانه. فهذا الموضع تشريعيّ ولكنّه بشكل إخباريّ وفيه من اللّمسات البيانيّة ما فيه.

ذلك هو النّظم القرآني البديع العجيب الذي لا يمكن لمحيط أن يحيط به. ولكنّ التّمييز بين المقامات المختلفة واجب المتصدّين للتّفقيه في الكتاب العزيز. حتّى في المقام التّشريعيّ نفسه، فإنّ الخطاب نفسه يتغيّر من نسق إلى نسق، فمنه خطاب تشديديّ إنذاري يقرع الأسماع، وهنا لا بدّ من التنبّه إلى أنّ الأمر كبير وليس صغيرا، وأنّ ذلك التّشديد مقصود وخاصّة عندما تكون فاصلة الآية بالعزّة والحكمة أو بوعيد أو عذاب أو لعنة أو غير ذلك. ومنه خطاب تشريعيّ يكون مخفّفا يشعرك بالتّحبّب والتّرغيب أو التّرهيب الخفيف. هذه مهمّة المستنبطين للأحكام. لك أن تسأل : لم يأمر

نبيّه في بعض الأحيان بقوله له : «قل»، وأحيانا يتحدّث اللّه نفسه بلسان المتكلّم ليأمر بشيء أو ينهى عن آخر؟ في الأمر صياغة وشكلا وخطابا ونظما أسرار وأغوار.

لا يقصد من هذه المقدمة الدّعوة إلى الإحاطة بكلّ ذلك، فهذا محال ومخالف لقوله ﷺ عن القرآن الكريم أنّه يأتي يوم القيامة بكرا، أي كأن لم يغشاه أحد. إنّما المقصود هو التّمييز بين مقامات التّشريع فحسب، وهي مقامات كثيرة. هي مقامات خطاب أو مقامات تشريع، هما سيّان. هناك مقامات تتحدّث عن خصوصيّاته هو ﷺ أو بعض خصوصيّات بيته أو زوجاته عليهنّ السّلام، وهذا محدود. من ذلك أنّه يميّز في الحديث عن القدر الكونيّ بتعبير إبن تيمية وغيره وعن القدر الشّرعيّ.

عندما يتحدث عن القدر الكونيّ الذي يكون فيه المرء مكرها يقول أنّ كلّ شيء هو من عند اللّه سبحانه. وعندما يتحدّث عن القدر الشّرعيّ ينفي ذلك في تعارض ظاهريّ يظنّه المتعجّل تعارضا حقيقيّا، ويخبرنا هنا أنّ ما أصاب المرء فهو من عند نفسه، وذلك في مثل قوله سبحانه «قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّهِ»[74] وذلك عندما يتحدّث عن المعنى القدريّ أو الكونيّ، وبعدها بكلمات قليلات يقول «مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ»[75].المقصود هنا هو إعتبار مقامات التّشريع إمّا بمعناه القانونيّ الإلزاميّ فعلا أو تركا أو بمعناه الخطابيّ العامّ بسبب أنّها مستويات متنوعة.

---

[74] سورة النساء - الآية 78

[75] سورة النساء - الآية 79

المقدّمة الثانية عشر

الإعجاز المعاصر المطلوب

صفة الإعجاز ثابتة في القرآن الكريم، ولكن أين الدّليل على ذلك؟ الإعجاز في الكتاب العزيز إعجازات وليس إعجازا واحدا. لم يخلع القرآن الكريم على نفسه صفة الإعجاز لحما ودما، ولكنّه أشار إلى ذلك عندما أعلن التّحدي. وهو ثابت في مواضع منه أن يأتي النّاس بشيء منه بيانا سواء كان سورة أو بعض سورة أو عشر سور أو ما إلى ذلك. وهو إعجاز بيانيّ ثابت تخلّف عنه الأقحاح الأوائل ممّن صنعوا من الحرف العربيّ كلمة ومن الكلمة شعرا تربّعوا به على عرش الفصاحة والبلاغة والبيان دهرا. ولئن كان التّحدي يلازم هذا الكتاب حتّى يوم القيامة، فإنّه لا أمل مطلقا في نشوء عرب جدد يقاومون هذا التّحدي. وهو تحدّ ما جعل سوى لإكراه أولئك الغلاظ الشّداد على التّواضع، فيعترفون بسبب فنون الصّنعة بعلويّة هذا التّنزيل وأنّه ليس من عند بشر فيؤمنون.

القرآن الكريم آية أخيرة للبشريّة جمعاء قاطبة، وأنّه بذلك معجز. القرآن الكريم أشار إلى إعجازه البيانيّ النّظميّ بلاغة وفصاحة، وقد أخذ

ذلك حظّه وزيادة من لدن كثير من التّفاسير. أمّا العكوف على ذلك فحسب إنشغالا عن التّحديات الجديدة المعاصرة قصور دون ريب.

الكتاب العزيز معجز من جوانب أخرى إعجازات أخرى لا تقلّ أهمّية ولا قدرا عن الإعجاز النّظميّ البلاغيّ البيانيّ نفسه. وهي الإعجازات التّشريعيّة سواء في الحقل العقديّ أو التّعبديّ أو الحقل العمليّ الذي يتفرّع إلى حقول أخرى تكاد لا تحصى.

المقصود من هذه المقدّمة هو الحثّ على إستلال الإعجاز التّشريعيّ من القرآن الكريم بغرض مقاومة التّحديات المعاصرة. التّحدي المعاصر الذي يناهض الإسلام وله أتباع ودول وحكومات وجمعيّات ومنظمات ولفائف عالميّة وماليّة هو أنّ النّمط الغربيّ في الأسرة بصفة عامّة وفي المرأة بصفة خاصّة هو الأليق بالزّمان والمكان. ومثله في العلاقات بين الدّولة وبين النّاس. ومثل ذلك في المخرجات الغربيّة الجديدة من مثل العلمانيّة والدّيمقراطية وحقوق الإنسان وغير ذلك من مفردات التّرسانة الثّقافيّة الفكريّة التي ينتجها الغرب الذي هو الخصم الأوّل اليوم للإسلام.

القرآن الكريم نفسه كان يتحدّى الأقوام الذين يتنزل عليهم بما لديهم من بضاعات يفتخرون بها. فمن ذلك أنّه عالج التّحدي السّحريّ عند قوم موسى عليه السّلام ومعهم قوم فرعون بإعجاز شبيه له في الهيئة مخالف له في القيمة. وهو الأمر الذي عليه آمن سحرة فرعون إذ كانوا أوفياء لحرفتهم أمناء على صنعتهم. فما إن أدركوا أنّ الذي جاء به موسى عليه السّلام ليس سحرا كما يدّعي فرعون آمنوا.

ومن ذلك أنه قاوم الشّذوذ الجنسيّ لدى قوم لوط عليه السّلام بقول عقليّ

سليم تصغي إليه أفئدة العقلاء مفاده أنّ الرّجل لا يوفّر اللّذة الجنسيّة المطلوبة للرّجل مثله، وأنّ النّساء للرّجال متعة بعضهم لبعض. وبمثل ذلك جاءت رسالة شعيب عليه السّلام في مدين داعية إلى العدالة الإجتماعيّة.

ومن تتبع الرّسالات المذكورة في القرآن الكريم يلفاها على ذلك الطّراز. أي أنّها لا تقصر دعوتها على التّوحيد والإيمان بما يصلح العقول والنّفوس فحسب، بل بما يزكّيها ويجعلها إيجابيّة فعّالة. ولذلك ظلّ الخطاب القرآنيّ الكريم يعالج ما تورّطت فيه تلك الأقوام أن تكون الدّعوة الإسلاميّة دعوة روحيّة فحسب، بل هي دعوة شاملة جامعة تعالج القضايا المعاصرة التي تتحدّى النّاس وتقدّم البديل الإسلاميّ لها.

في الرسالة الأخيرة أي رسالة الإسلام بقيادة محمد ﷺ لم يتخلّف هذا الأمر، ولذلك جاء القرآن الكريم يتحدّى النّاس بما هم به مبطرون وفرحون، وهو لسانهم العربيّ القحّ السّليق. عدا أنّه جاء مع ذلك بالخطاب الإجتماعيّ نفسه.

القرآن الكريم كتاب معجز إعجازا جامعا وليس مقصورا إعجازه على الجانب النّظميّ البيانيّ البلاغيّ الذي فعل فعله في أولئك العرب ولم يعد له اليوم عمل كبير. لا بسبب خلل فيه هو ـ حاشا للّه ـ ولكن بسبب أنّ اللّسان العربيّ ضمر حتّى عند أهله. ولا يعني ذلك طمر هذا الجانب الإعجازيّ. ولكن المقصود هو تتبّع المنهج القرآنيّ الذي ظلّ يعالج التّحديات عند كلّ قوم جدد كما مرّ بنا. علينا أن ننظر في عصرنا ونسأل ما هي التّحديات التي تقوم اليوم في وجه الإسلام أو تصدّ النّاس عن الإيمان به؟ ولا شكّ أنّها مختلفة ومتعدّدة. ولكن أظنّ أنّها في الجملة الجانب التّشريعيّ بصفة عامة، سواء العقديّ منه. سيما أنّ الغرب الخصم الأكبر للإسلام اليوم

أثمر دعوات إلحاديّة علمانيّة جزئيّة أو كليّة صرفت ملايين مملينة من شباب المسلمين عن دينهم. أو الجوانب التّشريعيّة التّعبديّة التي تبيّن حاجة الإنسان إلى التّزكية الرّوحيّة التي توفّرها تلك العبادات. أو الجوانب التّشريعية في الحقل الأسريّ.

معركة الإسلام اليوم مع الغرب في حقل الأسرة هي الوطيس الأحمى. ولك أن تنظر في مخرجات مؤتمري القاهرة وبيجين في عامي 1994 و1995. الحملة دوليّة عامّة يقودها الغرب ومؤسّساته التي ينضوي بعضها تحت المنظمة الأمميّة نفسها ضدّ الأسرة في الإسلام .ولا ريب أنّ المرأة اليوم هي في يمّ تلك المعركة.المعركة حول المرأة اليوم بين البديل الإسلاميّ وبين البديل الغربيّ معركة حاسمة. ومن ينتصر فيها يكون هو الغالب في العقود القابلة.

الإعجاز القرآنيّ إعجاز جامع، وليس هو نظميّ بيانيّ بلاغيّ فحسب. وعندما تظهر تحدّيات جديدة فإنّه على المتصدّين لمهمّات التّفسير والبيان والتّفقيه أن ينتبهوا إلى تلك التّحديات المعاصرة ويبحثوا لها في القرآن الكريم نفسه عن إجابات وتفسيرات. ولا يقفوا عند تحديات غابرة مات أهلها من مثل التّحدي النّظميّ البيانيّ البلاغيّ. ذلك أنّ الكتاب لا تنقضي عجائبه، وهو جدير بمقاومة كلّ التّحديات في كلّ زمان وفي كلّ مكان.

من التّحديات المعاصرة التي عليها يؤمن النّاس اليوم أو يكفرون هي أنّ النّاس سيما الغربيّين منهم يتبرّجون بالمعطى العلميّ والمعرفيّ بما أثمرت جهودهم الكبيرة من مكتشفات ومخترعات وسخرت الكون. وعندما يتأخّر المسلمون في ذلك ويتقدّم غيرهم سيّما ممّن ينكرون الوحي والغيب والدّين، فإنّ ذلك ينشئ في النّاس فتنة قوامها أنّ الإسلام هو عنوان الجهل

والتّخلّف والفقر والتّمزّق، ولا حاجة للبشريّة المتقدّمة إليه.

التّحدي العلميّ المعرفيّ هو مثل تحدّي الأسرة والمرأة، أي أنّه تحدّ حقيقيّ معاصر. وما على أهل القرآن الكريم إلاّ أن يرتقوا إلى ذلك المستوى. إتجه الناس في جزء مهمّ اليوم إلى ضروب أخرى من ضروب الإعجاز إذ خلعوا على بعضها دثار الإعجاز العلميّ وعلى بعضها الآخر أسمال الإعجاز العدديّ. وقد تظهر في القابلات ضروب أخرى من الإعجاز. ما أطلق عليه الإعجاز العلميّ وجد له رواجا كبيرا وأسال لعاب كثيرين. ولكن كالعادة ولجه من هم من أهله والدّخلاء سواء بسواء.

لا شكّ أنّ القرآن الكريم وهو يعالج قضيته الأسّ أي قضيّة الهداية إلى اللّه سبحانه توحيدا لا شائبة شرك فيه، يتوسّل إلى ذلك كما مرّ بنا مرّات بتضاريس الكون وهو الذي أحال عليه جزءا كبيرا من الهداية وأسبابها. عدا أنّ معجزة القرآن الكريم عندما يتوسّل إلى مقصده الأمّ بالكون فإنّه لا يجعل من ذلك الموضع الكونيّ علما في الفيزياء أو الكيمياء أو غير ذلك. ولكنّه يشير إلى ذلك بلفظ ظاهر أوّلا أي ليس هو نصّ صريح في الدّلالة الكونيّة إلاّ قليلا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإنّ ذلك ليس هو مقصده الأسّ. وبمثل ذلك في التّاريخ والقصّة والتّمثيل وحال النّفس وغير ذلك. المشكلة هي أنّ كثيرا من النّاس تعلّقوا بذلك حتّى من المختصّين أنّها حقائق علميّة ثابتة، ثمّ تبيّن بعض ردح من الزّمن أنّها نظريّة.

الحقّ هنا هو أنّ ما ثبت أنّه ورد في القرآن الكريم أنّه حقيقة علميّة كونيّة وهذا قليل وغير مقصود لذاته، إنّما مقصود لغيره فهو حقّ دون ريب. أمّا ما لم يثبت مثل ذلك فلا يليق أن ننسبه إلى القرآن الكريم أنّه

حقيقة علميّة. ذلك أنّنا نوقع أنفسنا فيما يبغضه اللّه سبحانه، وخاض لأجله معركة شرسة وهي أنّ ضعاف الإيمان والكافرين سواء بسواء يطالبون حتّى يؤمنوا أو حتّى يؤمن النّاس بآيات مادّية.

حتّى الحقائق العلميّة التي لا خلاف عليها و الواردة في القرآن الكريم ليست هي مناط الهداية. هذه عقيدة وليس شيئا أدنى من العقيدة. صحيح أنّ هناك من النّاس من يؤمن لذلك وهذا يعطى منها بقدر ما يحتاج، ولكنّ الإتجاه الخاطئ هو أن نحوّل الفرضيّات العلميّة كلّها أو أكثرها التي أشار إليها القرآن الكريم تعسّفا وتحكّما إلى حقائق علميّة وندعو النّاس إلى اللّه بها. هذا منهج لا ريب فيه عندي أنّه مخالف لمنهج القرآن الكريم.

هناك معتدلون في هذا التّفسير الإعجازيّ إن صحّ ذلك أو الإعجاز العلميّ ولكن هناك مغالون، وهذا شطط. التحدّي هنا هو أن نجعل من قيم القرآن الكريم دافعة إلى تلك العلوم والمعارف والمخترعات والمكتشفات. وعندها يؤمن النّاس حقّا وفعلا أنّ هذا القرآن الكريم هو كتابهم هم ويعالج مشكلاتهم هم.

ومن النّاس من إتجه إلى الإعجاز العدديّ. صحيح أنّ كلّ ما ورد في القرآن الكريم مقدّر منضبط بشكل لا يوصف. ليس فيه شيء إلاّ وهو محكم بالمعنى العامّ للإحكام وهو مقدّر تقديرا، ولكن السّير على هذا الطريق بتعجّل في الإستقراء أو إستخلاص النّتائج ضرب من ضروب الطّيش والتّحكّم. غالى في هذا الإعجاز العدديّ رجل من أكبر علماء الذرّة في البلاد العربية في الستينات وأصدر مجلة علمية كنّا نتلقّفها تلقّفا بسبب أنّ العلم محراب الإيمان. وكذلك بسبب شيء آخر لا يقرّ به كلّ النّاس أو لا

يعونه وهو أنّ كفلات من الهزيمة الحضاريّة تسلّلت إلينا في إثر الغزو الفكريّ الكبير والثّخين. ولكم صدق إبن خلدون في قاعدته العمرانيّة أنّ المغلوب مولع أبدا بتقليد غالبه. إنتهى الأمر بهذا الرّجل الكبير ـ رحمه اللّه ـ إلى القول بأنّ يوم القيامة سيكون عام كذا وذلك إعتمادا على معادلات رياضيّة صارمة إنطلق فيها من العدد 19. اليوم أسمع كذلك طنينا كثيرا حول هذا العدد نفسه. أخشى المغالاة في هذا الإتجاه، ولكن أن يثبت الباحث شيئا فهذا أمر يسرّ. يقيني أنّ كلّ شيء مذكور في هذا الكتاب ولو كان حرفا واحدا بل حركة واحدة هو في منتهى التّقدير والضّبط، ولكنّ ذلك شيء والعلم به على وجه اليقين شيء آخر. العلم في أصوله الأولى ليس هذا، ولسنا مكلّفين بهذا إبتداء ولكنّ البحث فيه مهمّ بتؤدة وعلم ومعرفة وعدم إرتجال أو طيش، لأنّ الهداية ليست منوطة به.

المقدّمة الثالثة عشر

بين المأثور والمنظور : معركة وافدة دخيلة

معارك غير يسيرة ولا صغيرة خضناها في الغابر والحاضر، وهي ليست معاركنا، بل هي معارك غيرنا إستوردناها. منها هذه المعركة القديمة الجديدة : هل نفسّر القرآن الكريم بالمأثور أم بالمنظور؟ المنظور يعني ما إنتهى إليه نظر النّاظر، أي العالم الذي ينظر في الكتاب العزيز. يعبّر عن ذلك قديما بالتّفسير بالرّأي. وحشد الحاشدون لذلك أحاديث صحيحة ينفرون من التّفسير بالرّأي. والمشكلة ليست في وجود النّصوص من الوحي التي تؤيّد هذا الرّأي أو غيره حتّى في غير هذه المواضيع، ولكنّ المشكلة هي في وضع تلك النّصوص. هل توضع في سياقاتها الصّحيحة لتكون فقرة في العلاج أم توضع في غير محالّها ومواضعها لتكون في حال تصادم مع بعضها البعض.

دعنا نعالج هذا الموضوع معالجة أصليّة. إذا إلتزم المفسّر للقرآن الكريم وكذا للحديث نفسه بالمأثور فحسب، فهل يمكن له أن يملأ أكثر من ستّين صفحة؟ أبدا. ذلك أنّ ما ورد منه ﷺ بيانا لأيات القرآن الكريم لا يمكن أن

يملأ عشر صفحات كاملات. الأحاديث النبوية التي بيّنت آيات قرآنية ـ بما في ذلك تقييد المطلق وتخصيص العام وتفصيل المجمل إلاّ ما كان من شأن العبادات التي للسّنة فيها النّصيب الأوفر ـ لا تتجاوز ستّين حديثا في أحسن الحالات. وحتّى عندما نتتبع ما قاله الصّحابة في ذلك، فلن نظفر بمثل ذلك حتّى مع إفتراضنا منذ البداية جدلا أنّ كلّ كلمة قالها صحابيّ في بيان القرآن الكريم هي حديث، حتّى لو لم يرفعه إليه ﷺ، إذ نحتمل أنّه سمعه منه.

من قرأ التّفاسير القرآنيّة غابرها وحاضرها يقف على تلك الحقيقة، وهي أنّ نصيب المأثور ببعديه النّبويّ المباشر والصّحابيّ غير المباشر لا يتجاوز منها جزءا واحدا من أجزاء كثيرة. بل حتّى عندما نغضّ الطّرف عن الأحاديث شديدة الضّعف. نصيب المأثور في كلّ تفسير منسوب إلى المأثور لا يتجاوز ذلك النّصيب الصّغير. أليس في القرآن الكريم أكثر من ستّة آلاف آية؟ كم تجد من حديث يفسّر تلك الأيات؟ المعركة فارغة وغير ذات معنى.

هذا الكتاب نزل ببيان عربيّ سليق قحّ تحدّى به العرب الذين صنعوا الكلمات نفسها التي إنتظمت هذا الكتاب العزيز فكبّتهم. وما كبّتهم إلاّ لأنّهم فهموه من دون حاجة إلى نبوّة إذ هم بها كافرون. التّفسير بالمأثور عنوان يفتقد إلى دقّة كبيرة.

القرآن الكريم وجوه أربعة هي : أوّلها أنّ أكثره بلسان عربيّ مبين فهمه النّاس بلا حاجة إلى نبوّة وهو لبّه وأمّه. وهي آيات الإعتقاد والتّاريخ والكون وحال النّفس والأحكام القطعيّة الأصليّة العامّة التي تحمل

شحنات قيميّة ومثلا أخلاقيّة، قبل أن تلقي بظلال العقوبة والتّهديد على النّاس. هذا الوجه الأوّل إحتلّ من القرآن الكريم أكثر من تسعة عشر جزء من عشرين جزء. هذا الوجه الأوّل لا يحتاج إلى تفسير ولا إلى بيان عند من يتكلّم اللّسان العربيّ .

الوجه الثّاني هو الوجه الذي تدخّلت فيه الأحاديث النّبويّة بطرق ثلاث: التّقييد والتّخصيص والتّفصيل . التّفصيل هنا يخرج بنا عن إطار الموضوع لأنّ هذا هو مبحث أصول الفقه وعلومه. من ذلك أنّه ﷺ بيّن العبادات الكبرى العظمى تبيينا وفصّلها تفصيلا عمليّا. وتلك هي مهمّة النّبوّة المحدّدة في العلاقة مع الكتاب العزيز. ومنه كذلك أنّه توسّع ببعض التّشريعات التي تتماشى مع العلّة الأصليّة التي جاء بها القرآن الكريم. وذلك من مثل منعه الجمع بين المرأة وخالتها وبينها وبين عمتها في إطار الزّوجيّة. وذلك إمتدادا للعلّة القرآنيّة نفسها التي حرّمت الجمع بين المرأة وأختها في عشّ الزّوجيّة نفسها. ومن مثل إشارته لعدم تجاوز الوصيّة في الثّلث في حين أنّ القرآن الكريم يطلقها. ومن مثل أنّه شرح أنّ النّذر لا يأتي بخير في حين أنّ القرآن الكريم لم ينه عنه ولكنّه لم يأمر به ولو بصيغة الإستحباب. ومن مثل أنّه جعل الإيمان بالقدر ركنا سادسا من أركان الإيمان في حين أنّ القرآن الكريم تحدّث عنه بما لا يكاد يحصى، ولكنّه لم يحصره في تلك الرّكنيّة إسما ورسما. وكما ترى في هذه الحالات وغيرها كثير أنّ السّنّة لا تستقلّ بالتّشريع إبتدائيّا إستئنافيّا إنشائيّا لمن يدقّق النّظر، إنّما هو إستقلال وظيفيّ. ومن مثل أنّه فصّل ﷺ في عبادات التّلاوة والذّكر وغير ذلك وبيّن أجورها وعبادات أخرى كثيرة فرعيّة من مثل زيارة القبور وبرّ الوالدين وصلة الرّحم والجار وغير ذلك ممّا لا يخرج

عن دائرة المحكمات من القرآن الكريم. ولكنّه يبيّن أجرها ويؤكّد حيويتها وغير ذلك. الحديث عن تفسير بالمأثور لا يتعدّى حدود الأحكام وخاصّة التّعبديّة منها وبعض الشّروح الأخرى إمتدادا للعلل القرآنيّة ومقاصدها التي قد يذكرها القرآن الكريم وقد لا يذكرها. وما عدا ذلك فليس هناك مأثور يفسّر به القرآن الكريم، إنّما هو لسان عربيّ قحّ سليق متاح لكلّ من يتكلّم العربيّة وخاصّة في الموضوع الرّئيس الكلّيّ الذي تمحّض له الكتاب العزيز أي من هو اللّه وماذا يريد من الإنسان وغير ذلك ممّا يتعلّق بالإعتقادات والتّصورات وأصول العبادات والقيم والمعاملات العامّة مع مختلف الأحوال والنّاس. كلّ ذلك ليس فيه مأثور بل هو مفهوم بالسّليقة اللّسانيّة والقحاحة اللّغويّة.

الوجه الثّالث من وجوه تفسير القرآن الكريم هي إخبارات عن الغيب وعادة ما تكون بلسان الظّاهر بلغة الأصوليّين، أي ليست نصوصا محكمة مفسرة لا يغشاها الإختلاف. عدا ما كان من ذلك الغيب ما يتعلّق بأركان الإيمان السّتة الكبرى. وهي ما عبّر عنها القرآن في بعض المواضع بالتّأويلات التي لا يعلمها إلاّ اللّه سبحانه ويسوقها من باب الإعجاز في بعض المواضع. هذه ليس فيها مأثور صحيح. بل إنّ المأثور فيها قد غشيته الواهيات كثيرا وفي كلّ الأحوال فإنّه ليس مطلوب علمه ولا البحث فيه لأنّه غيب سيق للإعجاز وإعادة الإنسان الذي تحدّثه نفسه بالكبر إلى حجمه الصّحيح.

الوجه الرّابع الأخير هو ما إستأثر اللّه سبحانه بعلمه فلم يأت به مأثور، وهذا قليل نادر. ولا يتوقّف عليه إيمان أو كفر. ومنه الكلمات المقطّعة التي إفتتحت بها ثلاثون سورة إلاّ واحدة. وغير خاف أنّ سوقها للإعجاز النّظميّ وغير ذلك، ولكن لا يؤثّم النّظر فيها. وقد وقع ذلك النّظر ووقع

فيه الإختلاف وهو إختلاف مقصود.

تلك هي الوجوه الأربعة من أنحاء تفسير الكتاب العزيز، خلاصتها أنّ الجزء الأكبر منها ـ وهو رسالة اللّه إلى الإنسان أي التعريف باللّه نفسه ورسالة الإنسان وخلقه وكونه والمآل المحتوم حتما وما يترتّب عن ذلك من عبادات وقيم ومعاملات وأحكام عامّة ـ هو الجزء الذي لا يداخله مأثور لأنّ فهمه منوط باللّسان العربيّ. وقد وعى المشركون أنفسهم ذلك وبذلك كفروا. ولو لم يحذقوا الرّسالة من ذلك لما كفروا بها. وأنّ الجزء الثّاني منها هو الجزء الذي يحتاج إلى السّنّة حاجة أكيدة وهو الجزء الذي لا بدّ من تبيينه وتفصيله من النّبوّة. ولبّه الأعظم هو البيان التّفصيليّ العمليّ للعبادات الأربع الكبرى، أي الصّلاة والصّيام والزّكاة والحجّ وما يتعلّق بها من عبادات أخرى فرعيّة جزئيّة ليست على وجه الإلزام ولكنّها على وجه الإستحباب. هذا الجزء نصيبه قليل مقارنة مع الجزء الأوّل. ومن ذا فإنّ المأثور فيه عادة ما يكون محلّه الفقه وليس التّفسير إلاّ لمن أراد أن يكون كتابه التّفسيريّ فقهيّا كما جنح إلى ذلك الإمام القرطبيّ. ولكنّ الغرض الأكبر من التّفسير ليس هو ذاك بالأصالة. وأنّ الجزءين الآخرين المتعلّقين بالغيب وما إستأثر اللّه سبحانه بعلمه فما ورد فيها من مأثور هو أندر من النّدرة. والأخطر هو أنّ ما ورد فيهما مدخول بالواهيات مغشيّ بالضّعيفات، وأنّ المؤمن لا يحتاج فيه إلى مأثور. لأنّها جوانب غير عمليّة وكثيرا ما تستهوي أهل الجدل الفارغ. التّفسير بالمأثور نصيبه قليل نادر. ولكن نشأت تلك المعركة الفارغة لأسباب معروفة، منها ظهور بعض التّفاسير الموغلة في الآراء التي لا دليل عليها والتي تصدم الإجماع الحقيقيّ من الأمّة بأسرها في قضايا عقديّة وتصوّرية وعمليّة وقيميّة عظمى.

ومنها إستبداد الوضع الإنحطاطيّ بالأمّة حتّى ظهرت قالة هي أشدّ علينا من قالات علمانيّة وافدة، وهي أنّ باب الإجتهاد أغلق وأنّ الأوّلين لم يتركوا للآخرين شيئا. ومنها تهيّب بعض النّاس وولعهم في الآن نفسه بالواهيات الضّعيفات يبحثون عنها بكلف وسخاء. ظانّين أنّ القرآن الكريم في أمّه الكبرى التي لأجلها جاء غير مبين، أو أنّه يحتاج إلى من يفسره، أو أنّ النّبي محمدا ﷺ تولّى تفسير كلّ آية أو أكثر الآيات. وهو الأمر الذي لم يقع وليس لمن يدّعيه عليه أيّ دليل.

هي معركة إنحطاطيّة نشأت في مناخات إنحطاطيّة، وإلاّ فإنّ القرآن الكريم الذي حسم هذه القضيّة ذاتها بتصريحه مرّات أنّ اللّه سبحانه أنزل القرآن ومعه الميزان أو الحكمة. ومن وعى هذا جمع بين المنهجين بيسر وفق المنهج القرآنيّ الكريم نفسه. أي أنّه لا يردّ حديثا صحّ وهو متعلّق بوظيفة النّبوّة خاصّة، أي التّبيين وخاصّة في الحقل التّعبديّ والأسريّ ويسيرا ممّا عدا ذلك. وذلك هو لزوم التّفسير بالمأثور. لأنّ المأثور هنا لا مناص منه. فهو ﷺ مكلّف بتبيين الكتاب قولا وعملا وإقرارا. وفي الآن نفسه فإنّ العاقل الحصيف الرّشيد يعمل عقله ورأيه وعلمه فيما عدا ذلك إستجابة لإعمال الميزان أو الحكمة أو لإستنباط أهل العلم كما ورد في القرآن الكريم نفسه. لو كان التّفسير بالرّأي مرفوضا فكيف يدلّنا القرآن الكريم نفسه على أنّ لأولي الأمر نصيب من الفهم والتّفهيم والفقه والتّفقيه؟ بل جعلهم المصدر الإجتهادي الأوّل والمرجع الثّالث بعد القرآن والسّنّة. بل كيف يخبرنا هو بنفسه أنّ الإحتكام إلى القرآن والسّنّة قد لا يحسمان الأمر، وذلك في قوله سبحانه «فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ

وَالرَّسُولِ»[76]. وما الذي حمله ﷺ ليقول لواليه إلى اليمن بم تحكم؟ وأنّه ضرب على صدره إنشراحا وبهجة لما أخبره أنّه يحكم بالكتاب، فإن لم يجد فبالسّنّة، فإن لم يجد فإنّه يجتهد رأيه. ألم يعمل الصّحابة أنفسهم آراءهم فيما دون ما هو صحيح صريح من القرآن الكريم، فأقرّهم ﷺ لما أصابوا وخطّأهم لما أخطؤوا؟ أي مجال للإجتهاد الذي باشره الصّحابة مباشرة بعد موته بل حتّى قبل دفنه وهو مسجّى ﷺ إذا ألغينا التّفسير بالرّأي؟. هل حسم القرآن الكريم فيمن يتولّى الحكم؟ لو حسم هذا لم إضطرّ الصّحابة إلى الإجتماع السّياسيّ الطّويل الذي كاد أن يعصف بهم أصلا؟

من يستقرئ المنهاج النّظميّ للقرآن الكريم يدرك بيسر أنّ القرآن الكريم مستويات مختلفة. فلا فهم إلاّ بالمأثور في الهيئات العمليّة للعبادات. ولكن لا يحتاج ذلك أيّ إنسان يفهم اللّسان العربيّ ليعبد ربّه فلا يشرك به شيئا. ولذلك جاء حظّ الحديث العقديّ قليلا لأنّ القرآن الكريم كفى الأمر الأعظم الذي من أجله هو فحسب تقريبا تنزّل. من يستقرئ الكتاب العزيز يدرك أنّ الحقول العامّة من سياسة ودولة وحكم ومال وإقتصاد وإدارة وعلاقات وسنّ قوانين وإجراءات وغير ذلك ممّا لا يحصى إنّما مجاله التّفسير بالرّأي، لأنّ النّظم القرآنيّ جاء فيه مقتضبا مقتصرا على كليات عامّة وأنّ الحديث فيه لم يزد على ذلك تأكيدا ولم يفصّل فيه.

الخلاصة هي إذن أنّ المعركة بين مأثور ومنظور معركة أجنبيّة عنّا. ليست هي معركتنا، هي معركة الإنحطاط الذي صنعها، أو هي معركة

---

[76] سورة النساء – الآية 59

تسلّلت إلينا من الميراث المسيحيّ أو غيره. وأنّ الفهم الحسن الصّحيح للكتاب العزيز لا بدّ فيه من مأثور صحيح عادة ما لا يتجاوز حقل التّعبديات ونادرا ما يغشى الحقل الأسريّ. ولا بدّ فيه ما عدا ذلك من تفسير بالرّأي والتّفكير والنّظر والعلم الذي إكتسبه صاحبه. ولولا ذلك لما نشأت تفاسير بيانيّة منها كشّاف الزمخشريّ ووجيز إبن عطيّة. ولما نشأت تفاسير إعجازيّة فيما سمّي بالإعجاز العلميّ، وهي نظريّات وبعضها حقائق وغير ذلك. فلا يليق بمن ينتسب إلى كتاب قال فيه صاحبه ﷺ بإذن من ربّه أنّه لا تنقضي عجائبه ولا يخلق من كثرة الردّ ولا يشبع منه العلماء أن يقصر على ما سمّي في معركة غير معركتنا أنّه تفسير بالمأثور. ولو فهم المخرّفون حقيقة المعركة ومعنى التّفسير بالمأثور ما تجاوز أيّ تفسير مائة صفحة. أقولها مبالغة، وإلاّ فإني مطمئنّ إلى أنّ ذلك التّفسير لن يتجاوز عشر صفحات.

لا مناص من المأثور الصّحيح الدّقيق في مكانه ولا مناص من إعمال العقل والرّأي فيما عدا ذلك. فإن لم نفعل خالفنا قوله ﷺ «إنّ اللّه يبعث لهذه الأمّة على رأس كلّ مائة سنة من يجدّد لها دينها»[77]. وأحاديث أخرى تدعو إلى الإجتهاد وتترتّب عليه أجور عظام.

هذه المعركة إنتقل بعض شررها إلى الحديث عندما ظهرت تلك الثّنائيّة التي هي في غير محلّها، أي المقابلة بين الرّواية والدّراية، وعندما نعالج القضيّة (مأثور ومنظور أو رواية ودراية) من الدّاخل وبتوافق مع محكمات القرآن والسّنّة نفسيهما، فإنّا نكون موفّقين مسدّدين. ولكن عندما نعالج

[77] أبوداوود عن أبي هريرة

ذلك والآذان مشرئبة إلى وافدات شرقيّة أو غربيّة، فإنّ المعركة تكون غير معركتنا. فلا مناص من الجمع بين المأثور وبين المنظور معا كما جمع اللّه نفسه سبحانه بين الكتاب وبين الميزان أو الحكمة. ولا مناص من الجمع بين الرّواية والدّراية معا، فلا رواية بلا دراية ولا دراية بلا رواية، ولا مأثور بلا منظور ولا منظور بلا مأثور. المنهاج الإسلاميّ كلّه قائم على خطّ الجمع بين الزّوجين. بخلاف المنهاج الغربيّ القائم على خطّ الفصل بينهما. تلك ضربة لازب على ذلك المنهج وهي أمّ طبيعته. من وعى هذا الأصل الفلسفيّ الأعظم فهو على صراط مستقيم إن شاء الله تعالى.

المقدّمة الرابعة عشر
أيّ دور لنا في حفظ الذكر الحكيم؟

القرآن الكريم محفوظ قطعا مقطوعا بوعد إلهيّ صحيح صريح، وهو حفظ نعلم بعضا من مظاهره ولا نعلم كلّ مظاهره. من مظاهر الحفظ أنّ الصّدور تعيه وتمتلأ به على مرّ العصور والدّهور. ومن تلك المظاهر ظهور الكتابة وتطوّرها، إذ غدت في أيّامنا هذه أقراصا مضغوطة في متناول كلّ من هبّ ودبّ حتّى في أقاصي إفريقيا وأدغال آسيا. ومازالت مفاجآت ثورات الإتصال الهادرة تمطرنا في كلّ مرّة بصور أخرى من صور ذلك الحفظ.

ومن تلك المظاهر أن قيّض اللّه لهذا الكتاب مقرئين بالمئات بعضهم يحدر حدرا وبعضهم يدوّر تدويرا وبعضهم يحقّق تحقيقا أو يجوّد تجويدا (مستويات التّلاوة والقراءة)، وقد إنتشرت قراءاتهم في شرق الأرض وغربها. بل إنّ من مظاهر حفظ هذا الكتاب هو إهتمام أعدائه به، وكم من غربيّ رأينا جاء إلى هذا الكتاب يريد نقضا فأسّره وأضحى من جنوده وخدمه. وليس آخر صور الحفظ أنّ الدّول تتنافس على حسن

كتابته ونشره حتّى وهي لا تريد ذلك. ولكن لإستعادة مشروعيّة دينيّة إندلقت أقتاب بطنها إندلاقا.

من مظاهر الحفظ كذلك أنّ اللّه سبحانه أنزله على سبعة أحرف كما ورد في الحديث الشّريف الصّحيح. وبغضّ النّظر إذا كانت تلك هي القراءات أو هي جزء منها، فإنّ التّحقيق الصّحيح إنتهى إلى أنّ هذا الكتاب العزيز قرّ قراره أن يكون على عشر قراءات وروايات أخرى.

أخبرني صديق عزيز توفّاه اللّه سبحانه منذ سنوات هو الشّيخ عبد الغنيّ الزغوانيّ أنّ العائلات المسلمة في بعض الجمهوريّات الإسلاميّة المستقلّة من بعد إندكاك الإتحاد السوفييتيّ في مطلع عشريّة التّسعينات من القرن الميلادي المنصرم كانت تحفر أقبية تحت منازلها لتخبّئ فيها المصحف الشّريف وتتعاهده من حين لآخر كلّما خفت وطأة التّفتيش والمداهمات الشّيوعيّة التي كانت تحارب الإسلام والمسلمين وكلّ مظاهر التّديّن. أطرد هذا الصّديق الكريم عليه الرّحمة من المملكة السّعودية بسبب إنتمائه لحركة النّهضة الإسلاميّة التّونسيّة في سنوات الجمر الحامية في تلك العقود الحالكة، فلجأ إلى بعض تلك البلاد وظلّ يعلّم النّاس هناك اللّسان العربيّ ومبادئ الدّين الإسلاميّ سيما للنّاشئة، وإختلط بهم وعرف كلّ ذلك منهم.روى لي ما يذكرك حقّا بما كانت تفعله محاكم التّفتيش الصّليبيّة في مسلمي الأندلس.

أجل، إجتمع على الإسلام وأمّته وكتابه وجها الغرب معا : الوجه الصّليبيّ الحقود والوجه الشّيوعيّ الماركسيّ اللّدود. ذلك يؤكّد أنّهما وجهان لقيمة

غربيّة قذرة واحدة، حتّى لو غفل عن ذلك بعض العبيد منّا. لا تجد كتابا في الأرض منذ بدء الخليقة حظي بالإهتمام من لدن أهله وأعدائه سواء بسواء بمثل ما فعل بالقرآن الكريم. فلا فرق هنا بين عربيّ يقرأه بسلاسة وأعجميّ يتعتع فيه. كلّها صور من حفظ اللّه سبحانه كتابه.

من صور الحفظ حركة التّرجمة، إذ لا توجد لغة في الأرض إلاّ والقرآن الكريم مترجم إليها. ولكنّ ما لا نفقهه من صور الحفظ أكثر ممّا نعلم إذ أنّ اللّه سبحانه وعد بذلك وتكفّل به. ومن ذا فإنّ الخوف على الكتاب العزيز أن يحرّف فساد في العقيدة وضعف في الإيمان. إلاّ تحريفا معاصرا يأتيه بعض المنتسبين إلى الإسلام أنفسهم وهو تحريف معنويّ لا كلميّ.

التّحريف الكلميّ أخضعت له الكتب المقدسة السّالفة ولو أراد اللّه حفظها لما وقع ذلك، ولكنّ القرآن الكريم محفوظ حفظا إلهيّا مباشرا أن يحرّف كلمه عن مواضعه. ولكن يبتلى المسلمون بحفظ معانيه وقيمه في دلالاتها المعروفة محلّ الإجماع الصّحيح المتيقّن. وإلى ذلك التّحريف أشار ﷺ في حديث العدول الذي قال فيه «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله : ينفون عنه تحريف الغالين وإنتحال المبطلين وتأويل الجاهلين»[78].

يخضع القرآن الكريم إلى تحريف لا كلميّ بل معنويّ، يقدّم قيمة حقّها التّأخير أو يؤخّر أخرى حقّها التّقديم أو يكبّر معنى حقّه التّصغير أو يصغّر آخر حقّه التّكبير. وهو ما تورّطت فيه فرق إسلاميّة معروفة، إذ غالت بعض أجنحتها منها الصّوفية المغالية لا المعتدلة، ومنها السّلفيّة المتشدّدة

[78] جماعة من الصحابة بطرق كثيرة وصحّحه إبن عبد البر

لا المعتدلة، ومنها فرق باطنيّة أخرى أو ظاهريّة، ومنها أخرى فسقت بذلك التّحريف المعنويّ حتّى خرجت عن الدّائرة الإسلاميّة بالكلّية، من مثل الفرقة القاديانيّة التي أضحت ألعوبة في أيدي الإنجليز أيام إحتلالهم الهند. وذلك هو مبتغى أعداء الإسلام. أي تحريفا معنويّا يصرّم أولويات الإسلام ومراتبه ليكون الجهاد مثلا عملا منسوخا حتّى عندما يكون لتحرير الإنسان والأوطان.

وبالخلاصة، فإنّ القرآن الكريم محفوظ حفظا إلهيّا بما نعلم وبما لا نعلم. وأنّ تحريفه الكلميّ المباشر على غرار ما وقع للكتب السّالفة أمر بيد اللّه سبحانه وحده، وهو من يمنع كتابه من ذلك، ولكنّ التّحريف المعنويّ أمر موكول إلى أمة الإسلام نفسها لتظلّ المعركة في وجهها الدّاخلي بين العدول الذين أناط بهم ﷺ هذه المهمّة كما ورد في الحديث آنف الذّكر وبين الطوائف الإسلاميّة التي تغتال عقولها بأثر من إمعية وإنسحاق حيال سلف أبدع لزمانه ومكانه أو حيال خلف أبدع مثله لزمانه ومكانه.

وعد اللّه بحفظ كلمه وقراءاته ورواياته وقيّض لذلك من شاء. ومهما أوغلت محاولات التّحريف المعنويّة لا الكلميّة فإنّه مقيّض لها سبحانه من العدول والرّواحل من يثنيها. كما قيّض لحديث نبيه ﷺ رجالا لعلم الرّجال وجهابذة نخلوا ثروتنا الحديثية العظمى التي بها يحفظ الذكر المجيد من أوضار حركة الوضع سيّما فيما لا بدّ منه للدّين والعبادة وحفظ الأصول والمعاقد والعقائد والمقاصد والكلّيات والأسرة. وما عدا ذلك تخوم لا يضرّ فيها إختلاف.

وممّا يظلّ منوطا بنا نحن اليوم وفي كلّ يوم حفظا لهذا الكتاب العزيز هو التّعاون على تحفيظ النّاشئة كتاب اللّه تعالى أو ما تيسّر منه على الأقلّ

وإهتبال قابليّة الطفل لذلك. فهي قابليّة عجيبة ومن دون التّركيز على الفهم لأنّ الطّفل في سنيّه الأولى صفحة بيضاء تختزن المسموع والمرئيّ ولو كان حركة جسد. ولكنّها لا تعي ذلك حتّى تشبّ. وليس عبثا أنّ عدوّ الإسلام وأذنابه يقطعون سبل التّحفيظ. إنّما يفعلون ذلك لعلمهم المتيقّن أنّ حفظ القرآن الكريم من لدن الطّفل الصّغير هو خير وقاية وخير تطعيم ضدّ الكفر والإلحاد واللّهث وراء زينة الأفكار والنظريات التي تقذف بها العولمة مع كلّ فجر جديد تقريبا. بل إنّ حركة الإختلاف إلى الكتّاب وما يختلط بها لكاف وزيادة على درب ذلك التّطعيم القيميّ العجيب. فإذا شبّ الرّجل فإنّ حظّه من الكتاب العزيز هو الفهم والوعي والفقه يوما من بعد يوم، وليس الحفظ. إذ لكلّ مرحلة حظّها لمن يفقه الحياة. والأمران يتكاملان دون ريب. ومهما إدلهمّت الخطوب في وجه الأمّة في بلاد ما أو زمن ما، فإنّ اللّه سبحانه ما جعل مؤسّسة الأسرة إلاّ لتكون المحضن الأوّل وجدار الصدّ الأخير لنشوء المسلم وتطعيمه الإيمان منسابا مع لبن الأمّ ودفء الأب.

عدوّ الإسلام يدرك أكثر منّا المضغ الحيّة الكفيلة بحفظ القيم الدّينيّة ومن ذلك حربه ضدّ الأسرة. والأنسب أن نقول اليوم أنّه على أمّة الإسلام إذا تخلّت عن فريضة التّفكير، فما عليها سوى التّوجّه إلى المواطن التي يقصدها عدوّها لتتحرّك في الإتجاه المضادّ لحركته (تحفيظ النّاشئة القرآن الكريم مثلا أوّل ـ الأسرة مثلا ثانيا وإلى آخر ذلك). كما أنّه على فعاليّات الأمّة في كلّ مستوياتها الإنتباه إلى أنّ أكثر القراءات اليوم ورواياتها لا تحظى بالقدر نفسه من العناية. فإذا كان اللّه سبحانه قد قيّض لرواية حفص عن عاصم المملكة السّعوديّة لنشر هذه الرّواية في أحلى الأردية

وأجمل الثّياب، فإنّه على دول أخرى أن ترعى ما تيسر من بقيّة القراءات والرّوايات، ولا أظن أنّ المسألة متعلّقة بالقدرات الماليّة فحسب ولكن بالقرار السّياسيّ. فإذا إنداحت الحرّية فإنّ المجتمع الأهليّ نفسه له في هذا الطّريق حظّ وأيّ حظّ. لا مناص من رعاية كلّ تلك القراءات ورواياتها وعلى قدر المساواة قدر الإمكان. ولا بدّ من مواصلة التّرجمات وخاصّة بمعانيها وليس بكلماتها وحروفها. ويظلّ الحفظ الأعظم لهذا الكتاب هو التّرجمة العمليّة لقيمه وعقائده وتصوراته والمسالك التي يرشد إليها، أي ترجمته إلى أسر وعائلات وقيم وأخلاق عمليّة في السّياسة والإقتصاد والمال والعلاقات الخارجيّة في حالات الحرب و السّلم وفي القوانين والدّساتير. ذلك هو خير حفظ له مع صور الحفظ الأخرى التي ذكرت. ومن ذلك تحويل القصص القرآنيّ إلى قطع فنيّة رائعة راقية يتنافس فيها المؤلّفون والمخرجون والممثلون على أداء الدّور الأجود.

إنّ خير حفظ للقرآن الكريم هو تحويل قصّته إلى مسلسلات وتمثيليّات وغير ذلك من الصّناعة السّنمائيّة والفنّية. أمّا الخوف على القرآن الكريم من التّحريف الكلميّ وهو موجود قطعا ولن يتوقّف فهو نقصان عقديّ وضعف إيمانيّ ولا علاقة له باليقين في هذا الوعد الرّحماني الأعظم «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»[79]. عندما تخاف على القرآن الكريم من التّحريف الكلميّ وهو موجود ولن ينقطع، فإنّك لن تكون قدرا من الأقدار التي يكرمها اللّه سبحانه لحفظ كتابه. فهو سبحانه يحفظ كتابه عن التّحريف الكلميّ والمعنويّ معا بك أنت وبأشياء أخرى. فكن قدر اللّه في حفظ كتاب الله

---

[79] سورة الحجر - الآية 9

المقدّمة الخامسة عشر
بين البيان والتفسير

لا مشاحة في المصطلح، والعبرة بالمقاصد والمعاني وليس بالأشكال والمباني. عدا أنّه كلّما كان لسانك إلى لسان العرب أوّلا أقرب وإلى لسان القرآن ثانيا، يكون نحتك المعنى المقصود أدنى إلى الحكمة. ما أدهشني شيء في هذه الحياة مثلما أدهشتي دقّة النّظم التّعبيري والبلاغة التّركيبيّة لهذا القرآن العظيم. دقّة ما تضاهيها دقّة. وممّا يجعلني أشدّ سخريّة هو أنّ بعض المتهافتين منّا اليوم ينظّمون المحاضرات ويكتبون الكتب لتبيين أنّ النّظم القصصيّ في القرآن الكريم مهترّ، وأنّ نسبته تبعا لذلك إلى اللّه بعيدة. من هؤلاء أستاذ جامعيّ في التّخصّص اللّساني (لنغويستيك) في الجامعة التونسية عام 1998 إذ قدّم محاضرة بمناسبة الإحتفال بالمولد النبويّ الشريف في جامع عقبة إبن نافع في مدينة القيروان التّونسيّة (إسمه بلقاسم العبدلي) بين أيدي شرذمة الفساد التي تحكم البلاد في تلك الأيام. وقال بالحرف الواحد أنّ بنية القصص في القرآن مهترّة. الرّجل متخصّص في علم اللّسانيات، وليس هو الأوّل ولا الأخير. إذ صرّحت بمثل ذلك وقاحة وزيرة جزائريّة قبل سنوات طويلات كذلك أنّها لا تصلّي لأنّ

الصّلاة فيها سجود وركوع. وأنّ تلك الحركات فيها ذلّة وخضوع وخنوع. وهي أكرم وأشرف وأعلى من أن تسجد لأحد.

الحقيقة التي ردّدتها مرّات في مقالاتي وخطبي أنّ هذه المرأة أحبّ فيها جانبا عظيما إلتقطته. وهو أنّها ذكيّة يقظة واعية إلى حدّ بعيد جعلها تفقه أنّ حركتي السّجود والرّكوع يحملان قيم الذلّة والخضوع والخنوع والطّاعة المطلقة. هذا المعنى هل تجده عند أكثر السّاجدين اليوم؟ لا أظنّ. يقودني في ذلك ما قاده ﷺ إذ عفا عن المرأة الخيبريّة التي حاولت إغتياله بالسمّ. فلمّا سألها أخبرته أنّها فعلت ذلك لإختبار صدقيته، فإن كان نبيّا أنجاه اللّه بوحي إليه وإن كان كاذبا تخلّصت البشريّة منه. فعفا عنها لأجل السّبب الذي دفعها إلى قتله. أي أنّه راعى ذكاءها وإعتبر فطنتها. هذه الوزيرة الجزائرية راعني ذكاءها أنّها فقهت فقها صحيحا وعميقا ودقيقا المقصود من حركات السّجود والرّكوع. أحاول الإفادة من خصمي قدر الإمكان. ولا أقرّ هذه المتهافتة على كبرها ولكن عليّ أن أسجد وأركع وأنا على تمام الوعي وكمال الفقه أنّ المقصود من تلك الحركات هي إظهار العبودية والذلّة والخضوع والخنوع والحاجة والفقر. إذ أنّ ذلك هو المقصود من العبادة. ولكن لا يؤلمني شيء أكثر من تألمي أنّ أكثر المسلمين يسجدون وهم غافلون. إذ أضحت العبادة عادة، فلا يتأثّم أن يسجد للّه في اليوم مائة مرّة ولكن من بعد كلّ سجدة يطغى على حقّ ضعيف أو يأكل مال يتيم.

القرآن الكريم ليس بحاجة إلى تفسير بل إلى بيان وتبيين. التفسير مصدر من فعل فسّر يفسّر، وهو فعل مزيد من الفعل الثلاثي المجرّد (فسر ـ

يفسر ـ فسرا) ومعناه كشف عن شيء مستور. سؤالي هو : هل أنّ القرآن الكريم الذي ظلّ يتباهى مرّات أنّه بلسان عربيّ مبين وميسّر للذكر هو مستتر مخفيّ متوار حتّى يحتاج إلى فسر أو إلى تفسير؟ بل ظلّ القرآن الكريم نفسه يقول لنبيّه محمّد ﷺ في مرّات متتاليات أنّ من وظائفه أن يأتيه بتفسير لكلّ ما يلقي به النّاس سيما من الكافرين وغيرهم. من ذلك قوله سبحانه في سورة الإسراء «وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا»[80]. وتكرّر هذا المعنى بصيغ متقاربة. ذلك يعني أنّ حركة التّدافع بينه ﷺ وبين النّاس سواء في مكّة أو المدينة من مشركين ومنافقين وأهل كتاب وغيرهم كان سلاحها الفكرة. وكلّما ألقى هؤلاء بفكرة جاء القرآن الكريم بما يفسّرها. معنى ذلك أنّ الفكرة غير الإسلاميّة هي الفكرة التي تشكو ضبابيّة وطمسا وظلمة وسوادا. وكلّما ألقيت قاومها القرآن الكريم بما يكون مفسّرا من لدنه أي بفكرة أخرى مغايرة واضحة جليّة ساطعة. ذلك يعني أنّ القرآن الكريم هو الذي يقوم بعمليّة الفسر والتّفسير، وليس هو في حاجة إلى فسر أو إلى تفسير.

القول بأنّ القرآن الكريم يحتاج إلى ذلك يتعارض مع أنّه كتاب عربيّ مبين وميسّر. وأعيد وأبدئ بأنّ ذلك يتكامل مع القاعدة آنفة الذّكر أي أنّه لا مشاحّة في الإصطلاح وأنّ العبرة بالمعنى وليس بالمبنى. ولكن من حقّي لزوم المعنى القرآنيّ بل حتّى مبناه قدر المستطاع سيما أنّه تربّع على عرش الدقّة بكلّ أبعادها ومعانيها. بل إنّه تحدّى بها وظلّ التحدي معلّقا غير داحض. السّؤال هو: ما هو البديل عن الفسر والتّفسير؟

[80] سورة الفرقان - الآية 33

القرآن لم يتخلّف عن ذلك إذ قال في سورة القيامة المكّيّة «فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ،ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ»[81] وأناط عمليّة التّبيين بنبيه محمد ﷺ كما تقدّم في بعض هذه المقدمات. إذ أخبرنا مرّات أنّه ما أنزل هذا الذّكر الحكيم إلاّ بغرض أن يبيّنه هو ﷺ للنّاس جميعا. هو بيان تكفّل به هو سبحانه. وهو تبيين تكفّل به نبيّه محمّد ﷺ. البيان من فعل أبان يبين بيانا، والتّبيين من الفعل المزيد (بيّن يبيّن تبيينا) وكلّما تسلّح الفعل بحرف مزيد بولغ في معناه وإكتسب بعدا جديدا.

البيان الذي تكفّل به هو نفسه سبحانه هو جعل الرّسالة العامّة لهذا الكتاب في كليّاتها الكبرى واضحة جليّة ساطعة يفهمها كلّ من يسمعه مرّة واحدة أو يتلوه مرّة واحدة. وهي العبادة والتّزكية والعمارة بصفة عامّة وهي القيم الثّلاث العظمى التي تنتظم رسالة الإسلام. ولكن التّبيين الذي هو مبالغة من البيان أي مبالغة في التّوضيح والتّجلية والإبانة هو التّدخل النّبويّ في بعض الحالات النّادرة. أي تقييدا لبعض المطلقات فيه أو تخصيصا لبعض العموميّات فيه أو تفصيلا لبعض المجملات الكليّات فيه. وأكثر وجوده في المنطقة التّعبديّة والمساحة الدّينيّة. كيف أبان اللّه سبحانه كتابه؟ أبانه بصور منها اللّسان العربيّ وإنتقاء ما يجعل اللّفظ في سياقه المناسب مثل خرزة العقد الجميل المنتظم حبات متراكبة منضودة متناسقة يزيد المرأة جمالا على جمال وزينة على زينة. وما يجعل المعنى خصبا ثرّا غنيا يتشابه في مواضع كثيرة ولكن يتكافل مع بعضه بعضا ليكون في كلّ سياق جديد حاملا لبعد جديد. كما أبان اللّه سبحانه كتابه بأن جعله يبيّن

---

[81] سورة القيامة – الآية 18

بعضه عن بعض. وقد تعرّضنا لهذا في بعض المقدمات الآنفة. فهو محكم من جانب ومتشابه من جانب آخر، وهو مجمل هنا ومفصّل هناك وغير ذلك. آية سورة القيامة آنفة الذّكر تتحدث عن حرفه «فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ» كما تتحدث عن حده بتعبير حبر الأمّة إبن عباس أو عن معناه ودلالته «ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَه»،وبذلك يستقيم هذا الكتاب العزيز محفوظ الحرف بيّن المعنى جليّ الحدّ.

أمّا تبيينه من لدن نبيّه محمّد ﷺ فهو معلوم. ذلك أنّ حياته كلّها حتّى قبل البعثة بله بعدها إنّما هي مسخرة وميسّرة لتبيين هذا الكتاب العزيز. وهو ما إصطلح على تسميته حديثا أو سنّة أي قولا وفعلا وإقرارا. وحتّى الصّفة والحالة بتنسيب شديد. حياته كلّها إذن ﷺ هي تبيين للكتاب الذي جمع بين بيانه لنفسه بنفسه لسانا عربيّا مبيّنا ميسّرا رافعا لواء التّحدي حتّى يوم القيامة، وبين تبيينه حياة بشريّة إنسانيّة وهي حياة محمد ﷺ.

ذلك هو الذي جعلني أميل إلى أنّ الأحرى بعمل التّفسير- وهو عمل كبير عظيم لا مناص منه سواء كان موضعيّا أو موضوعيّا على مستوى السّورة أو الموضوع - أن يسمّى بيانا وليس تفسيرا. لأنّ التّفسير يوحي وشيا لا مناص منه كأنّه نزغ بأنّ هذا الكتاب فيه ما يدعو إلى الفسر عنه أو التّفسير مبالغة. ولكن لا مشاحّة في المصطلح لمن لم يعجبه هذا.

قالتي هي : القرآن الكريم في أمّه الأسّ ميسّر مبين عربيّ لكلّ مدّكر، وبذلك أبانه سبحانه إبانة بطرق شتّى تسكن رحمه هو. أمّا ما يحتاج منه تبيينا وليس إبانة أي مبالغة فقد كلّف به نبيّه محمدا ﷺ. هو كتاب لا يحتاج إلى فسر ولا إلى تفسير إذ هو قد أبين إبانة (سورة القيامة) وبيّن تبيينا من نبيّه ﷺ. ولكن تظلّ القاعدة صحيحة : لا مشاحّة في المصطلح

المقدّمة السّادسة عشر
ليس في العلم كبير ولا صغير

ممّا يختلف فيه الإسلام عن الدّين السّالف أنّه هدي إلهيّ موضوع إلى النّاس جميعا في كلّ زمان وفي كلّ مكان، وأنّ كلّ إنسان هو مخاطب بنفسه من لدن ربّه سبحانه في هذا الكتاب العزيز خطابا مباشرا، وأنّ تلك العمليّة المتبادلة بين اللّه وبين عبده لا تحتاج إلى وسائط إلاّ وسيطة تبيّن بعض المواضع التي تحتاج إلى ذلك. وهو الأمر الذي تولاه هو بنفسه ﷺ، أي تفصيل المجملات وتخصيص العموميّات وتقييد المطلقات. وهي كما مرّ بنا مرّات هنا نادرة من جهة وتتعلّق بالدّين من جهة أخرى، أو وسيطة أخرى هي عمل التّرجمة من اللّسان العربيّ إلى أيّ لسان آخر.

ومهما كانت الحاجة إلى تلك الوسائط أو تعدّدت، فإنّها تظلّ مساعدة يستأنس بها ـ عدا الوسيطة النّبويّة لأنّها جزء من الوحي والتّنزيل ـ فلا هي تنطق بإسم اللّه وكتابه والدّين والوحي، ولا هي تنحت الحقّ والباطل وتستولي على منازل التّشريع أو تمتلك سلطان التّحليل والتّحريم. ولكنّها بمثابة المعلّم الذي يملّك تلميذه أو طالبه المنهج فحسب. ولذلك جاء هذا

الكتاب العزيز بلسان عربيّ قحّ سليق مفهوم معقول منطقيّ يقول فيعرب. وكان أسلوبه أخّاذا جذّابا مبيّنا ميّسرا للذّكر. والذّكر هو ضدّ الغفلة. فمن طرد الغفلة وأقبل على التّفكّر والتّدبّر والنّظر وإعتقد أحسن المعتقد وآمن كما يكون الإيمان هو الأفضل والأرقى. تلك هي وظيفة العلماء والفقهاء والرّاسخين والمعلّمين وورثة النّبوّة بصفة عامّة. عدا أنّه في عصور الإنحطاط والرّكود واللّواذ حول التّقليد ظنّ النّاس في كثرة كاثرة منهم أنّ التّفسير هو القرآن. بل إنّ التفسير هو الذي ينطق بإسم القرآن الكريم، وأنّ ما يقوله المفسّر هو الحقّ المطلق الذي ليس بعده إلاّ الضّلال. وبمثل ذلك في تلك العصور المظلمة عالج النّاس في كثرة كاثرة منهم المدوّنات الفقهيّة.

بل إنّ ذلك الضّمور الخبيث والقعود عن التّجديد والإجتهاد بلغ منّا مبلغا سيّئا حتّى شننّا الحرب ومازلنا على من يخالف القديم أو يأتي بجديد، ومن دون الوعي بطبيعة ذلك الجديد هل هو من لازمات فريضة التّجديد التي جعلها ﷺ إرادة رحمانيّة ربّانيّة لازبة مطردة بها تقوم الحياة الإسلاميّة أم هي تقليدات جديدات في ثوب تجديدات، عدا أنّها تقليدات لخلف وليس لسلف. والحقيقة أنّ التّقليد ممقوت مذموم سواء كان لسلف مصيب أو لخلف مخطئ.

قيمة التّقليد ذاتها قيمة لا يرحّب بها الإسلام. بل إنك تقرأ في هذا الكتاب نفسه كيف أنّ اللّه سبحانه أناط الكفر أيّام مكّة الأولى بقيمة التّقليد للأباء والأسلاف. كيف ينكر بعضنا على بعض التّجديد ضمن أصوله وضوابطه في أيّ مبحث علميّ ومنها التّفسير والفقه و غيرهما، والحال أنّ نبيّ القرآن الكريم نفسه كما مرّ بنا يخبرنا أنّ هذا القرآن الكريم لا تنقضي عجائبه

ولا يخلق من كثرة الردّ ولا يشبع منه العلماء؟ ألم يقل هو نفسه ﷺ «بلّغوا عني ولو آية فربّ مبلّغ أوعى من سامع»[82]. ألا يعني ذلك أنّ السّامع من الخلف يمكن أن يكون أوعى وأفقه من المبلغ من أهل السّلف؟ ألم نلمس من ذلك بأنفسنا في الفقه وفي التّفسير؟ عدا أنّ الجهل وهو العدوّ الأكبر يستبدّ بالنّاس، حتّى ليجعل منهم متهافتين يظنون أنّ الأوّلين لم يتركوا للآخرين شيئا ويؤوّلون حديثه ﷺ «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»[83] تأويلا سيّئا يجعل النّصوص الدّينيّة الصّحيحة يضرب بعضها بعضا. ويصدّق ذلك الجهلة والحمقى والذين يستنكفون عن طلب العلم ولا يستنكفون عن حشر الأنوف والألسنة والأقلام فيما لا تحسن ولا تجيد.

إذا كان الأصحاب أنفسهم قد إختلفوا مرّات في حياته هو ﷺ ومن بعد موته ولزموا المنهج الإسلاميّ الذي ورد في القرآن الكريم نفسه وفي السّنّة، بما يجعل نزاعاتهم وخلافاتهم تعالج ضمن ذلك الإطار العاصم وتحت ذلك السّقف المنيع، فكيف لا يختلف من جاء بعدهم؟ تلك هي حركة العقل وحركة الفكر وذلك هو المراد الإلهيّ من الإختلاف. أي إبتلاء النّاس بعضهم ببعض. ويظلّ العاملون أكرم بإختلافاتهم سيّما إذا كانت تحت ذلك السّقف من غيرهم من البطّالين والفارغين والقاعدين وهم في حالة إطمئنان موهوم وسكينة فارغة وإجماع بليد لا يصمد في معارك الجدل الطيّب. ما الذي جعل حبر الأمّة يرقى ذلك المرقى الصّعب دون الصّحابة

---

[82] سبق تخريجه

[83] رواه البخاري (2652) ، ومسلم (2533) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

أنفسهم؟ أليس عندما جعل من لسانه لسانا سؤولا مبالغا في السّؤال ومن فؤاده عقولا مبالغا في العقل؟ ألم يرتق إبراهيم عليه السّلام إلى أعلى مراتب الخلّة الرّحمانيّة عندما نجح في إمتحانات عظمى؟ منها سؤاله ربّه السّؤال الذي لا يسأله إلاّ من هو على دربه. إذ قال دون تردّد لربّه «رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ»[84] . ألم يرق المرقى الصّعب نفسه أحد حفدته موسى عليه السّلام عندما سأل ربّه السّؤال الأخطر؟ إذ قال لربّه دون تردّد «رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ»[85] كيف يكون المنبع الإسلامي من وحي القرآن والسّنّة ومنهاج الأصحاب الكرام ممتلئا بالسّؤال والبحث والإجتهاد والتّجديد غير هيّاب ولا متردّد ولا خائف من السّؤال المحبوب إلى اللّه سبحانه ثمّ نرث زمانا يكون فيه السّؤال هرطقة وزندقة وردّة وكفرا؟ هل أصاب من فسّر القرآن الكريم فلا يردّ عليه قوله؟ هؤلاء مفسّرون كبار وقعوا في الخطإ وما يعني ذلك سوى أنّ هذا الكتاب العزيز موضوع للنّاس ليأخذ كلّ منهم حظّه منه بحسب ما يحتمله واديه. أليس هذا شيخ المفسرين إبن جرير الطبريّ يخطئ خطأ صحيحا صريحا، إذ فسّر هجر المرأة في قوله سبحانه «...وَاهْجُرُوهُنَّ» [86] بهجر الدّابة؟ أليس هذا إبن القيم ذلك المعلم الكبير قد أخطأ عندما قال بأنّ الذكر أشرف وأكرم من الأنثى بسبب قوله سبحانه «وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ»[87]؟ ألم يقل إبن كثير وهو المفسّر الكبير في تفسير قوله سبحانه في سورة النّساء من قوله «وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ»[88]

---

[84] سورة البقرة – الآية 260

[85] سورة الأعراف – الآية 143

[86] سورة النساء – الآية 34

[87] سورة آل عمران – الآية 36

[88] سورة النساء – الآية 5

أنّهم ـ أي السّفهاء ـ المرأة؟ ألا ترى أنّ هذه الأخطاء الثّلاثة ـ وغيرها كثير ـ وأصحابها كبار سابقون كانت بسبب واحد تقريبا وهو سلطان البيئة عليهم؟ تلك بيئة إمتلأت في أزمنة الإنحطاط بقيم الدّونيّة ضدّ المرأة على عادة العرب في الجاهليّة، ولم ينج من ذلك التّأثير فحول مثلا هؤلاء وغيرهم، ولا يضيرهم ذلك في شيء. وسبحان من لا يضلّ ولا ينسى. وأخطاء أخرى أكثر وأكبر وقع فيها المفسّرون والفقهاء، ولكن يشفع لهم جميعا أمران : أوّلهما أنّها أخطاء وليست خطيئات، أي أنّها أخطاء مهما كبرت وعظمت فهي فرعيّة وجزئيّة وليست عقديّة أو كليّة. وثاني الأمرين هو أنّ حسناتهم جميعا فيما كتبوا أكثر من سيئاتهم بكثير وكثير. والعبرة في كسب المرء دوما بحسب الأغلب، وكفى المرء نبلا كما قال الشّاعر الحكيم أن تعدّ معايبه.

من ذا فلا يحقّرن أحد نفسه أن يقول في كتاب اللّه سبحانه وفي حديث نبيه ﷺ ما ينقدح في ذهنه من بعد طلب علم ومراس ومران وتجربة ودرس حافظا لمن سبق قدره كاملا ونابذا عن نفسه أردية التّقليد الأعمى كائنا من يكون المقلّد. ناهيك أنّ خير من يقلّد وهو محمد ﷺ لم نؤمر بتقليده ولو مرّة واحدة ولو إيماء من بعيد. إنّما أمرنا بالإتباع، وشتّان بين متّبع يتّبع عن وعي وبصيرة وبإحسان لاحظا تبدّلات الزّمان والمكان، حافظا لراسخات الحجّة والبرهان وبين مقلّد إمّعة سفيه. ومن إنسحقت شخصيّته لسلف كائنا ما كان صلاح ذلك السّلف وحذقه فإنّه منسحق يوما قطعا مقطوعا لخلف. إذ أنّ رذيلة التّقليد واحدة، والقيمة في أصلها الثّقافيّ الفكريّ الفلسفيّ واحدة ولكن تتبدّل صورها. ذلك هو معنى هذه المقدمة. أي أنّي مخاطب بهذا الكتاب العزيز خطابا مباشرا وأنا مسؤول

على تحمّله مسؤوليّة شخصيّة فرديّة مباشرة، فلا يشفع لي يوم القيامة أن أقول أنّي إتبعت فلانا أو حذوت حذو الآخر. إذا كان رجل مثل الفاروق الذي لا أحبّ أحدا مثله بعد محمد ﷺ قاده عقله إلى إيقاف أبي هريرة الذي أذن له ﷺ بالتّحديث بحديث «مَن ماتَ لا يُشْرِكُ باللَّهِ شيئًا دَخَلَ الجَنَّةَ»[89] وحمله مقبوضا عليه إليه هو ﷺ وطلب منه بلا تردّد أن يمنع أبا هريرة من نشر الحديث خشية أن يركن النّاس إلى تغليب الأمل فيضعف العمل، فما كان منه ﷺ إلاّ أن أجابه. هل بعد هذا الموقف من موقف يجعل المرء ينقاد إلى أيّ شيء بلا عقل ونظر وتفكّر وتدبّر وخاصّة في المآلات والعاقبات؟ سيدحض هذا الإتجاه كسالى يغويهم الشّيطان بالقول : وهل أنت مثل عمر؟ هؤلاء إحتضر الطّموح في صدورهم ومن وئد طموحه فقد وئدت حياته.

هذا حديثي لطلبة العلم النّابهين اليقظين المثابرين، ولا عزاء لمن باعوا عقولهم التي بها أكرمهم الله سبحانه على سائر من خلق إلى أموات أو إلى أحياء من سلف أو خلف. والله أعلم

[89] صحيح مسلم (93) عَنْ جَابِرٍ

المقدّمة السّابعة عشر
نحو بيان سننيّ

هذا الكتاب معجز من حيث أنّه يضمّ كلّ ما يحتاجه الإنسان، وذلك معنى من معاني قوله سبحانه «مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ»[90]. عدا أنّ معالجته لتلك الأشياء وبسطه إيّاها للنّاس تختلف مستوياته، وذلك على معنى أنّه يقدّم همّه الأوّل الأعظم، أي همّ الهداية بمساربها التي تحدّثت عنها في فقرات كثيرات، وفي أثناء ذلك ـ في أثناء القصّة مثلا أو في أثناء بسط تضاريس الكون ـ يلمع كما يلمع البرق بضوء سريع يوظّفه لخدمة همّه الأسّ، ويجعله حقلا خصبا لمن يريد التدبّر فيه، لينقدح في ذهنه منه عجائب أخرى في فنون أخرى.

تجربتي مع هذا الكتاب العزيز تقول لي أنّه على المتدبّر أن يحفر تحت كلّ كلمة ـ وبلا أيّ مبالغة مطلقا ـ من كلمات هذا النّظم المدهش المعجز. فإن فعل فهو لاف تأكيدا مؤكّدا خيرا تحت كلّ كلمة يحفر تحتها. هذا

---

[90] سورة الأنعام - الآية 38

الكتاب العزيز منجّم خصب ثرّ، لا تجنى منافعه ومصالحه إلاّ بمعالجته كما يعالج النّاس الأرض أو المناجم، إذ لا يجدون الذّهب ملقى فوق الأرض لكلّ كسول يلتقطه، إنّما بالعمل الجادّ الصّبور الدّؤوب يجني العامل ذهبا أو أيّ شيء ثمين. بل إنّ ما يجعلك متربعا على قمّة الدّهشة أنّ تلك الكلمة ذاتها التي قلّبتها أنت ووجدت تحتها كنوزا فإنّ من يأتي بعدك إذا قلّبها هي ذاتها، فإنّه لواجد فيها بمثل ما وجدت بل أخصب وأثرّ وأغلى.بأيّ حقّ ينكر المنكرون إذن على طلبة العلم فتح باب الإجتهاد في مثل هذا الكتاب العزيز؟ إلاّ الحماقة أعيت من يداويها.

من البيانات أو التفاسير التي أطمح إليها طموح الظمآن إلى جرعة ماء زلال عذبة أن يخصّص تفسير أو بيان لإستقراء مسألة السّنن في هذا الكتاب فحسب ولا يعدوها. هذا الكتاب حافل حفلا عجيبا بالسّنن والنّواميس والقوانين التي تجعل الأمم متقدّمة غالبة متأبية مستعصية عن الإسترقاق والإستعباد، وأخرى تجعل منها متأخّرة مغلوبة مرحّبة بالإحتلال، كما قال مالك بن نبيّ عليه الرّحمة أي القابلية للإحتلال. بل ربّما شحنت القصّة منه بصفة خاصّة بتلك النّواميس شحنا وحقنت الأمثلة وغيرها من آياته المبثوثة بتلك السّنن حقنا عجيبا. إنّما يصدّنا عن ذلك أنّنا نقرأ بالأعين وليس بالأفئدة حينا، وأنّنا لا نتدبّر إلاّ قليلا حينا آخر، وأنّنا نقرأ القرآن عضين مجزّأ مبتورا مبتسرا في مواضع معزولة وجزر منفصلة، فلا نجمع مواضيعه ولا نسلّط عليها مباضع التّحليل والإستقراء والفهم والتدبّر والفقه أحيانا.

أمّا ناكية النّاكيات فهي أنّنا نظنّ إعتقادا أنّ هذا القرآن هو كتاب حلال وحرام، كأنّه قانون طرقات جافّ، أو أنّه يقصّ علينا قصص الأوّلين بلا

عبرة، أو أنّه كتاب فرد وليس كتاب أمّة، أو أنّه لا شأن له بالشّأن العامّ وغير ذلك من الظّنون التي نسجها الإنحطاط وغذّاها الوافد. وعندما يجتمع عليك موروث بليد ووافد عصيّ فأنّى لك أن تتحرّر؟

كتب بعضهم كتبا في السّنن القرآنيّة، وهذا جميل وجيدّ دونما ريب، ولكنّ الذي أرنو إليه هو إكمال هذا الجهد الكبير من جهة وترسيخه في مباوئه القرآنيّة من جهة أخرى، ومن جهة ثالثة تسليطه على واقعنا الحاضر. إقرأ القرآن لنفسك مرّة واحدة بغرض واحد هو إلتقاط السّنن والنّواميس والقوانين المبثوثة فيه لترى عجبا عجابا. ستجد أنّه وعلى غير ما نظنّ خارطة طريق ترسم للأمّة صراط النّهضة وطريق التّقدّم، وممّا يحرّض على ذلك ولا يؤخّره أنّنا في حالة إسترقاق وإستعباد وإحتلال ودونيّة ومغلوبيّة. ومن ذا فإنّ خير من يحرّرنا من تلك الموبقات هي السّنن التي بثّت في هذا القرآن الكريم. ذلك أنّ أمما من قبلنا تعرّضت لذلك. أليس هذا الكتاب إلاّ مرآة داخليّة عاكسة لما خلفنا وما حولنا؟ هو كذلك. هو مرآة ترسم الحياة الخالية، ولذلك قال ﷺ فيه: «كِتَابُ اللّه، فِيهِ نَبَأُ مَا كان قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ»[91] .

من تلك السّنن المبثوثة فيه ـ على سبيل الذكر وليس الحصر ـ قوله سبحانه: «إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ»[92]. وقوله سبحانه: «إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ»[93] وقوله سبحانه: «وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ

---

[91] من حديث رواه الترمذي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه

[92] سورة الرعد - الآية 11

[93] سورة يوسف - الآية 23

وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ»[94]. وقوله سبحانه: «إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ»[95]. وقوله سبحانه «يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ »[96]. وغير ذلك كثير لا يحصى.

فما من حقل أو مجال في الحياة إلاّ وفيه سنّة أو قانون أو ناموس به يحكم. أليس تأخّرنا عندما أهملنا النّظر في الأسباب والسّنن والأقدار والماضي الخالي؟ أليس تأخّرنا عندما ظنّنا أنّ الإنسان في عقيدة القدر إمّا مجبر مكره أو هو ريشة في مهبّ الرّيح لا وزن له ولا حرّية له ولا إرادة له، أو هو لا يؤمن بالقدر إيمانا صحيحا؟ حتّى الذين أنكروا هذا وذاك معا خانتهم الشّجاعة التي تحلّى بها الفاروق وعبد القادر الجيلاني وإبن القيّم ومحمّد إقبال وغيرهم، فنسجوا كلاما لا لون له ولا طعم.مبحث القدر لا ينفصل عن البيان السّننيّ السّببيّ بحال.

لا أريد من هذه المقدّمة أن تطول أو أن تتورّط في ذكر السّنن المبثوثة أو حتّى بعضها، ولكن أريد قصرها على التّنبيه على هذا البيان اللاّزم لنا اليوم عسى أن يشمّر أهل الجدّ فينا وهم كثيرون، علماء وفقهاء ومصلحون. لا أطمح سوى إلى بيان سننيّ يستنبط سنن القوّة والنّهضة والتّقدّم من القرآن الكريم، ليغدو ذلك ثقافة وفقها ووعيا ساريا. ويحتاج ذلك إلى عقود ومن ذا نخطو على درب الإقلاع خطوة أخرى. بداية التحرّر الوعي. وليس عدا الوعي قطعا مقطوعا. وليس الكتاب الكريم سوى منظومة

---

[94] سورة القصص - الآية 6

[95] سورة يوسف - الآية 90

[96] سورة البقرة - الآية 276

عقائد وتصورات وأفكار وقيم ومسالك مبتدأها وعي وخبرها فعل. وظيفة هذا الكتاب بثّ الوعي وتصحيح التصوّر وإنفاذ الإرادة من بعد ذلك، ذلك رجائي وذلك همّي

المقدّمة الثامنة عشر
قراءة في فلسفة التّرتيب النهائيّ

أختم بهذه المقدّمة الإستقرائيّة في حكمة التّرتيب النّهائيّ المقدّمات السّالفة. لست صاحب هذه الفكرة وما كحّلت خاطري يوما ولا قرأت عنها حتّى فاجأتني ذات يوم ألمانيّة مسلمة (هي من خير من عرفت في حياتي) بهذا السّؤال: لأيّ حكمة نزل القرآن الكريم بترتيب للسّور معلوم، تقدّمت فيه السّور المكّية، ثمّ نزل ترتيبه النّهائيّ على غير ذلك المثال مقدّما السّور المدنيّة والطّوال منها؟ فاجأني السّؤال، وعكفت عليه سنوات ثمّ تبيّن لي ما أبثّه هنا. وهو إجتهاد قد يصيب وقد يخطئ، ولكنّي سأظلّ أعدّ السّؤال مفتاح النّجاح في الحياة على درب الفقه الإبراهيميّ والعلم الموسويّ عليهما السّلام جميعا. سؤال صحيح يتنكّب صاحبه الجواب الصّحيح عقودا خير عندي من غفلة أو لامبالاة يظلّ صاحبها عابدا عبادة عادة لا جديد فيها. وقديما قيل : «خطأ المجتهد أحبّ إلى اللّه سبحانه من إصابة المقلّد». حبّب إليّ السؤال وهذا فضل منه ومنّ ونعمة. هذا سؤال جدير بالطّرح، نزل منه كما هو معلوم على إمتداد عقد ونصف إلاّ قليلا ستّ وثمانون سورة أطولها الأنعام المتقدّمة وأقصرها الكوثر المؤخّرة،

وهي الأكثر كمّا وعدد سور كذلك. إذ أنّ ما نزل بعد ذلك في المدّة ذاتها تقريبا إلاّ قليلا أدنى من ذلك كمّا وأقّل بكثير سورا. أي أنّ عدد السّور المدنيّة زهاء سدس عدد السّور المكيّة. تميّزت هذه بالطول كمّيا وبطول الآية وبمعالجتها للتّشريع العمليّ.

السّؤال هو لم تقدّمت ولأيّ حكمة جاء التّرتيب النّهائيّ وفق هذا المنوال المعروف، وليس هو إجتهاد نبويّ إنّما أمر إلهيّ؟ مفتاح الجواب هو أنّ هذا التّرتيب النّهانيّ هو الذي سيقود الأمّة جمعاء قاطبة حتّى يوم القيامة في حين أنّ التّرتيب الأوّليّ كان يتنزّل على ثلّة صغيرة في مكّة بوجود أكثريّة من المشركين وأنّه كان يخاطب النّاس كلّهم ولذلك إمتلأ بهذا النّداء العامّ «يا أيّها الناس» أو «يا أيّها الإنسان» أو «يا بني آدم». فلمّا نشأت الدّولة وتحرّرت الجماعة المؤسّسة الأولى وبدأت تشقّ طريقها في التّحضّر والترقّي، وتتصرّف من منطلق القوّة والفعل، وإكتمل التّشريع تنزّل هذا التّرتيب الجديد.

لا حديث عن الفاتحة (السّبع المثاني) التي هي موضوع هذه المقدّمة. ولكن يبدأ الحديث من تقدّم سورة البقرة وما يليها. درست الأمر فوجدت أنّ هذا التّرتيب يقصد به تعليم النّاس وتربيتهم على أنّ الأولويّة في إهتمامهم ـ من حيث أنّهم جماعة وأمّة وليس من حيث أنّهم أفراد إلاّ بقدر إنصهار الفرد في الجماعة لوظيفة إجتماعيّة وليس إنسحاقا ـ يجب أن تكون لقضايا ثلاث عظمى هي : الثّبات على الصّراط العقديّ المستقيم الذي رسّخته السّور المكّية أوّلا، وبناء الأسرة المسلمة وفق المنهاج الإسلاميّ تأسيسا ومعالجة وفكاكا ثانيا، والتيقّظ للخطر الإسرائيليّ سيما في وجهه اليهوديّ ثالثا مع ما يلزم ذلك من أداء للجذوع التعبّدية المؤسّسة كالصّلاة

والصّيام والزّكاة والحجّ. تلك هي خلاصة سورة البقرة الزّهراء العظمى.

ثم جاءت أختها آل عمران لتواصل ذلك المنهاج الجامع ولتؤسّس اليقظة المطلوبة تحوّطا من الخطر الإسرائيليّ في وجهه المسيحيّ من جانب ولتعزّز ذلك بإلتقاط الدّورس النّافعة من عدوان أحد. ثمّ جاءت سورة النّساء لتعود إلى قضيّة تأسيسيّة عظمى لا يقوم للأمّة بدونها بنيان قطّ، وهي قضية الأسرة والمرأة وهما عنوانان لقضية واحدة ولتعالج هذه السّورة نفسها (النساء) ما عفت عنه أو باشرته الزهراوان الأوليان أي الخطر الخارجيّ وخاصّة الظّاهرة الإسرائيليّة بوجهيها اليهوديّ والمسيحيّ من جهة، وظاهرة النّفاق وهي الأخطر من جهة أخرى. تلك هي التّحديات الجديدة للأمّة من بعد التخلّص عقديّا فحسب من الخطر الشّركيّ.

ثمّ جاءت سورة المائدة التي يسمّيها الصّحابة سورة العقود، لتذكّر بأنّ الحياة منظومة عقود بين اللّه وبين النّاس وبين النّاس بعضهم ببعض. ولترسخ أنّ الدّين هو الوفاء بتلك العقود، وهو الأمر الذي بدأته سورة البقرة في آية الدّين وعالجته سورة النّساء في آية شبيهة بها كثيرا. لم تتخلّف سورة المائدة عن مواصلة تأسيس اليقظة المطلوبة حيال تلك الأخطار الثّلاثة العظمى المحيطة (حركة النفاق النّاشبة سرّا ـ حركة اليهود ـ حركة النّصارى)، ثم إكتمل الرّبع الأوّل بحسب تصنيف معيّن بسورة الأنعام التي يسميها العلماء المعاصرون سورة التّوحيد الكبرى. وهي أوّل مكّيّة في هذه المقدّمة وموضوعها الأوحد الذي لم تبرحه قيد أنملة إنّما هو: من هو اللّه؟ ولم نعبده؟ ولم نوحّده؟ ويتمّ ذلك بالطّبيعة بالعلاقة مع نقيضه أي الشّرك. ولذلك تعزّزت برحلة إبراهيم عليه السّلام من الشكّ إلى الإيمان. كما توسّعت لأوّل مرّة في تحديد الصّراط المستقيم لتعلّم النّاس

أنّ رأسه ذلك التّوحيد الصّافي من كلّ شائبة شرك، ولكن له جسم لا ينفكّ عنه وهو حقّ النّاس بدء من حقّ الوالدين والأسرة والطّفل ووصولا إلى حقّ كلّ إنسان تربطنا معه معاملة.

لو قمنا بخلاصة مكثّفة للرّبع الأوّل من القرآن الكريم لألفينا بيسر أنّ الحكمة من التّرتيب النّهائيّ هو بناء العقل الإسلاميّ على أساس أولويّات في الحياة أمّها هي : الثّبات على إعتقاد صحيح معزّز بعبادة عمليّة راسخة، وبناء الأسرة على أسس إسلاميّة قيميّة صحيحة ملؤها التّوازن والإعتدال من بعد ما تعرّضت المرأة طويلا إلى معالجات لا تليق بالعجماوات والبكماوات، ونذيرا أنّ العقل العربيّ شديد الأهليّة للعود لتلك الجاهليّة والتّيقّظ للخطر الجاثم على التّخوم القريبة، بل هو قنابل موقوتة في المجتمع نفسه بسبب إرادة الإسلام بناء الحياة على المواطنة وهو خطر ثلاثيّ الأبعاد سيظلّ يلازم الأمّة حتّى يوم القيامة (النفاق والوجود الإسرائيليّ بوجهيه اليهوديّ والنصرانيّ)، والعود دوما إلى الجذر الغذائي الكفيل بصناعة الحياة أي : من هو اللّه؟ ثم تأتي سورة الأعراف لتعضد أختها السّالفة سورة الأنعام في معالجة الإعتقاد بوسائل كثيرة بثّها القرآن الكريم منها مثلا مشهد الأعراف يوم القيامة، ولتتميّز بالعود إلى أصل الإنسان الأوّل وقصّة آدم وصراعه مع إبليس، ولتضفي جمالا أخّاذا إذ تصل بين المشهدين الأوّل (آدم في الجنّة) والآخير (ذرّية آدم يوم القيامة). ثم يتحوّل التّرتيب إلى مشهد عاشه الجيل المؤسّس الأوّل لحما ودما وهو عدوان بدر الذي سمّاه فرقانا، مستنبطا الدّروس بمثل ما فعل مع واقعة أحد قبل ذلك بقليل.

أسئلة هنا لا تحصى منها لم نفث عبر أحد وهو هزيمة في آل عمران المتمحّضة للشقّ النّصرانيّ من الوجود الإسرائيليّ؟ ولم بدأ به هو أصلا وهو متأخّر في التّاريخ؟ هذه الأسئلة محلّها البيان الموضوعي للسّورة. ولم تمحضّت سورة الأنفال بالكلّية لواقعة بدر؟

القرآن الكريم كتاب سننيّ على معنى أنّه يؤسّس لسنن النّصر وقوانين الهزيمة ونواميس النّهضة والتّقدّم ومقدّمات التّأخّر والتّقهقر. لكم نحن بحاجة إلى بيان خاصّ بالنّاحية السّننيّة فحسب لا يبرحها. ثمّ تأتي الدّعوة إلى التيقّظ إلى أكبر تلك التّحديّات الجديدة التي تولّدت مع الهجرة وبناء الدّولة وبداية الفعل الحضاريّ، وهو تحدّي النّفاق ولذلك خصّته بسورة كاملة وهي سورة التّوبة التي يسميها الصّحابة الفاضحة ويسميها العلماء المعاصرون سورة النّفاق الكبرى.

عودة من جديد إلى التّحديات الخارجيّة سيما أنّ النّفاق تحدّ خارجيّ وداخليّ في الآن نفسه، إذ هو الثّعبان السّامّ الذي يعيش مع الأمّة في بيتها الدّاخلي يأكل معها في النّهار ويختفي في اللّيل ليلدغها غدرا وخيانة. ولحكمة ما يأبى الوحي العجيب إلاّ أن يحقن السّورة نفسها بخطر الوجود الشّركي المحيط بالكعبة في أوّلها من جهة وبالحرب الإستباقيّة الوقائيّة (تبوك الرّوميّة) من جهة أخرى، إذ كانت محطّة خصبة لنجوم النّفاق وبلوغ أعلى درجاته وتأثيراته من جهة ثانية، ولمعالجة التخلّف عمّا يشغل الأمّة ويهدّدها، ولتعلّم السّورة النّاس مهارة التّخصّص لتغطية كلّ الحاجات والضّرورات والمطالب.

وإنّ لك في تناسب السّوّر بعضها خلف بعض لحكمة بليغة لمن أراد هنا نظرا. إذ أنّ بين الأنفال والتّوبة رسالة قوامها أنّ النّصر جميل يغدق على

القلوب بهجة، ولكن لا يعفي من الإهتمام بأفاعي النّفاق والقعود من بعد نصر عن ملحمة مقاومة إستباقيّة تتخن في الأرض وتلقّن الرّوم عبرة بليغة.

هذه دفعة أولى من عبر التّرتيب النّهائيّ، خلاصتها أنّ البيت الدّاخلي غذاؤه الإعتقاد الصّحيح والعبادة الصّحيحة والأسرة السّويّة من جهة، والتيقّظ لأخطار النّفاق والوجود الإسرائيليّ بوجهيه والوجود الشركيّ، وفي الأثناء دروس وعبر يانعة لا تحصى. ثم تبدأ دفعة ثانية يغلب عليها القرآن المكيّ من يونس حتّى الأنبياء أي أكثر من عشر سور كلّها مكّية تعالج الإعتقاد بالوسائل المعروفة، بل يتواصل هذا البحر الهادر من القرآن المكيّ مع ورود سورة مدنيّة من حين لآخر.

ففي دفعة ثالثة يغلب عليها كذلك الوجود المكيّ من سورة المؤمنون حتّى السجدة، أي زهاء عشر سور عدا سورة واحدة مدنيّة هي سورة النّور بمثل ما كانت سورة الحجّ قبلها في الدّفعة السّالفة. وبمثل ذلك في دفعة أخرى من سورة سبأ حتّى آخر السّور المفتتحة بحرفي (حم) إلاّ سورة الأحزاب المدنيّة، وفي دفعة أخيرة يتواصل المشهد المكيّ على هذا المنوال مهيمنا إلاّ من سور مدنيّة قليلة منها سورة محمد ﷺ والفتح والحجرات بهذا التتابع وحتّى آخر سورة أي سورة النّاس إلاّ من سورة مدنيّة قليلة هي الحديد والمجادلة والحشر والممتحنة والصّف والجمعة والمنافقون والتّغابن والطّلاق والتحريم. وهو أطول سياق من السّور المدنيّة على الإطلاق أي من حيث العدد. أمّا السّور المكّية والتي هي الأكثر عددا وكمّا، فإنّ موضوعها واحد ولكن بأساليب متنوعة من إحالات إلى التّاريخ والقصّة والتّمثيل، إلى إحالات إلى الكون وتضاريسه، مرورا بإحالات إلى النّفس وتقلّباتها يسرا

وعسرا في الدّنيا وفي الآخرة. من ذلك إيراد القصص النّبويّ ليونس ويوسف وإبراهيم ونوح وهود وأصحاب الكهف وذي القرنين وموسى الذي كاد أن يذهب بالقرآن الكريم كلّه وقومه معه، وفي هذا عبرة من جناها إحتسى رسالة القرآن الكريم كما يحتسي شرابا طهورا يزيده قوّة وغذاء ونشاطا. وفي الأثناء عود دوما إلى الوجود الإسرائيليّ في وجهيه وبسط عقيدة التّثليث وتأليه عيسى أو أمّه عليهما السّلام وأزيد من عشرين نبيّ وقصّة، وعرض حياة النّحل وحياة النّمل للعبرة.

في حين أنّ القرآن المدنيّ على ندرته يواصل تفصيل ما أجملته أو إنقبضت فيه سور مدنيّة متقدّمة أو عالجته من زاوية أخرى. ومن ذلك جاءت سورة الحجّ ثمّ سورة النّور التي كانت محطّة كبرى في السّيرة النّبويّة، وهي المحطّة التي وجّهت فيها حركة النّفاق لأوّل مرّة ضربة كادت أن تكون قاضية للوجود الإسلاميّ، فكانت مناسبة للعود إلى الخطر النّفاقي ولترتب أحكاما تحصّن الأمّة قيميّا وأخلاقيّا، مبيّنة أنّ الخطر النّفاقيّ لا يقلّ عن خطر الإنفلات القيميّ بإسم الحرّية أو البراءة، وأنّ الإهتمام الجنسيّ في النّاس يمكن أن يكون صانع قوّة وجمال كما يمكن أن يكون سحقا وسحتا وذهاب ريح، ولكن يتدثّر بدثار جذّاب أخّاذ. وفي كلّ تلك الأثناء يدعو القرآن الكريم إلى العلم والمعرفة تحريرا للعقل وتسخيرا للكون وذلك إذ يعرض قصّة لقمان مع إبنه، أو إذ يعرض العلوم التي تجشم موسى عليه السّلام العقبات ليأخذها من صاحبه. ثمّ يصل هذا المسار الطويل إلى آخر عدوان عربيّ شامل جامع تكافلت فيه قوى النّفاق من الدّاخل مع قوى الوجود الإسرائيليّ سيّما في وجهها اليهوديّ، وهو عدوان الخندق الذي خصّص له سورة الأحزاب المدنيّة.

السّؤال الخطير الكبير هو مرّة أخرى : لأيّ حكمة إرتبط هذا العدوان العربيّ المتكافل مع الإسرائيليّين والمنافقين في هذه السّورة نفسها مع البيت النّبوي الذي سيتواصل الحديث فيه في سورة مدنيّة أخرى وهي سورة التّحريم؟ لا شكّ أنّ لتلك المناسبات داخل السّور عبرا عرفها من عرفها وجهلها من جهلها، ولكن العلم بها بطريق السّؤال أولى من إهمالها. ذلك جانب من السّيرة النّبويّة الصّحيحة أبى القرآن الكريم إلاّ أن يضمّه إليه ليكون حقلا خصبا ثرّا مغداقا لصنف واحد من النّاس هو صنف المصلحين وليس الصّالحين فحسب.

أرأيت كيف أنّه بدأ بأحد، ثم ظلّ يعالج ذلك من بدر إلى الخندق في وجهيه (قريش وغطفان من جهة وبني قريظة من جهة أخرى) مرورا بتبوك والمريسيع في سورة النّور، ليصل في النّهايات إلى خيانة بني النّضير في سورة الحشر وغيرها من مثل فتح مكّة في بداياته في سورة الممتحنة ونهاية في سورة النّصر، وحدث الحديبية الذي خصّه بسورة كاملة هي سورة الفتح؟ وتكاد تتمحّض سورة الحجرات بالكلّية إلى نحت المنظومة القيميّة الإجتماعية التي يجب لزومها بين النّاس نشدانا للسّلم والأمن ونحت نياط التّآخي والتّكافل. ويخصّص حديثا عن الجنّ بسبب أنّ عبادة الجنّ في الغابر وفي الحاضر تحدّ جدّيّ. ويخصّص لذلك سورة كاملة هي سورة الجنّ. ويعود مرّة أخرى إلى قضيّة الأسرة والمرأة في سورة المجادلة، ليرتّب على الظّهار الظّالم كفّارات مغلّظة، وليعالج قيمة النّجوى والتّناجي بين النّاس أن تكون مطيّة للمنافقين لتحطيم أسديّة المجتمع.

ولا يفوته الإهتمام بالمال العامّ وتقسيمه وتوزيعه بدء من الزّكاة المفروضة في سورة التّوبة إلى سورة الحشر. كما لا يفوته تنظيم الحياة

السياسيّة داخليّا لإرساء علاقة تبايع وتعاقد بين الدّولة وبين النّاس على أساس وظيفيّ خدميّ لا مكان فيه للولاءات العائليّة والطّائفيّة. عدا أنّ كلّ ذلك لم يحظ منه سوى بنحت كلّيات عامّة وخيارات عظمى وإتجاهات كبرى وأسّ منهاجيّة كفيلة بحفظ الأمن والسّلم والحرّية والكرامة للنّاس عند لزومها، وكذلك تنظيم الحياة السّياسيّة في وجهها الخارجيّ كما فعلت آيات قليلات منها آيتا سورة الممتحنة المدنيّة.

ولو فصّل في ذلك، لكان القرآن الكريم عنتا وحرجا ومشقّة. وهو ما أحسن العلماء بتسميته منطقة فراغ على النّاس أن يملؤوها بما تيسّر لهم، فهم أدرى بالأوعية عندما ترعى المقاصد وتحفظ القيم. بل إنّه عاد إلى قضيّة الأسرة والمرأة لخطورتها القصوى في تأمين الأمّة أو تحطيمها وذلك في سورة الممتحنة نفسها بمناسبة هجرة النّساء مبيّنا أنّ المرأة تبايع الدّولة بمثل ما يبايعها الرّجل سواء بسواء، إذ ليس هناك في الإسلام دين خاصّ بالرّجال وآخر خاصّ بالنّساء، وأنّ الخصوصيّات النّفسيّة والبدنيّة لكليهما إنّما توظّف لخدمة الرّسالة ذاتها كعلاقة الطبّ بالصّيدلة مثلا أو النّجارة بالحدادة. وبذلك تقوم شريعة الإسلام على التّكامل وليس على التّنافي والتّضادّ والتّلاغي.

ومع سورة «المنافقون» عود آخر إلى الأفعى التي تعيش معنا وتكون للعدوّ عينا علينا. والمعادلة هنا مركّبة إذ أنّه لا يقتل المنافق ولكن يحذر منه أن يكون بطانة أو مكينا فيحفر في السّفينة ثقبا. ويعود مع سورة الصّف المدنيّة لتأكيد وحدة الصفّ الإسلاميّ الواحد على أساس التّنوع والتّعدّد والإختلاف. وهو الإبتلاء الأعظم الذي إبتلينا فيه، فإمّا أن نحيا مختلفين

ومتكافلين في الآن نفسه، وإلاّ فإنّ العدوّ رابض على التّخوم يرصد الفرصة على أحرّ من جمر اللّظى.

وعود إلى الجذر التعبّدي الأعظم أي الصّلاة وصلاة الجمعة بصفة خاصّة ليخصّص لها سورة مدنيّة كاملة هي سورة الجمعة، فهي محطّة لقاء تتجدّد فيها لحمات التّآخي ومواطن التّعاون ومواضع التّعارف، وتناقش فيها القضايا التي طحنت الأسبوع المنصرم. ثمّ عود إلى القضيّة الأمّ في هذا الكتاب أي الأسرة والمرأة وذلك بسورتي الطّلاق والتّحريم المتعاقبتين.

ولحكمة أخرى بليغة تأبى سورة الطّلاق إلاّ أن يتمحّض نصفها الأخير لمعالجة قرية عتت عن أمر ربّها. أيّ علاقة بين الطّلاق وبين هذه القرية؟ هذا موضع فقه لمن يريد فقهها. وبمثل ذلك التّحريم بوجه ما. ثمّ يستعدّ التّنزيل لإكمال مسيرته في ترتيبه النّهائيّ لتكون كلّ السّور القادمة مكّيّة من جهة ومن آخر المفصّل بتعبير الحفّاظ وبداية القصار إلاّ سورا مدنيّة قليلة، منها سورة البيّنة التي تعود إلى قضيّة الكفر بوجهيه البارزين في تلك الأيام، أي الشرك والإنتماء الكتابيّ، وسورة النّصر وشيئا من ذلك القبيل قليل.

يعسر عليّ نحت خلاصة لهذا الإستقراء الموضوعيّ الجامع. ولكن عليّ أن أقول أنّ البداية كانت مع سورة قصيرة سريعة الفهم ومتمحّضة لقضية واحدة وسريعة الحفظ كذلك تناسبا مع حال النّاس، وهي واقعيّة التّشريع الإسلاميّ العظيم وعدم تشتيت إهتماماتهم ليكون الموضوع الأسّ الرّئيس الأعظم هو : من هو اللّه؟ وَلِمَ يكون هو وحده جديرا بالعبادة؟ وحشدت لذلك السّور المكّية المتعاقبة عشرات طويلة الإحالات إلى التّاريخ

والكون والنّفس والبرهان العقليّ في بعض الأحيان بصرامة «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ؟»[97]. فلمّا تحرّر النّاس في المدينة وتخلّصوا من ضغوط قريش، بدأت التّشريعات بالتّنزّل، وبدأت معها المؤامرات سرّا وعلنا بالإحتباك. فكان التّشريع يثبّت النّاس على الإعتقاد الصّحيح والعبادة الصّحيحة، ويعلّمهم بناء الأسرة على أسّ صحيحة وإعادة المرأة إلى مكانها الصّحيح، وبث القيم الصّحيحة من دون حرمان النّاس من الإستمتاع بالطيّبات. وبيّنت لهم تشريعات عامّة في سياسة الدّولة والآخر والمرجعيّة الدّستوريّة العظمى أي أولويّة القرآن ثمّ السّنّة ثمّ الإجتهاد الحرّ، وقيما أخرى كبرى من مثل وحدة الأمّة وحقّ التّنوع وحيويّة العلم والمعرفة. وكانت الأولويّة للأخطار القريبة أي الوجود الإسرائيليّ وخاصّة المتبرّج منه والمشرئب دوما إلى إسترقاق النّاس، أي الوجه اليهوديّ والخطر النّصرانيّ وخاصّة في جانبه العقديّ. إذ أنّ آلافا مؤلّفة من العرب تنصّروا قبل البعثة منهم قبيلة نجران الكبرى والتي نزلت سورة آل عمران تعالجها.

كما كان التحذير من خطر النفاق هو الأكبر والأعلى، وإستنباط العبر اللاّزمة من الواقعات الحربيّة التي كانت فيها الأمّة دوما تدافع عن نفسها لا تبغي إكراها لغيرها على أيّ شيء مطلقا، إذ كانت دوما ضحيّة السّيف وليست ناشرة لدينها بالسّيف. ومن ذا بيّن التّشريع قضيّة الجهاد الذي ساد فيه لغط كبير ليكون جهادا بالفكرة أوّلا «وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا»[98] وليكون التّحصّن بالقوّة بكلّ أشكالها منعة للأمّة في عالم يعجّ بالذّئاب والثّعالب ومبناه التّدافع. فإذا حصل العدوان أو شمّت رائحته جاء الجهاد

[97] سورة الطور – الآية 35

[98] سورة الفرقان – الآية 52

مقاومة حقّ جهاد لا عدوان فيه.كما توسّل التّشريع إلى كلّ ذلك بالقصّة التي إكتنزت أثمن ما فيه من قيم وتشريعات، وإحتضنت أخلص ما فيه من لآلي منيرة.

تلك خلاصة لا توفّي هذا القرآن الكريم حقّه قراءة في فلسفة ترتيبه النّهائيّ الأخير، لكنّه مغدق مورق خصيب ثرّ سخيّ النّظم، سحيّ التّركيب، لا يحيط به محيط، ويأتي يوم القيامة بكرا.

أمّ الخلاصة هنا هي أنّ القرآن الكريم يقدّم بتواز وليس بتناف الأولويّات التّكافليّة التّضامنيّة الجماعيّة على غيرها الفرديّة. أمّ الخلاصة هي أنّ القرآن الكريم ترتّب على ذلك النّحو النّهائيّ ليفقه المسلمون بتكافل أنّ الأولويات هي: الإعتقاد والعبادة والأسرة والتيقّظ للخطر الخارجي بصفة عامّة ومنه قطعا مقطوعا النّفاق والوجود الصّهيونيّ والوجود الصّليبيّ، ودراسة التّاريخ وخاصّة النّبويّ منه وبوجه أخصّ السّيرة النّبويّة المبسوطة في القرآن الكريم بسبب أنّ التّاريخ مرآة عاكسة ومصباح هاد. وأنّ المال مشكلة تفرّق النّاس، وأنّ السّلطة مثله مشكلة تفرّق النّاس. وعليهم معالجة ذلك بالمنهاج الإسلاميّ. وأنّ مرجع كلّ ذلك ومعتمده وموئله ومربطه هو : من هو اللّه؟ ذلك هو نظري بإختصار شديد في فلسفة التّرتيب النّهائيّ للكتاب العزيز. ولكم أسعد لو قرأت أو سمعت رأيا غيره، إذ لا أزعم لهذا صوابا لا يراجع. والله أعلم

المحور الثالث
السّبع المثاني : عاصمة البيان

تأسيس الفكرة

يقوم هذا الكتاب على فكرتين : أوّلهما أنّ الكتاب العزيز يتجدّد فهمه وبيانه وتفسيره وفق أسس منها أنّ المجمع عليه منه لا يتجدّد إلاّ بمعنى تعميق الإيمان به وبسط مقاصده ومنافعه ومصالحه وخاصّة في هذه الدّنيا، ونشدان ما فيه من لآلي لا يحيط بها محيط، وما عدا ذلك فهو مؤهّل للتّجدّد وقابل للإجتهاد فيه. وهو صنو ما قاله سبحانه في المحكمات والمتشابهات. فالمحكمات من عقائد وقيم وعبادات وغير ذلك لا تتجدّد في أصولها ولكن ينالها نصيبها من التّجديد ببعض المعاني المذكورة آنفا وغيرها. ولكنّ المتشابهات وهي الأكثر كمّية والمعبّر عنها في مواضع أخرى بالظنّيات وغير ذلك فهي موضوعة لذلك بالأصالة.

وعن هذه الفكرة تتفرّع فكرة أخرى وهي أنّ حسن فقه هذا الكتاب العزيز وسلامة فهمه وفاء لرسالته ومنهجه يقتضي بالضّرورة وضع منهج قيّم يحتضن ذلك. وهي المقدّمات التي أنف ذكرها في المحور السّابق. فهي مثل المدخل الرّئيس الذي يفضي بسلاسة وسلامة وترحيب إلى عمق الكتاب. ولكلّ شيء مقدماته ومنهجه وبابه الرّئيس، ومن ذلك أن يكون الفقه الجديد مؤسّسا على تكامل التّفسير الموضعيّ القديم مع التّفسير

الموضوعيّ الجديد بحسب ما أنف شرحه، أي تفسيرا موضوعيّا على مستوى السّورة وتفسيرا موضوعيّا على مستوى القضيّة. وهذا دونه في الحقيقة مكتب بحوث ودراسات مجهّز بعشرات الباحثين والدّارسين ومتفرّغين لذلك وفسحة من الزّمن وغير ذلك من حوارات. ولكن دون هذه الوسيلة المثلى ما يعرفه الباحثون والدّارسون من عقبات وليس لي الآن فيها أرب.

تلك هي الفكرة الأولى التي أسّس عليها هذا الكتاب. أي بيان موضوعيّ مقاصديّ جامع ومعاصر للكتاب العزيز وفق مقدّمات معروفة ومؤسّسات معلومة .

الفكرة الثّانية التي يقوم عليها هذا الكتاب هي أنّ سورة الفاتحة هي عاصمة ذلك البيان وقاعدة ذلك التّفسير. هذه الفكرة الثّانية يتمحّض لها هذا المحور بالكليّة إن شاء اللّه.

مقوّمات الفكرة

المقوّم الأوّل: السّبع المثاني غير القرآن الكريم

ما هو المقصود بقوله سبحانه «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ »[99]. أمّا السّبع المثاني فلقد كادت تجمع الأمّة أنّها سورة الفاتحة. ولكن لا مناص من الإختلاف هنا على عادة النّظم القرآنيّ الذي يميّز دوما بين محكم لا مناص من حسن فقهه وحسن التّكافل عليه ومتشابه لا مناص فيه من الإختلاف. ولنا لهذا عودة إن شاء اللّه تعالى.

المشكلة هنا هي في حرف (و) . ورغم الإختلاف في تأويله، فإنّ الأرجح أنه(واو) المغايرة، وذلك على معنى أنّه أوتي ﷺ من عند ربّه سبحانه قرآنا واحدا مركّبا من جزءين هما : السّبع المثاني وهي فاتحة الكتاب والقرآن الكريم، أي ما عداها من سورة البقرة حتّى سورة النّاس. الرّاجح عندي هنا هو أنّ تخصيص سورة الفاتحة بمركب تستقلّ به يشي بقيمتها وعظمتها، ويوحي بأنّها هي عاصمة الكتاب وقاعدة محكماته العظمى

---

[99] سورة الحجر - الآية 87

ومفتاحه الأوّلي. فاتحة الكتاب عندي هي بالتّمام والكمال بمثابة ما يعمد إليه الكتّاب من قديم وحديث، أي عندما يقدّمون لما يكتبون بما أسماه المتأخرون (فهرس) أو (فهرست)، وذلك ليحققنوا تلك الخلاصة المكينة المنيعة الجامعة بعصارة الفكرة التي يريدون بسطها في الكتاب.

فاتحة الكتاب عندي هي خلاصة القرآن الكريم كلّه وفاتحته بمعنى الفكرة وليس بمعنى التّقدّم المنهجيّ الإخراجيّ التّرتيبيّ فحسب. وسنرى ذلك فيما يلي إن شاء اللّه. وبذلك يستقرّ المعنى عندي أنّ تخصيص سورة الفاتحة بأنّها مركب من مركبيّ الكتاب كلّه إلى جانب القرآن الكريم نفسه هو لبيان مركزها ومكانتها ومنزلتها من الكتاب كلّه. هو ضرب من التّخصيص في لسان العرب. كمن يقول : جئت إليك بولدي وثمرة فؤادي. الولد هو ثمرة الفؤاد، ولكن أراد القائل أنّ الولد الذي جاء به هو ثمرة الفؤاد وليس هو ولد فحسب. هو كذلك ضرب من البدل المعنويّ، وبذلك تكون الفاتحة كأنها بدل عن الكتاب كلّه. فهي ليست مختلفة عنه أو مغايرة له مغايرة مستقلّة. هو إستقلال وظيفيّ، وظيفته التركيز والتكثيف.

فاتحة الكتاب عندي هي مثل عاصمة أيّ بلاد متركّبة من مدن وقرى. العاصمة هي أمّ تلك البلاد فيها تتجمّع المصالح والمنافع والسّلطات. الفاتحة من القرآن الكريم هي بمنزلة القلب من الجسد، أو الصّلاة من العبادة، أو التوحيد من العقيدة. وليس كثيرا على هذا الكتاب العزيز أنّه يعمد إلى تكثيف رسالته الكلّية الإجماليّة في خلاصة أوليّة قصيرة، تيسّر على النّاس فهم الرّسالة العامّة من خلال تلك السّورة. بل إنّ ذلك هو المنهاج الذي سلكه الكتاب كلّه، إذ هو ينقبض هنا وينبسط هناك، ويجمل هنالك ويفصّل في موضع لاحق.

المقوّم الثاني: لم لا نقرأ غيرها في الصّلاة

لا صلاة لمن لم يقرأ فاتحة الكتاب، كما أخبر عن ذلك الصّادق المصدوق ﷺ. السؤال هو : لم لا نقرأ بسواها؟ إذ هي ليست أوّل ما نزل، ولا آخر ما نزل، ولا هي أقصر سورة لمن يتذرّع باليسر، ولا هي أطول سورة، ولا هي أوسط سورة. هناك سرّ يجعلنا نقرأ بها قصرا لصحة الصّلاة. وغنيّ عن القول أنه لا دين بلا صلاة. ولا عبادة بلا صلاة. ومن يتحدث عن الصّلاة يتحدّث عن عماد الدّين وأمّه. وهي الشّعيرة التي تغشانا كلّ أربع ساعات ونيف على مدار الحياة. ولا مناص من قراءة هذه السّورة في كلّ ركعة. ومن ذا فإنّنا نقرأ هذه السّورة في اليوم واللّيلة سبع عشرة مرّة من دون إحتساب سنن الفجر والشّفع والوتر وسنن أخرى من مثل تحيّة المسجد لمن يصلّي في المسجد أو صلاة الضّحى أو مختلف النّوافل الأخرى المعروفة. وبذا ينام المسلم كلّ ليلة وقد قرأ هذه السّورة بما معدّله مرّة واحدة عن كلّ ساعة من حياته، بل أزيد من ذلك بكثير.

من يكون محافظا على صلاته في حدّها الأدنى المكتوب، فإنّ لسانه يكون أكثر قراءة لهذه السّورة من غيرها من كلّ كلام حتّى لو كان يشتغل محاميا يرافع عن المتّهمين. لا نشعر بذلك لأنّنا تعوّدنا عليه. ومن نكد النّكد أن تحوّلت العبادات فينا إلى عادات، فلا نعي معانيها ولا قيمها ولا نتمثّل أبعادها.

لو كان المقصود هو التّيسير في القراءة على النّاس وفيهم الأمّيّ وغيره لكانت سورة الكوثر أولى منها. ولو كان المعنى هو توحيد اللّه فحسب أن يسكن الفؤاد من كثرة التّرديد لكانت سورة الإخلاص أولى منها لأنّها أقصر

ولأنّها سورة التّوحيد العظمى. هناك في الأمر إذن سرّ علينا إلتقاطه. هو إجتهاد قد يصيب وقد يخطئ، و المخطئ هنا مأجور. إذا كان ذلك كذلك فإنّ الرّاجح عندي هو أنّ اللّه سبحانه يريد لنا من خلال ترديدنا لهذه السّورة التّشبّع مليّا بمعانيها وقيمها ومقاصدها. وهي ما سنتفرّغ إليه بعد قليل في هذا المحور إن شاء اللّه تعالى.

عندما يأمرك الله سبحانه بترديد كلام بهذه الوتيرة التي تغذّ السّير غذّا عجيبا، فإنّه يريد أن يجعل من قيم ذلك الكلام وأبعاده ومعانيه مصنعا لفؤادك. فإن كان ذلك غير كذلك فهو عبث معبوث. بل إنّ التّشديد وارد فيها، فلا صلاة بدون فاتحة. الوحيد الذي أجاز ذلك لمن لا يجيدها حتّى يتعلّمها هو أبو حنيفة، وهي رخصة. ولكنّ الأصل الذي تشدّد فيه الإسلام هو أنّه لا صلاة بلا فاتحة الكتاب، فهي ركن الصّلاة، بل هي الرّكن الذي لا بديل له. إذ يستبدل القيام بالقعود للعاجز ويستبدل التّطهّر بالماء بالتّراب والصّعيد. ويستبدل الجهر بالسّرّ ويستبدل إستقبال القبلة لغيرها ويستبدل كلّ شيء تقريبا من حركات وهيئات بحسب الضّرورات. ولكن لا تستبدل الفاتحة بأيّ كلام آخر أبدا مطلقا. لا أظنّ أن ذلك التّشديد لا يراد منه شيء مقصود.

المقوّم الثالث: تصدّر الترتيب

هذا مقوّم معروف لا يحتاج إلى إنشاء. ذلك أنّه لا خلاف عليه أنّ جبريل عليه السّلام هو الذي أمر محمدا ﷺ بوضع هذه السّورة في صدارة التّرتيب النّهائيّ الأخير تمهيدا لإكتمال الوحي. ليست هي أوّل السّور نزولا حتّى

تتصدّر المصحف الشّريف، ولا هي آخر القرآن الكريم نزولا، ولا هي من جنس الطّوال السّبع التي تصدّرت ذلك التّرتيب النّهائيّ. حتّى النّظم الوارد في الفاتحة غير الوارد في ما جاء بعدها. فلا شيء يبرّر تصدّرها الكتاب العزيز، عدا أنّ هناك سرّا آخر علينا البحث عنه وتفسيره لأنّ الأمر ملفت للنّظر، واللّه يحبّ النّاظرين والسّائلين.

المقوّم الرابع: السبع المثاني أمّ القرآن

أمّ الكتاب هو اللّوح المحفوظ لقوله سبحانه «يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندهُ أُمُّ الْكِتَابِ»[100]. وقد يختلف اللّوح المحفوظ عن أمّ الكتاب. ولكن كلّ ذلك في عالم الغيب عنّا. أمّ الكتاب هي مصدره الذي هو عند اللّه سبحانه، أمّا أمّ القرآن الكريم فقد جاءت بها الأحاديث الصّحيحة أنّها السّبع المثاني، أي سورة الفاتحة، وذلك في قوله ﷺ: «أمّ القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم»[101]. وصيغة الحديث مثل صيغة الآية ـ آية الحجر التي مرّت معنا قبل قليل ـ أي أنّ الحديث يؤكّد أنّ سورة الفاتحة هي السّبع المثاني من ناحية وأنّ السّبع المثاني هي خلاصة القرآن العظيم كلّه. وكما مرّ بنا قبل قليل فكأنّ الصيغة بدلية، أو هو بدل معنويّ. أي أنّ قوله في القرآن وفي الحديث معا أنّ السّبع المثاني ـ التي هي سورة الفاتحة ـ هي القرآن العظيم يدلّ على أنّها تكثّف ما جاء به القرآن الكريم كلّه

---

[100] سورة الرعد - الآية 39

[101] رواه البخاري عن أبي هريرة

فيها. فهي خلاصته وهي مفتاحه، وهي فهرسته، وهي عصارته، وهي مقدمته التي جمعت كلّ ما فيه. وهو الأمر الذي سيتمحّض له هذا الكتاب في هذا المحور إن شاء اللّه.

كما نجد حديثا آخر لرسول اللّه ﷺ :«أمّ القرآن عوض عن غيرها وليس لغيرها منها بعوض»[102]. حمل بعضهم هذا على أنّها عوض عن غيرها من القرآن الكريم فيما يتّصل بالقراءة في الصّلاة. وهذا لا خلاف عليه. ولكن أرى أنّها عوض عن غيرها أي من القرآن الكريم كلّه بمعنى أنّها تعوّض كلّ ما حوى، ففيها كلّ ما حواه وما توسّع فيه. هي الخلاصة وهي الكنز الدّفين الذي يكثّف كلّ ذلك ويحفظه في مثاني سبعة. والحقيقة أنّ أحاديث أخرى كثيرة تصف فاتحة الكتاب بأنّها السّبع المثاني وخاصّة الأحاديث التي تأمر بقراءتها في كلّ صلاة، وأنّ أيّ صلاة دونها هي خداج وغير ذلك. فكونها إذن هي السّبع المثاني وكونها أمّ القرآن الكريم ـ وليس أمّ الكتاب ـ وكونها عوض عن غيرها بكلّ المعاني من حيث قراءتها ومن حيث تكثيف المعاني وصهرها وتخزينها، كلّ ذلك أمر لا خلاف عليه.

---

[102] أخرجه الدارقطني والحاكم والبيهقي عن عبادة إبن الصامت

خلاصة الفكرة من زاوية أصولية

تأسيسا على ما تقدّم وعلى تحليل للسّبع المثاني (سورة الفاتحة) يأتي في الإبّان من هذا الكتاب إن شاء اللّه، فإني أخلص إلى أنّ منزلة سورة الفاتحة من القرآن الكريم بنظرة أصوليّة هي منزلة النصّ المجمل العامّ المطلق من نصوص أخرى تليه، يفصّله بعضها أو يقيّده ويخصّصه بيانا وشرحا. وهو منهج النّظم القرآنيّ القائم على ذلك.

منزلة سورة الفاتحة من القرآن العظيم هي منزلة الدّليل العامّ الكليّ الأعظم من أدلة جزئيّة أو خاصّة. لذلك أمرنا بأن نردّدها بوعي وتدبّر وليس كما نفعل بمعدل مرّة واحدة كلّ ساعة على مدار الحياة. ولذلك لا روح للوجبة الرّوحيّة التي بها نتزكّى مرّة واحدة كلّ أربع ساعات ونيف تقريبا على مدار الحياة إلاّ بتلك السّبع المثاني. إذ لا صلاة بغيرها، وإلاّ فهي خداج كما جاء في الحديث.

وعندما تلتقي النّظرة الأصوليّة مع النّظرة الأدبيّة النّظميّة في تقديم الخلاصة الجامعة المانعة لهذا الكتاب العزيز تقديم إيثار وتعظيم وتكبير وتيسير، فإنّي أكون أكثر إطمئنانا إلى أنّ السّبع المثاني هي عاصمة التّفسير لأيّ تفسير موضوعيّ مقاصديّ جامع ومعاصر ولأيّ بيان مثل ذلك.

تلك هي قاعدة هذه المقدّمة. وتلك هي عاصمتها. وتلك هي فكرتها الأساسيّة العظمى. قوامها أنّ أيّ قراءة موضوعيّة جامعة للقرآن الكريم لا مناص لها من الإعتصام بالسبع المثاني التي تجمل ما فصّله القرآن الكريم وتعمّم ما خصّصه وتطلق ما قيّده وتجمع كلّ ما فيه في باقة ورديّة جميلة يسيرة هي عمدة الكتاب كلّه وهي عاصمته كلّها. وهي قاعدته كلّها. وهي المدخل إليه. وهي فهرسته. وهي جماعه، فمن وعاها فقد تيسّر له وعي ما يأتي بعدها ومن لم يعيها لا حظّ له في وعي ما يليها.

تحليل للسّبع المثاني

السّبع المثاني بين المبنى والمعنى

كعادة المفسّرين إلاّ قليلا توسّع بهم هذا الحوار بما جعل القارئ يتوه في صفحات طويلة. فلا يظفر في آخر المطاف بما يشفي الغليل. فمن منتصر إلى أنّ البسملة هي آية من الفاتحة إلى ناف لذلك. وهذا أمر لا يجوز الإختلاف فيه. لأنّه لو جاز الإختلاف فيه لكان المسلمون الذين لا يقرؤون البسملة في الصّلاة ـ أو حتّى في غيرها سيّما من بعد الإستعاذة عملا بإجتهاد فقهيّ معتبر ـ في خطإ عظيم. وأيّ خطأ أعظم من أن يختلف في نسبة آية إلى سورة من عدم ذلك؟ لو كان الحوار يدور بينهم على أساس الإستحباب والنّدب وجزالة الثّواب وغير ذلك لهان الأمر. ولكن عندما يكون الإختلاف حول نسبة البسملة إلى الفاتحة بحسبانها آية منها، فإنّه ليس خلافا مرحّبا به ولا هو مقبول ولا معقول. لأنّ الكتاب العزيز محفوظ بإرادة إلهيّة عظمى قد نرى بعض مظاهرها وقد لا نرى بعضها الآخر. هذا أمر يشوّش تفكير النّاس ويخرج عن إطاره الفقهيّ. ولا ريب عندي أنّ كلّ ما يختلف فيه هنا وهو من المحكمات المحفوظات لا عبرة به.

يعني ذلك أنّ البسملة ليست آية من الفاتحة. ولو كانت كذلك لما اختلف حولها إختلافا شديدا. وأنّ الأولى أن يتّخذ الحوار له مسربا آخر هو الإستحباب أو النّدب أو التّخيير. ناهيك أنّ بعض المذاهب الفقهيّة المعتبرة تعتبر البسملة في الفاتحة في الصّلاة مكروهة. عندما يؤول بنا الحوار إلى هذا الحدّ فإنّ المسألة تكون إلى العبث أدنى. ويظلّ قدر النّاس جميعا محفوظا، والحديث عن الإجتهاد وليس عن أقدار النّاس.

الحوار في جزء مهمّ منه إنّما إنصرف إلى المباني والأشكال والرّسوم. وإنداح هناك مسهبا مطنبا. وتسكنني قناعة قوامها أنّ الإنسان الذي ما جعل له اللّه من قلبين في جوفه كلّما غالى في شيء قصّر في زوجه. وأكبر الزّوجين القمينين بالرّعاية توازنا وإعتدالا وتوسّطا منّا في دين عنوانه الوسطيّة والإعتدال والتّوزان هما : المبنى والمعنى.

أغلب الظنّ أنّ ما جعل بعضهم ينتصر إلى أنّ البسملة آية من آيات الفاتحة هو إسمها أي السّبع المثاني. إذ أنّه بنى تصوّره منذ البداية وبدون نظر واسع دائم على أنّ المثنى هي الآية. فإذا كان ذلك كذلك، فلا بدّ من القول بأنّ البسملة آية من آيات الفاتحة حتّى يحصل الإلتئام بين العدد المذكور هنا وهو سبع مثاني وبين حقيقة آياتها وهي كذلك سبع، وفي كل القراءات ورواياتها وبلا أيّ خلاف.

ولكن هل أنّ المثاني هي الآيات حقّا وفعلا؟ كلمة المثنى لم ترد في الكتاب العزيز عدا مرّتين وبصيغة الجمع. أوّلهما في سورة الحجر «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ»[103]. وثاني الموضعين قوله سبحانه في

---

[103] سورة الحجر - الآية 87

سورة الزمر «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ»[104].

المثاني جمع مثنى. والمثنى هو ما يثنى. وهو من الفعل المجرد النّاقص (ثنى ـ يثني ـ ثنيا) ومنه الفعل المزيد (ثنّى يثنّي ـ تثنية)، ويتحمّل هذا الفعل صيغا أخرى بسبب قيام اللّسان العربيّ على شريعتي الإشتقاق اللّفظيّ والتّوليد المعنويّ. ومنه فعل (أثنى ـ يثني ـ إثناء) .

كلمة القرآن الواردة مرّتين (مثاني وهي جمع مثنى) من فعل (ثنى) المجرّد والفعل المزيد معا (ثنّى) وكلاهما يعني الجبر والتّمتين والزّيادة والإعادة والتّزويج وغير ذلك من المباني التي ترتدّ بالكليّة مع وجود التّمايز إلى حقل دلاليّ واحد عنوانه التّأكيد لأجل بلوغ الجمال مبنى والصّحة متنا والتّزويج تناغما.

وبسبب أنّ كلّ مشتقات الجذر الواحد في اللّسان العربيّ لا بدّ آيلة إلى ذلك الحقل الدلاليّ الواحد حتّى مع وجود التّمايز والتّنوع، فإنّ معاني الثّني والتّثنية تنكح بمعاني الثّناء والإثناء. ومن ذا يتحصّل لدينا المعنى الكلّي للمثنى. وهو المتركّب من قيم الجمال بسبب تناظم آي القرآن الكريم على نسق موسيقيّ واحد في السّياق الواحد أو السّورة الواحدة. ومن قيم الجبر والتّزويج والتّأكيد والتّشديد، بسبب أنّ تلك الآيات تشيّد أفكارا صحيحة غير قابلة للإنهيار أو الإندحار. ومن قيم الثّناء عليها والإثناء بها من لدن الملائكة والعابدين من النّاس ومن أهل العقل واللّبّ والحلم.

---

[104] سورة الزمر – الآية 23

كلّ تلك الأبعاد وكلّ تلك القيم تحتملها كلمة (مثاني) الواردة مرّتين في القرآن الكريم. ولك أن تلاحظ منذ البدء أنّها تعني الزّوجيّة، وقد وردت هي نفسها زوجيّة. المثنى (مفرد المثاني) لا تعني بالضّرورة الآية أو لا تعني الآية فحسب. الآية وحدها بوجه ما لا تسمّى مثنى. فإذا ثنيت سمّيت مثنى. وهي مثناة تثنية بناء. إذ تكرّرت كثير من الآيات في الكتاب العزيز. وتثنية معنى لأنّها محكمة ومتشابهة في الآن ذاته. والقول بأنّها سمّيت مثنى بسبب تثنيتها من لدن القارئ قول صحيح. والأصحّ منه من جهة المعنى هو أنّ الآيات القرآنيّة الكريمة مثاني بسبب ذلك من حيث المبنى وبسبب تثنية معانيها.

وأبدئ وأعيد أنّ ما جعل بعضهم يقصر معنى التّثنية هنا على الآية لأجل أن يلتئم معنى العدد السّباعيّ مع عدد آيات الفاتحة السّبع هو تحكّم سببه الإنطلاق من تصوّر قاصر قوامه أنّ المثنى هي الآية فحسب. ولا شأن لها بما يمكن أن ينبجس عن ذلك من معان أخرى وقيم أخرى. وأنّ أمّ القصور في ذلك هو الإنشغال بالمبنى في الأعمّ الأغلب على حساب المعنى. وكلاهما في القرآن الكريم مقصود عدا أنّ المبنى خادم للمعنى

قيمة التشابه في المثاني

إذا كان القرآن الكريم يفسّر بعضه بعضا ويبيّن بعضه بعضا بسبب الوعد الإلهي أنّه يبين هذ القرآن « ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ»[105] فإنّ خير من يجلّي لنا معنى (المثاني) في سورة الحجر هو معناها الوارد في سورة الزّمر وكلاهما مكّيّ. هذا المفتاح في حسن فهم الكتاب العزيز عندي لم يعد نظريّا. إنّما جرّبته مرّات.

كلمة مثاني في سورة الزّمر هي بدل ثان عن المبدل منه وهو قوله سبحانه « أَحْسَنَ الْحَدِيثِ» بما يعني أنّ أحسن الحديث في الحياة هو ما أنزل اللّه سبحانه. من جماليّات أحسن الحديث المرسوم في أمّ الكتاب أنّه متشابه وأنّه مثاني. ومن هنا نعلم أنّ تلك المثاني متشابهات، والتّشابه يضمّ إليه المباني المتشابهة. هذا معلوم لمن يقرأ الكتاب العزيز إذ تتكرّر الآيات بنسبة عالية وفي أغلب الأحيان بصيغ مختلفة بحسب السّياقات، وفي أحيان أخرى أدنى من ذلك بكثير تتكرّر بلحمها ودمها. ذلك هو التّشابه البنيويّ الماديّ. ولكنّ تلك المثاني تتشابه في معانيها كذلك، إذ يعالج القرآن الكريم عددا من القضايا بمباني مختلفة في الصّياغات والتّعبيرات، ولكنّها تلتقي عند جذر واحد أو جذع واحد. ذلك هو التّشابه المعنويّ، وبذلك كان القرآن الكريم في الآن ذاته متشابها تشابها بنيويّا ومعنويّا معا ومحكما إحكاما بنيويّا يجعله غير قابل للتّزييف والتّحريف فهو محفوظ. وإحكاما

---

[105] سورة القيامة – الآية 19

معنويا يجعل متشابهاته تؤول إلى محكماته عندما تندلق أفهام النّاس أو يقع التّنازع بينهم.

المثاني هي إذن البنى التي تتكرّر نغما جميلا، وهي التي يؤكّد بعضها بعضا، وهي التي تكون متشابهة بنيويا ومعنويا معا، وهي التي تضفي مسحات الحسن على ذلك الكتاب المنزّل. ومن ذا فإنّ قصر المثاني على الآية الواحدة فحسب لا يستقيم وما لا يستقيم مثله قصر المثاني السّبع في سورة الفاتحة على عدد آياتها. وهو الأمر الذي آل ببعضهم إلى التّحكّم قولا أنّ البسملة آية من الفاتحة، إذ أنّ القول بغير ذلك يجعل البناء الإفتراضي منهم منهارا بالكليّة. ومن ذا فإنّه لا مناص من تأويل السّبع المثاني في السّبع المثاني (فاتحة الكتاب) تأويلا يتّسع للمبنى والمعنى معا.

تأويل ذلك على أساس المبنى يجعل الأداء منضبطا لنغم موسيقي واحد تختلف في بعض المعاقد نهاياته، ولكن ذلك لا يلغي جمال الأداء المثنّى «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» ـ «الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ» ـ «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» ـ «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»» ـ «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» ـ «صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ» ـ «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ». تلك مثاني سبعة إنسجاما مع المعنى البنيويّ لكلمة مثاني. مثاني سبعة لأنّنا نردّدها كما لا نردّد أيّ كلام آخر كما مرّ بنا لمن يقيم الصّلاة وهو عليها من المحافظين والدّائمين. مثاني سبعة لأنّها تزيّن صوت التّالي وتجمّل أداءه بما يجعله في متعة ومن خلفه أو يستمع إليه. وذلك بسبب فاصلاتها الموسيقيّة العذبة. وهي مثاني سبعة كذلك من حيث المعنى بسبب أنّ ما حوته تلك المثاني من قيم ومحكمات قطعيّات راسخات ثابتات ومعاني وتصوّرات يتكرّر في

القرآن الكريم كلّه ليفصّل حينا ويقيّد حينا ويخصّص حينا ويتوسّع حينا وينقبض حينا.

ويظلّ التسبيع في الشّريعة الإسلاميّة أي إعتماد العدد (7) مقصودا لعلّة قد نفقهها وقد لا نصل إلى فقهها. من معاني التّسبيع أنّ الأمر الذي تقترفة سبع مرّات وخاصّة بالتّعاقب من شأنه الرّسوخ والتّمكين فيك. وهو عدد وتريّ على عادة الشّريعة في التّمكين للقيمة الوتريّة ليكون اللّه سبحانه في النّفوس وترا يصرم عقائد الشّرك تثنية وتثليثا وغيرها. ومؤكّد أنّ هناك أسرارا أخرى لذلك التّسبيع الذي جرت عليه الشّريعة. ولا مناص من وجود ذلك حتّى لا يستوي الإله سبحانه في علمه بعبده، وإلاّ إنهدم ركن ركين من قيمة الإلهيّة والعبوديّة. والله أعلم

عواصم البيان العظمى

العاصمة الأولى : من هو اللّه؟

يقرأ الإنسان أوّل ما يقرأ وهو يفتح رسالة ربّه إليه قوله سبحانه «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ». وذلك هو معنى قوله سبحانه في الحديث القدسيّ «قسمت الصّلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل»[106]. سمّيت السّبع المثاني (سورة الفاتحة) من اللّه سبحانه نفسه في الحديث القدسي الصّحيح أنّها سورة الصّلاة. وفي ذلك إشارة أخرى ـ بل دليل ـ أنّ منزلة هذه السّورة من القرآن الكريم كلّه كمنزلة الصّلاة من الدّين والعبادة. إذ أنّ وظيفة الصّلاة في الحياة وظيفة النّور لقولهﷺ « والصّلاة نور»[107]. وبمثل ذلك فإنّ وظيفة السّبع المثاني من القرآن الكريم هي وظيفة النّور الذي يضخّ الضّوء الكافي الذي يجعل

---

[106] رواه مسلم وأصحاب السنن الأربعة عن أبي هريرة

[107] رواه مسلم عن الحارث إبن عاصم

الإنسان يحسن فقه ذلك القرآن الكريم بقدر فقهه لرسالة السّبع المثاني. رسالة القرآن الكريم كلّها تقريبا هي تعريف الإنسان بربّه الحقّ سبحانه، أي معالجة هذا السّؤال الأكبر الأعظم بشتى السّبل : من هو اللّه؟ وما ذلك سوى لأنّ الإنسان يحسن عبادة ربّه بقدر ما يعرفه. وليس الأمر مقصورا على اللّه سبحانه، بل إنّ الشّرط الأوّل لحبّ أيّ شيء هو معرفته. اللّه سبحانه لا يؤمن به إيمانا صحيحا عدا من يحّبه ويخشاه في الآن نفسه.

ومن جانب آخر فإنّ لزوم الشّريعة ـ وفيها ما لا تشتهيه الأنفس ـ لا يكون إلاّ من بعد معرفة المعبود المطاع معرفة صحيحة. المعرفة الصّحيحة تورث الحبّ. ولذلك تمحّض هذا الكتاب بالكلّية لمعالجة هذا السّؤال الأكبر الأخطر الأعظم : من هو اللّه؟ وهو السّؤال الذي بدأت به السّبع المثاني ليكون هنا مجملا مكثّفا مركّزا ملخّصا في كلمات قليلات. وذلك هو معنى أنّ السّبع المثاني هي خلاصة الكتاب كلّه.

1 – من هو اللّه؟ هو المحمود وحده دون سواه

أوّل فقرات هوية الله سبحانه ـ أي من هو ـ هي أنّه الوحيد الذي يؤول إليه الحمد أيلولة كاملة تامّة جامعة بغض النظر عمّن حمده أو جحده. ولذلك جاءت الجملة إسميه لا فعلية (الحمد لله). الله سبحانه لم يأمر عبده بحمده ولو مرّة واحدة في القرآن كلّه. عدا أنه أثنى على الحامدين في بعض المواضع. ولكنّه أمر بالشكر «أن اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ»[108]. ولذلك عرّف نفسه سبحانه لأوّل وهلة وبدء بأوّل كلمة بأنّه هو المحمود إخبارا

---

[108] سورة لقمان – الآية 14

وليس أمرا. ومن ذا نقول أنّه هو المستغني سبحانه عن حمد الحامدين إذا حمدوا، وهو بمثل ذلك عن جحد الجاحدين إذا جحدوا. الحمد غير الشّكر وغير الثناء.

من المناهج التي أقفو أثرها في فهمي اللّسان العربيّ المنهج الصّوتيّ. أي تتبّع أثر الصّوت الحرفي في الكلمة وموضعه وغير ذلك أوّلا وقبل الرّجوع إلى المناجد وما حبره أهل اللّغة. وبسبب ذلك فإنّ الحمد أفهمه عمقا بعمق الحاء الحلقيّة. ليكون الحمد بادئ ذي بدء هو النّاشئ من أعماق الفؤاد نشوء حرفه الأوّل المكوّن له من أعماق الحلق. كما أنّ الحمد جاء مستغرقا بالألف واللاّم. الحمد كلّه من مبتدئه أي حاء حلقيّة غائرة إلى خبره أي الميم الصّادرة من الشّفتين. وبذلك أفهم أنّ الحمد منهجا صوتيّا هو الأكثر وفاء وأمنا لرسم المعنى حركة شكر وثناء تنطلق من عاصمة الفؤاد وتحطّ في أرض الشّفتين. وبذلك تعبر المسافة بين حرف حلقي غائر هو الحاء وحرف شفهيّ خفيف ظاهريّ هو الميم. ولذلك قال ﷺ «الحمد لله تملأ الميزان»[109] وبذلك نكون مع بداية ثقيلة تعلّمنا أنّ اللّه الذي بدأ من هنا يعرّفنا بنفسه محمود ولا يستجدي منّا ولا من غيرنا حمدا.

2 – هو اللّه ربّ العالمين

نسب الحمد إستغراقا بجملة إسمية إخبارية إلى إسمه العلم سبحانه أي الله. ثمّ عرّف نفسه بأنه ربّ العالمين. ليقول لنا أنه محمود لأسباب. منها أنه هو وحده من يربّ العالمين خلقا ومؤنة ورعاية ورحمة كما يرّب أحدنا

---

[109] رواه مسلم عن أبي مالكٍ الحارث بن عاصمٍ الأشعري

ولده أو دابته أو كما تربّ ربة الدّار دارها أو ربّ العمل عمله. العالمون جمع عالم (بفتح اللاّم)، والعالم هو ما يعلمه الإنسان بأحد أسباب منافذ العلم فيه، أي السمع والبصر والفؤاد وغيرها. فالعالم هو ما يمكن علمه بالقوّة كما يقول الفلاسفة سواء على سبيل الشّهادة أو على سبيل الغيب تفصيلا أو إجمالا. ولكنّها عالمون لا يحصيها حاص ولا يحيط بها محيط. وكلّما تقدم علم البشر أدرك أنّ العالمين في الأرض والبحر والفضاء من الأجناس والأصناف ما يزيد المتدبّر حمدا للّه ربّ العالمين سبحانه. العالمون بإختصار شديد هو كلّ شيء وكلّ أمر عدا اللّه سبحانه، وهو إسم مركّب يخبر المرء أنّ كلّ تلك العالمين التي لا يحيط بها محيط ولا يحصيها حاص يربّها اللّه وحده سبحانه، وهو بذلك محمود. هو محمود من العالمين التي تعبده كرها حمدا لا نفقهه. هي دعوة إلى الإنسان أن يتفكّر في العالمين من حوله لينظر من يربّها. ومعلوم أنّ (ربّ العالمين) جاءت معطوفة على (الله) أي بدلا عنه.

3 - هو الرّحمان الرّحيم

إختار اللّه سبحانه أن يخبر عبده عنه بإسمي الرّحمة (الرّحمان الرّحيم) ليرسّخهما هنا ترسيخا يظلّ المؤمن يردّده مرّة واحدة كلّ أربع ساعات ونيف تقريبا على مدار الحياة، ومن ذا ييقن الإنسان أنّ ربّه الذي يعبده هو قبل كلّ شيء رحمان رحيم، فيمتلأ أملا فيه ورجاء في عفوه مهما بلغت ذنوبه عنان السّماء في حقّ ربّه وحقّ نفسه وحقّ النّاس جميعا. ذلك هو المقصود الأوّل من إختيار اللّه سبحانه لإسمي الرّحمة (الرّحمان الرّحيم). وهو يعرّف نفسه هنا في هذه الخلاصة المقتضبة الموجزة، ذاك

مقصد ما ينبغي للإنسان التلهّي عنه. ذلك أنّ للإنسان ذئبا بمثلما أنّ لنعجته ذئبا. ذئب الإنسان الأوحد ليس هو سوى الشّيطان الذي جعله اللّه سبحانه عدوّا للإنسان. فإمّا أن يشغله عن الإيمان. فإن عجز فإنّه يشوّش عليه إيمانه فيظنّ بربّه أنّه لفرط قهره وجبره وإنتقامه لا يغفر ولا يرحم ولا يرأف ولا يعفو. وذلك هو مبتغى ذئب الإنسان أي الشّيطان.

(الرّحمان) على وزن (فعلان)، وهي أعلى صيغ المبالغة من رحم يرحم رحما ورحمة. وهو الإسم الذي لا ينبغي لأحد تقمّصه حتّى لو كان في مكانة محمد ﷺ أو الخليل عليه السّلام أو الكليم عليه السّلام. بعض الأسماء خاصّة به هو منها المتكبّر مثلا. ولم يقصر تعريف نفسه أنّه الرّحمان فحسب بل قدّمها من جهة على (الرّحيم)، ثمّ أتى بصيغة مبالغة أخرى أي (الرّحيم على وزن فعيل). فمن ظنّ بربّه من بعد ذلك كلّه ـ أوزان مبالغة وتقديما وترتيبا ـ ظنّ السّوء، فلن يعامل إلاّ بمثل ظنّه ذاك. لم يرد إسم الفاعل المجرّد (راحم) ولو مرّة واحدة في الكتاب كلّه. وهو الأصل في الإشتقاق. كلّ ذلك لينحت الله عبده على أساس أنّ ربّه هو الرّحمان الرّحيم فلا ييأسنّ من رحمته يائس ولا يقنطنّ من فضله قانط. وردت صفة (الرّحمان) زهاء ستين مرّة. كما وردت صفة (الرّحيم) في المرتبة الثانية من بعد(العليم).بل تعدّدت أسماء الرّحمة لتكون في المرتبة الثّانية من حيث أسمائه الحسنى التي بثّت في الكتاب العزيز بالمئات دون إحتساب التّكرار.

أرأيت كيف أنّه يقصر هنا تعريفا بنفسه سبحانه على أبرز فقرات الهويّة ليفصّل فيها في القرآن العظيم؟ وحسب السّبع المثاني تكثيف ذلك وتلخيصه وتحرير كلّياته العظمى وعناوينه العظمى. عندما تبدأ القراءة

متدبّرا تدرك كيف يكون ربّا للعالمين وكيف هو سبحانه الرّحمان الرّحيم وغير ذلك مما قدّم هنا في السّبع المثاني.

لاحظ معي كذلك موقع (الرّحمان الرّحيم)، إذ أنّها توسّطت المشهد ليفقه الإنسان أنّ ربّه المحمود سبحانه هو الرّحمان الرّحيم، وهو ربّ العالمين أي في هذه الدّنيا. وهو نفسه الرّحمان الرّحيم وهو مالك يوم الدّين أي في الآخرة. ولا ينفي ذلك أن يكون هو نفسه سبحانه مالك الدّنيا وربّ العالمين في الآخرة. المقصود من ذلك أن يفقه المؤمن أنّ اللّه سبحانه هو الرّحمان الرّحيم ليس في هذه الدّنيا فحسب، ولكنه الرّحمان الرّحيم يوم القيامة كذلك.

ولك أن تلحظ معي كذلك أنّ (الرّحمان الرّحيم) وردتا إستغراقا. وأنّهما معطوفان كذلك على اللّه ربّ العالمين. أمّا ما هي الرّحمة وما هي مظاهرها فلا يعلم ذلك عدا من يقضي حياته كلّها تدبّرا في هذا القرآن العظيم وفي الكتاب المسطور أي الكون وفي الكتاب المأثور أي التاريخ. حسبك أنّ (الرّحمة) جذر لغوي يبعث الأمل والطمأنينة والسّكينة والأمل والرّجاء، وينبذ اليأس والقنوط وذلك هو المقصود الأوّل من هذا هنا.

4 – هو مالك يوم الدّين

هنا تقفل فقرات الهويّة الإلهيّة للّه سبحانه، أي أنّه مالك يوم الدّين. هو الملك في قراءة والمليك في رواية أخرى وهو المالك في رواية ثالثة. ذاك شأن إختلاف القراءات والرّوايات تتعدّد بعض بناها وعراها ليظلّ المعنى واحدا

آئلا إلى دوحة دلاليّة واحدة حتّى لو تنوّعت ظلالها وريح ثمراتها ولمراعاة إختلاف اللّهجات العربيّة في تلك الأيام.

أمّا الحديث عن يوم الدّين فنرجئه للعاصمة التّالية (ما هو يوم الدين). بحسبان ذلك عاصمة أخرى مستقلة إستقلالا وظيفيّا كما سنرى إن شاء اللّه. وصف نفسه سبحانه هنا بأنّه (ملك يوم الدين). ومعنى ذلك هو الإيحاء إلى عبده المؤمن أنّ الرّحمان الرّحيم هو من يملك يوم الدّين، أي يوم القيامة، فلا ييأسنّ ولا يقنطنّ. ومن يقنط من الرّحمان الرّحيم وهو الملك الذي لا يملك أحد معه شيئا يوم العرض الأكبر والحساب الأعظم؟

ولكن هذه الفقرة الثّالثة الأخيرة من فقرات الهويّة الإلهيّة توحي بشيء آخر ما ينبغي إغفاله وهو معنى تهديدي فحواه أنّ الإنسان عليه أن يعلم أنّه مبعوث من بعد الموت، وأنّ اللّه الذي لم يرع له في حياته الأولى مقاما محمودا هو من يملك ذلك اليوم. ومن يملك شيئا تصرّف فيه كما يشاء هو. هي إشارة إلى المشركين سيّما في تلك الأيام أنّ ما يعبدون من دون الله إبتغاء الشّفاعة أو التّقرّب إلى اللّه زلفى لا تغني عنهم شيئا.

(ربّ العالمين) تعني أنّه يحكم حكما قدريّا كما قيل سابقا وحكما شرعيّا. ومن يربّ يحكم. كما أنّ يوسف عليه السّلام قال للسّجين المسرّح «اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ»[110]. أي عند الحاكم الذي يحكم في أمرك بما يشاء. (مالك يوم الدين) تعني أنّ (ربّ العالمين) الذي خلق وحكم، وربّ العالمين هو من يحيي النّاس بعد موتهم ويحاسبهم، وأنّه هو من يملك زمام ذلك اليوم، فهو القاضي الأوحد الوحيد الذي لا معقّب لحكمه. وببّن أنّه (ربّ

[110] سورة يوسف - الآية 42

العالمين) وأنه (مالك يوم الدّين) فهو الرّحمان الرّحيم. ولذلك توسّطت لتبثّ أملها النّابذ لليأس هنا وهناك معا. أي ليكون مفعولها بالتّعبير المعاصر رجعيّا وفي القابل.

يوم الدّين هو يوم الحساب. من دان يدين دينا، أي حاسب الدّائن مدينه يوم الحساب المتّفق عليه. ومن ذا نعلم أنّ للّه ربّ العالمين الرّحمان الرّحيم على العبد دينا له أجل مسمّى ليوفّ كلّ ذي فضل فضله وكلّ ذي ذنب ذنبه. ذلك هو اللّه سبحانه في هويّته الجامعة المانعة وبكلّ تلخيص وتركيز وتحصيل وتخليص وتكثيف. وكلّ ما سيرد عنه من فعل أو صفة في القرآن الكريم كلّه هو فرع عن ذلك. أي عن كلّ إسم من تلك الأسماء الثّلاثة العظمى، إمّا ربوبيّة للعالمين أو رحمة تسع كلّ شيء أو ملكا ليوم الدّين. وهو قبل ذلك وبعده المحمود إستغراقا .

ذلك هو اللّه سبحانه بإختصار شديد مكثّف مركّز، وهي وظيفة السّبع المثاني. ورد ذلك إخبارا عن غيب لا يمكن لأيّ إنسان مهما أوتي من العلم أن يعلمه. أقول ذلك لأنّ ضمير المتكلّم سيتغيّر منذ الآن حتّى آخر السّبع المثاني. من فوائد هذا النّظم كذلك أنّ الإنسان المتحضّر الرّاقي المحسن عندما يريد أن يعرّف بنفسه أو بأيّ شيء عليه أن يتّبع هذا المنهج. أي يعرّف بالذي يريد التّعريف به بكلمات قصيرات موجزات تجمع بين الإقتضاب والكثافة. وأنّ ما يأتي بعدها من تفصيلات وتفريعات لا يكون إلاّ شارحا لها وليس كارّا عليها. ذلك هو معنى قوله الذي مرّ بنا في الحديث القدسيّ آنف الذّكر. أي أنّه سبحانه قسّم سورة الصّلاة بينه وبين عبده نصفين. وأنّ هذا هو النّصف الأوّل، أي من هو الله.

من هو اللّه : هو نصف سورة الصّلاة وشطر السّبع المثاني بحسب

الحديث القدسيّ الصّحيح. معنى ذلك هو أنّ الحياة والوجود والكون والعالمين فيها إله يربّ ويرحم، ويملك ناصية العبد يوم الدّين فهو سيّد الكون وواهب الحياة وصانع الكون. والإنسان سيّد في هذا الكون مستخلف فيه مستأمن عليه. بخلاف النّظرة الغربيّة التي تعدّ الإنسان سيّدا على الكون وليس سيّدا فيه. وكما ترى فإنّ الأسماء الثّلاثة الواردة في هويّة اللّه سبحانه كلّها معرّفة إمّا بالإضافة (ربّ العالمين ـ مالك يوم الدّين) أو بحرفي الألف واللاّم (الرّحمان الرّحيم)، والإسم يأتي لتقرير الوضع وليس لوصفه.

العاصمة الثانية : ما هو يوم الدين؟

رأيت أنّ (يوم الدّين) عاصمة مستقلّة إستقلالا وظيفيّا في هذه السّبع المثاني. ومن يقرأ القرآن الكريم مرّة واحدة يدرك بيسر أنّ أعظم قضيّة تمحّض لها القرآن الكريم بأسره بعد التّعريف باللّه سبحانه هي قضيّة اليوم الآخر. هذا محور رئيس كبير من محاور هذا الكتاب العظيم كما ورد في كتاب الشّيخ الغزالي الذي أشرت إليه. أي «المحاور الخمسة في القرآن الكريم». أليس لبّ الإيمان وأمّ الإعتقاد هو الإيمان باليوم الآخر؟ ولكن لا يصحّ الإيمان باليوم الآخر ويترسّخ في النّفس حتّى يعلم المرء من هو اللّه أصلا؟ لذلك وردت الإشارة إلى عقيدة البعث بقوله سبحانه في العاصمة الأولى (مالك يوم الدّين). وهو نظم عجيب يسمّيه أهل اللّسان العربيّ تضمينا، أي أنّه ضمّن الإيمان بيوم الدّين في التّعريف بنفسه أنّه ملك ذلك اليوم. عندما تقول أنت : «عليّ ربّ الدّار» فإنّك تضرب عصفورين بحجر واحد كما قالت العرب، أي أنّك تخبر عن الدّار أوّلا ثمّ تخبر أنّ عليّا هو ربّها. وبذلك أفادنا النّصف الأوّل من السّبع المثاني بحسب الحديث القدسي الذي أشرت إليه مرّات أنّ أصول الإيمان ومعاقد الإعتقاد ثلاثة عظمى. أوّلها اللّه سبحانه، فهو الذي يفيء إليه الحمد فيئا من دون طلب إو إستجداء. وهو

ربّ العالمين، وهو الرّحمان الرّحيم. وثانيها أنّ اللّه نفسه محيي الموتى وناشرهم وباعثهم ومحاسبهم يوم الدّين. وثالثها مضمّن تضمينا، ذلك أنّ المرء يسمع هذا من نبيّ يخبره بذلك أو يقرأه من كتاب يخبره به. ومن ذا تحصّل لدينا أنّ أصول الإيمان الثّلاثة العظمى ومعاقد الإعتقاد الثّلاثة الكبرى هي : الإيمان باللّه سبحانه أنّه المحمود أصالة وضرورة وأنّه ربّ العالمين وأنّه الرّحمان الرّحيم، فلا يقنطنّ من فضله قانط وأنّ البعث حقّ. وأنّه لا شفاعة فيه. لأنّ اللّه سبحانه هو وحده من يملك ذلك إلاّ لمن أذن له كما سيأتي التّفصيل في القرآن العظيم. وأنّ وسيلة الإخبار عن ذلك هو إمّا نبيّ يخبر بذلك أو كتاب يتضمّن ذلك الخبر.

معنى ذلك هو أنّ الأركان الأخرى لها منزلة دون هذه المنزلة. لأنّها فرعيّة حتّى لو عدّت في الأركان السّتة العظمى، وهي الإيمان بالملائكة وبالقدر. ولا يرقب ممّن يؤمن باللّه سبحانه أنّه كما ورد هنا في هويّته أن ينكر عالم الغيب وما يخبرنا عنه ومنه الملائكة. ولا يرقب منه كذلك أن ينكر أنّ اللّه كما وصف نفسه هنا ليس هو الذي يقدّر الأمر. وذلك هو معنى القول أنّ السّبع المثاني هي عاصمة التّفسير وقاعدة البيان للقرآن العظيم كلّه. فهي التي تكثّف قيمه ومعانيه ومعاقده وعقائده وأصوله الإيمانيّة والعمليّة والمسلكيّة ومقاصده. والقرآن الكريم يفصّل كلّ ذلك ويبيّنه.

هناك ملاحظة مهمّة عالجها القرآن الكريم وهي أنّ النّاس في الأعمّ الأغلب على مدار الحياة والكون لا ينكرون البعث سواء بأثر من نبوّة سالفة أو بوحي فطريّ أو بنظر عقليّ. فما هي المشكلة إذن؟: المشكلة التي تصدّى لها القرآن يعالجها مزدوجة هي غفلة الإنسان عن ذلك بسبب غواية الدّنيا وإغراء الشّيطان وميلان النّفس إلى الشّهوة، سيما إذا إغتصبت

حرية الإنسان من لدن قويّ قاهر جبّار يستعبد النّاس ويسترقهم. ومن ذا يغفلون عن ذلك الإعتقاد غفلة عمليّة، فلا يكون لذلك الإعتقاد بالبعث أيّ أثر في الدّنيا. وهو الإيمان الذي قال عنه سبحانه فيما أعده أخطر آية تبعث الجزع وهي قوله سبحانه في سورة الأنعام «يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا»[111]. أي أنّه إيمان عقليّ نظريّ مجرّد ليس له أيّ أثر في الحياة.

ومن جهة أخرى تصدّى القرآن إلى قضيّة البعث بسبب أنّ كثيرا من النّاس سيّما من ذوي الأرصدة الدّينيّة السّالفة (مشركي قريش المنتسبين إلى إبراهيم عليه السّلام وأهل الكتاب من يهود ونصارى من أهل الإنتساب إلى ذلك الجذر الإبراهيميّ الأوّل وفرعيه الموسويّ والعيسويّ) يؤمنون بيوم الدّين. ولكنّ إيمانهم مدخول مأفون لا يغني عنهم شيئا، بسبب أنّهم لا يعتقدون أنّ اللّه هو مالك يوم الدّين. إذ أنّ من كانوا يعبدون في الدّنيا سيشفعون لهم. وهذا هو مخّ العقيدة الوثنيّة الصّنميّة التي كانت سائدة في العرب وقريش. وهي نفسها العقيدة التّثليثيّة أو التّثنية عند بني إسرائيل، وربّما لها وجود أو أثر في عقائد أخرى سالفة إندرست أو في بعض الطّرق الهنديّة أو غيرها. ذلك هو الذي جعل القرآن الكريم يتمحّض لهذه العاصمة (يوم الدّين) تمحّضا بالكلّية.

الكلمة الأخرى التي لا مناص منها هنا هي كيف أنّ اللّه سبحانه يعالج هذه القضيّة العقدية العظمى. أي بأيّ منهج؟ هذا مهمّ. من يقرأ القرآن الكريم يلفى بيسر أنّ اللّه سبحانه يحيل الإنسان إلى الكون وإلى التّاريخ

---

[111] سورة الأنعام – الآية 158

وإلى نفسه، أي نفس الإنسان سيما في حالات البأس والضّراء والضّيق. ولا يلقّنهم تلك العقيدة تلقينا جامدا ميّتا. عندما يحيل اللّه الإنسان إلى الكون ليكتسب إيمانا صحيحا بيوم البعث فإنّه يحيله في الأغلب إلى حركة الحياة والموت في الكون. ومن ذلك أنّه يحيله إلى التّدبّر في هذه الحركة الحياتيّة التي لا تنفكّ عن الكون. إذ أنّ الحياة تبدأ دوما من تبخّر الماء من الأرض أي من البحر ليعلو في السّماء ـ أي سماء الأرض وليس السّماء الحقيقيّة ـ ثمّ ليصطدم في حرارته بموجة باردة من الرّيح التي تسوقه إلى حيث يشاء اللّه سبحانه (وهنا يأتي الإيمان بالقدر إذ أنّ الإنسان لم يدّع يوما أنّه هو من يحرّك الرّيح). ومن ذا يستحيل ذلك البخار إلى ماء يسمّيه غيثا يغيث به الأرض التي كانت قبل ذلك خاشعة ميّتة. وينفذ الماء إلى رحمها، فتنبت كلأ وأبّا لأنعام النّاس. كما تثمر شجرة طيّبة منها يأكل النّاس ويتّخذون منها مآوي وظلالا أكنّة.

القرآن الكريم شديد الإثارة لهذا المشهد بل إنّه لا يكاد ينصرف وهو يدعو النّاس إلى الإيمان بالبعث إلى غيره إلاّ قليلا. كما يحيلنا إلى التّاريخ، أي إلى القصّة التي إحتلت منه ثلثه وأزيد سيّما بإعتبار المثال. ويروي لنا في تلك القصّة الذين أماتهم ثمّ أحياهم ثمّ شهدوا له من بعد ذلك بالقدرة على البعث. كما يحيلنا في موضع ثالث حدبا علينا أن نؤمن بيوم البعث إلى حالات النّفس عند وقوع السّوء عليها. وذكر لنا مثال فرعون الذي أدركه الغرق فصرّح بإيمانه. وكان من قبل يقول للنّاس أنا ربّكم الأعلى وأنّه ما علم لهم من إله غيره. المقصود من هذا هو أنّ الإيمان بيوم الدّين هو مخّ الإيمان ويمّ العقيدة. وأنّه ينهج به منهج النّظر والتّفكّر والتّدبّر في النّفس وفي الكون وفي التّاريخ. وليس منهج التّلقين الأعمى. وأن من يدعون أو

يعبدون مع اللّه أو من دونه في هذه الدّنيا لا يملك من ذلك اليوم شيئا. وفيما يأتي من القرآن الكريم يفصّل لنا مشاهد يوم القيامة من مشاهد الجنّة ومشاهد النّار، ولكنّ ذلك يقع مواقع التّرغيب والتّرهيب وليس أكثر. و المعوّل عليه هو الدّفع بالإنسان إلى النّظر تدبّرا وتفكّرا في الكون وفي التّاريخ وفي النّفس ليكون الإعتقاد راسخا ثابتا وليهيمن على تفكير الإنسان وإهتمامه، فيكون إيمانا يكسب صاحبه خيرا. إذ أنّ للعقيدة مقاصد وللإيمان منافع. وليست هي تصوّرات نظريّة تجريديّة لا تقدّم ولا تؤخّر.

المقصود الأعظم من الإيمان بيوم الدّين هو تكييف الحياة وتدبيرها وترتيبها على أساس أنّ الإنسان مبعوث من بعد الموت ليثاب أو ليعاقب. وخير تمثيل لذلك هو أنّ يحيى الإنسان وهو ينتظر يوم المحاكمة. كمثل من ينتظر محاكمة في هذه الدّنيا، فهو يظلّ مشدودا إلى ذلك اليوم يعدّ له عدّته ويجهز له أجهزته ويقدّم له ملفّاته ويقيّض له الوكلاء والمحامين والشّفعاء بثمن، ويظلّ محترسا أن يغتصب حقّ أحد أن يطلبه بحقّه إياه في حضرة القاضي وبشهادة الشّهود، بل بحضور هيئة التّغريق وما نسميه نحن اليوم هيئة الدّفاع عن الحقّ العامّ. ذلك هو المقصود من الإيمان بيوم الدين. ولا شكّ أنّ من يظلّ كذلك في حياته سيلقى ربّه يوم المحكمة سليما معافى. ويكفيه سلامة أن يكون قد لقيه لا يشرك به شيئا من جانب حقّه هو عليه. ولم يظلم النّاس من جانب حقّ النّاس عليه. ومن حيي يرتب حياته على ذلك الأساس فهو المؤمن بيوم الدّين حقّا. وهو من أهل الجنّة إن شاء اللّه حتّى لو أصيب قبل ذلك بما يطهّره في الدّنيا أو في القبر والآخرة.

وربّما يكون مناسبا في ختام هذه العاصمة (يوم الدّين) أن ألتقط بعض ما ورد من أسماء يوم الدّين في القرآن الكريم. فمنها أنّه يوم القيامة ويوم الجمع ويوم التّغابن ويوم الحشر ويوم التناد ويوم الحساب، وأنه يوم لا ريب فيه، وأنّه الغاشية والقارعة والطّامة الكبرى والصّاخّة والحاقّة والآزفة.

العاصمة الثالثة : ما هو الإنسان؟

لك الآن أوّلا وقبل كلّ شيء أن تلحظ معي أنّ لسان المتكلّم المخاطب تغيّر إذ فرغت السّبع المثاني من النّصف الأوّل منها أي : من هو اللّه. الآن عرفنا من هو اللّه سبحانه بكلّ تركيز وتلخيص وتخليص وتحرير وتكثيف. وسينداح الجواب عن السّؤال في القرآن العظيم ليفصّل لنا من هو اللّه في أفعاله وأعماله ورحمته وربوبيته وإستجابته الحمد وفي أسمائه. وما هو يوم الدّين، وكيف يملكه اللّه سبحانه وحده. ورد كلّ ذلك بصيغة الإخبار الغيبيّ وبجملة إسميّة. الآن يتغيّر لسان المتكلّم المخاطب ليكون الإنسان نفسه وليس اللّه سبحانه. ملاحظة ذلك مهمّ جدّا. لم يقل هنا : أعبدوني أو إيّاي فاعبدوا أو إستعينوا بي أو إيّاي فاستعينوا. لم؟ لم أحالت السّبع المثاني المصدح إلى الإنسان وقد كان اللّه هو الذي يتكلّم ويتحدّث ويخاطب الإنسان مخبرا عمّن هو؟

1 - الإنسان الحرّ

مكمن الحرّية هنا هو أنّ المتكلّم لم يعد اللّه سبحانه. إنّما أحال لسان الخطاب إلى الإنسان نفسه. فهو إذا شاء مختارا مريدا من يقول صباح

مساء وليل نهار (إيّاك نعبد). ولذلك لم يقل : أعبدني أو إعبدوني. هذا ملحظ لا يمكن إغفاله حتّى نفهم أنّ اللّه لا يكره أحدا أبدا مطلقا طرّا البتّة على عبادته. والإنسان ليس حرّا في عبادة ربّه فحسب إن شاء، إنّما هو حرّ كذلك إن شاء في الإستعانه به أو بغيره. ولذلك ثنّى على ذلك بقوله (إيّاك نستعين).

ومازال لسان الخطاب بيد الإنسان الحرّ المريد المختار. ولا ريب في أنّ الإنسان المؤمن المحافظ على صلاته والدّائم عليها ليل نهار صباح مساء وهو يقول بلسانه هو حرّا مريدا مختارا (إيّاك نعبد وإيّاك نستعين) ـ سواء سرّا أو علنا أو إماما أو مأموما أو في ظلمات الأدغال واللّيالي أو في يمّ الحضرـ إنّما يرسّخ الإيمان بربّه سبحانه ويحقّقه في نفسه ويروّض جارحته المعنويّة ـ أي فؤاده ـ على ذلك، وإلاّ فمن أغراه بذلك أو أكرهه عليه؟

2 - إيّاك نعبد : رسالة الإنسان الحرّ

معلوم أنّ الإنسان وهو يقول ذلك في صلاته إعتقادا منه حرّا بلا إكراه إنّما يصوغه في جملة إسميّة. وأصل الكلام هو : أنا أعبد أنت. أي أعبد(ك). ولنا عودة مع ضمير الجمع هذا (نعبد). يقول الإنسان الحرّ جملة إسميّة بسبب أنّ رسالته في الحياة راسخة ثابتة قوامها هي العبادة. لا. ليس العبادة فحسب. بل إفراد اللّه سبحانه وحده دون سواه ولو حبّة خردل بالعبادة. (إيّاك) هي مفعول به مقدّم منصوب بالفتحة الظّاهرة في آخره. والعرب تقدّم المفعول به الذي أصله التّأخير بسبب إبرازه وإظهاره. الحقيقة أنّ الذي وقع إظهاره هنا وإبرازه هو إفراده سبحانه بالعبادة قبل العبادة

نفسها. وما ذلك سوى لأنّ النّاس كلّهم يعبدون اللّه سواء كانوا مشركين أو أهل كتاب. ولكنّها عبادة لا تغني عنهم شيئا يوم الدّين ولا تحقّق لهم المنافع منها والمصالح في هذه الدّار الأولى كذلك. هم يعبدون اللّه لأنّهم قالوا بأنفسهم أنّهم يعبدون اللّه. ولكنّ عبادتهم إيّاه سبحانه يجعلون لها وسائط. إذ قالوا وهم يدفعون عن أنفسهم تهمة البطلان «مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى »[112]. وبمثل ذلك فإنّ أهل الكتاب يؤمنون باللّه ويعبدونه. ولكنّ العبادة التي إختلطت بأيّ شرك مهما صغر أو دقّ أو جلّ أو خفي أو ظهر، فلا إعتداد بها ولا عبرة بها. ولذلك يقول الإنسان حرّا كلّ أربع ساعات ونصف على مدار الحياة (إيّاك نعبد). ومعناها : إيّاك وحدك لا شريك لك نعبد. وذلك ليخالف كلّ من يعبد اللّه ويعبد معه غيره. وهم كلّ النّاس تقريبا. ذلك أنّ اللّه سبحانه رحمة بالبشريّة جمعاء قاطبة، أبى إلاّ أن يحقن الإنسان وهو في عالم الذرّ بحقنة الإيمان. وذلك في قوله سبحانه «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَا»[113]. ولذلك فإنّ الأصل في الإنسان هو الإيمان وليس الكفر. ولكن كما قال ﷺ جاءتهم الشّياطين فأجتالتهم عن دينهم. وسيفصّل لنا ذلك عندما يقصّ علينا رحلة خليله إبراهيم عليه السّلام في سورة الأنعام (سورة التّوحيد الكبرى) من الشكّ إلى اليقين نظرا في الكون وليس قراءة في الكتب أو سؤالا لرجال الدّين أو رؤى مناميّة أو ممّا يغري النّاس من طلاسم وخرافات وأساطير.

---

[112] سورة الزمر - الآية 3

[113] سورة الأعراف - الآية 172

3 - لم يخصّ اللّه وحده سبحانه بالعبادة؟

الأمر العقديّ مفهوم عندي معقول لا يحتاج إلاّ إلى نظر وتفكر في الكون وفي التاريخ وفي النفس. الأمر العقديّ عندي معلّل مقصّد مستصلح. أعبد اللّه سبحانه لأنّ عقلي هداني بفضله هو سبحانه إلى أنّه هو وحده من خلقني ورزقني وصنعني وأنعم عليّ وأغدق وإليه هداني وبمثل ذلك فعل مع الكون والنّاس. أعبد اللّه لأنّي طرحت على نفسي الأسئلة الوجوديّة العقديّة الثّلاثة العظمى التي يطرحها فيما أظنّ كلّ إنسان وهي : من أين جئت؟ ولم جئت؟ وإلى أين أمضي؟ تلك هي الأسئلة العقديّة الوجوديّة التي لا أظنّ أنّ عاقلا لا يعالجها. إذ أنّ طريق الحقّ والهدى واليقين مفروش بأشواك الشكّ، وهو الطّريق الإبراهيميّ.

كتب في هذا واحد من أكبر أعمدة التّراث الإسلامي وهو الإمام الغزالي الذي تقلّب طويلا في الفلسفة وفي التّصوّف وفي الفقه والمعروف برحلته من الشكّ إلى اليقين. ولذلك رحّب سبحانه بأسئلة أنبيائه من أولي العزم كما مرّ بنا ربّما مرّات. أي سؤال إبراهيم «رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ»[114] وسؤال حفيده موسى «رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ»[115]. وستجد في القرآن العظيم تفصيلا شيّقا لذيذا ممتعا لهذا. أي لم أنت مدعوّ إلى عبادة اللّه سبحانه وحده. إذ أنّه سيعلّل ذلك بمئات التّعليلات والمواضع. منها أنّك تعبده لأنّه خلقك وأنعم عليك وخلق لك السّموات والأرض والشّمس والقمر، وسخّر لك أنت بالذّات كلّ شيء وغير ذلك ممّا هو مبسوط هناك معلّل مقصّد

---

[114] سورة البقرة - الآية 260

[115] سورة الأعراف - الآية 143

مفهوم معقول مستصلح. وهنا ـ أي في السّبع المثاني ـ مقبوض. ولم أخصّ اللّه وحده بالعبادة؟ هذه المعركة التي إشتبك فيها الإسلام ومازال ولن يزال مع أهل الدّين السّالف وغيرهم. إذ أنّ هؤلاء جميعا يعبدون اللّه سبحانه. ولكن يعبدونه ليس بإفراد وإخلاص بل بإشراك. سواء بأصنام وأوثان أو أموات أو أحياء أو أنبياء منهم عيسى عليه السّلام أو غير ذلك من الأرباب والآلهة التي يزعم لها البشر نفعا وضرّا أو وساطة مع اللّه أو شفاعة أو قدرة أو غير ذلك. وسينبري القرآن العظيم هناك من سورة البقرة حتّى سورة النّاس يفصّل للنّاس كيف أنّ كلّ ذلك هراء مهروء. وأنّ الجدير بالعبادة الخالصة من كلّ شوائب الشّرك هو اللّه وحده سبحانه، لأنّه لا شريك له في الخلق والأمر والصّنعة والرّزق وغير ذلك.

4 – ما هي العبادة؟

أزعم أنّ مثل هذه الأسئلة فارغة. ما هو الإيمان؟ وما هي العبادة؟ وما هي الرّحمة وغير ذلك ممّا لم يعالج القرآن الكريم ولو مرّة واحدة تعريفاتها وحدودها اللّفظيّة إنّما إنحاز بالكلّية إلى بيان آثارها وظلالها وثمارها. ذلك هو المنهج القرآنيّ الكريم الذي يعرض عمّا يحشر النّاس في جدل فارغ لا طائل من ورائه ويشدّهم إلى الآثار.

لك أن تسأل هذا السّؤال الخطير: كيف أنّ القرآن الكريم جعل قضيته العظمى الإيمان والإعتقاد ولم يباشر معالجة ذلك ولو مرّة واحدة بالبيان النّظري المجرّد؟ سيأتيك الجواب أنّ اللّه سبحانه يعلم أنّ النّاس يعلمون حقّ العلم ما هي العبادة وما هو الإيمان وما هي الرّحمة وغير ذلك. لأنّه حقنهم بذلك حقنا. أي أنّه أوحى إليهم بذلك وحيا غريزيّا جبلّيا. فلا فائدة

إذن من حشر النّاس في تعريفات تجريديّة. وإنّما الأجدر حشرهم حول ظلال تلك الأشياء وثمار تلك الأمور. الأمر شبيه بمن يستدل على الشّمس بنورها وليس بوجودها هي نفسه إذ قد تحجبها السّحب. وهل يعلم أحد منّا حقيقة الشّمس؟ ولكن هل يجهل أحد منّا اليوم آثر الشّمس وحيويّة نورها والحاجة إلى شعاعها وغير ذلك؟ لا تستهويني تعريفات العبادة وتحديداتها، لأنّ كلّ إنسان يعلم كيف يعبد لو أراد أن يعبد. المشكلة ليست في جهل العبادة بل المشكلة هي : من تعبد؟. كانت تدرك العرب بسلاقة اللّسان وقحاحة اللّغة أنّ العبادة هي الإيمان بالغيب والطّاعة بالغيب وبحبّ وخوف وأمل ورجاء وخشوع وخشية حتّى يكون العبد لمعبوده مثل الطّريق المعبّد للسّائر عليه. كيف لا وهم يتعاملون بالعبوديّة؟ ولذلك لم يسأل أيّ واحد منهم ما العبادة؟ ولكنّهم إتخذوا كلّهم تقريبا، سيّما في المرحلة الأولى، موقف الرّفض لعبادة اللّه وحده سبحانه. وما ذلك سوى لأنّهم أدركوا حقيقة ما يدعو إليه الإسلام. وعلى كلّ حال سيفصّل القرآن العظيم في سوره المنداحة من سورة البقرة حتّى سورة النّاس مقتضيات العبادة ومعانيها وقيمها وغير ذلك ممّا يتّصل بها.

العبادة عمل عقليّ أصله الإيمان بالغيب. وهو تحرير العقل من الخرافات والأساطير والتقليدات التي لا دليل عليها. وهي ما يمكن أن نسمّيه بالتعبير المعاصر العبادة الفكرية والثقافية والفلسفية. أي إخضاع العقل للمنطق العلميّ الصّارم قوامه النّظر والتّفكّر والتّدبّر والملاحظة والرّصد والتّتبع والمقارنة والسّؤال وغير ذلك لأجل الوصول إلى الحقّ، وهذا هو معنى أنّ الإسلام بعقيدته يحرّر الإنسان فردا وأسرة وجماعة من كلّ العبوديّات والإسترقاقات الغابرة والحاضرة وبكلّ الصّور المختلفة لغير اللّه سبحانه.

والعبادة التي شاعت في النّاس هي المظاهر العمليّة التي تدلّ على أنّ الإنسان مؤمن أو عابد، وهي الصّلاة و الصّيام والزّكاة والحجّ وغير ذلك.

العبادة في الحقيقة هي الأمران معا. عدا أنّ العبادة الفكريّة الثّقافيّة النّفسيّة الفلسفيّة هي الأصل، لأنّها هي المؤسّس. والعبادة العمليّة هي ثمرة أو هي طاعة بالغيب. وعندما تكون الطّاعة بالغيب ثمرة صحيحة للإيمان بالغيب يكتمل الإيمان وتكون العبادة صحيحة. العبادة مزدوجة فهي قلبية وهي مدار الإعتقاد الصّحيح والإيمان الثرّ الخصيب، وهي الفيصل بين الإيمان وبين النفاق. وقد يضطرّ المرء إلى كتمان ذلك عمره كلّه. وأوّل ما يحاسب العبد يوم الدّين على ذلك الإيمان القلبيّ فهو العبادة المقصودة بالأصالة الآصلة. والعبادة هي الطّاعة كما أنف ذكره. ولكنّ الطّاعة في الإسلام تمسح الحياة كلّها. وليس مثل الدين السّالف أو الخالف. أي صرف شيء منها للّه وصرف ما بقي لغير اللّه. إلاّ أن تكون ضرورة فهذه لا حديث عنها. إذ أذن ﷺ ثم أكّد القرآن ذلك للصّحابة الذين لم يحتملوا العذاب في مكّة بأن ينطقوا بكلمة الكفر. وهو إذن ماض إلى يوم القيامة. إذ أنّ الصّرح الإسلاميّ مجهّز بما أسميه بواباب الطّوارئ ومخارج الضّرورات.

يكثر الحديث اليوم عن العبادة أو الشّرك في الحقل السّياسيّ، إذ أحاطت الدّولة العربيّة بالنّاس وإحتكرت وسائل القتل والقوّة والمال، وتغوّلت الدّولة بحقّ وإضطرّ كثير من النّاس إلى إعلان الولاء لها حتّى فيما علم صراحا بواحا كفره أو فسقه الكبير. سمّاه الدّكتور التّرابي عليه الرّحمة الشّرك السياسيّ. هذا حقّ وواقع ولكن يظلّ الفيصل القلب الذي لا سلطان عليه إلا للّه وحده سبحانه. وهو وحده سبحانه من يحاسب عبده يوم

الدّين. وهو وحده سبحانه من يعلم الصّادق المخلص ممّن ينكر ذلك، ولكن يتأخّر عنه خوفا ورهبة أو يضطرّ لموالاته مثل ذلك والمنافق الذي لم تضطره أحوال ولكنّه آثر الدّنيا على الآخرة أو شريعة النّاس على شريعة اللّه سبحانه.

ذلك هو الأمر الذي جعله ﷺ في حالة غضب شديد وهو يخاطب صحابيّا إرتاب في أمر الطّاعة السّياسيّة مدافعا عنها بقوله إنّهم لم يعبدوهم يا رسول اللّه. وهو يقصد الأمراء والعلماء معا ومع ذلك جاء التّرشيد النّبوي بليغا صارما إذ قال له : بلى. أليس حرّموا عليهم الحلال فاستحرموه وحلّلوا لهم الحرام فاستحلّوه؟ قال : بلى. قال : تلك عبادتهم إيّاهم»[116].

الحديث هنا طبعا عن إستحرام وإستحلال فيما دون ضرورة أو جهل أو حاجة إنّما تقديما لشريعة غير اللّه على شريعة اللّه سبحانه. أصل الحديث حوار جرى بين عدي إبن حاتم وبين رسول اللّه ﷺ. وهو حديث فيصل يزكّي القرآن الكريم في أنّ الطّاعة عبادة، وبها يكون المرء مؤمنا أو كافرا. وأنّ التّشريع عبادة مثل ذلك. وأنّ التّشريع عامّ في الإسلام وهو خاصّ باللّه سبحانه وبما أذن به تبيينا لرسوله ﷺ. وهو الذي سمّاه الدّكتور الترابي عليه الرّحمة الشّرك السّياسيّ ومثله الشّرك الماليّ وغير ذلك

5 – إيّاك نستعين : رسالة العمل

مرّة أخرى يقول الإنسان الحرّ بنفسه مختارا مريدا وبلسانه هو (إيّاك نستعين). يعاد منه تقديم المفعول به ويعاد منه إفراد اللّه سبحانه وحده

---

[116] الترمذي عن عدي إبن حاتم

بالإستعانة. ولكن يختلف الحقل إذ قد إنتقل من العبادة إلى الإستعانة. كان يمكن أن يقول بلا تكرار : «إيّاك نعبد ونستعين». بل كان يمكن أن يقول: «إيّاك نستعين وإيّاك نعبد». أو «إيّاك نستعين ونعبد». كلّها ممكنات لا يضيق عنها اللّسان. ولكنّ اللّه يريد شيئا آخر علينا إلتقاطه.

أوّل ما لا مناص منه هنا هو أنّ العرب في العادة يقولون : إستعان فلان بكذا أو بفلان. ولا تقول العرب : إستعان فلان فلانا أو كذا. أي أنّ فعل الإستعانة لا يتعدّى إلى مفعوله في العادة إلاّ بحرف. ولكنّ النّظم القرآنيّ القحّ السّليق الذي تحدّى العرب الذين صنعوا من الحرف سحرا ـ شهد له ﷺ نفسه بالسّحر في قوله «إنّ من البيان لسحرا»[117] ـ خالف ذلك المعهود. ولم ينبس العرب ببنت شفة إعتراضا. وهم الذين يبحثون ليل نهار، صباح مساء على موضع سمّ خياط في النّظم القرآني الذي جاء يتحدّاهم ليخرّ السّقف على أهله. ولكن أنّى لهم ذلك؟

لقد مرّ بنا كثيرا هنا أنّ القرآن الكريم ينحت المبنى دوما لتجويد المعنى. فيكون المبنى في خدمة المعنى دوما وهنا كان ذلك كذلك. إذ إستغنى عن حرف التّعدية. فلم يقل «بك نستعين» إنّما قال «إيّاك نستعين» وذلك ليفرده سبحانه بالإستعانة من جهة. ذلك أنّ بعض النّاس يستعينون باللّه وبغير اللّه في الآن نفسه. ومن جهة أخرى فإنّ قوله «إيّاك» أبلغ في ذلك القصر وذلك الحصر من قوله «بك نستعين». ومن جهة ثالثة حتّى تستوي العلاقة مع اللّه سبحانه من قبل عبده عبادة خالصة وإستعانة خالصة. إذ الخلوص لا مناص منه في الحالين.

---

[117] رواه البخاري عن إبن عمر

السّؤال هو : ألا تكفي العبادة؟ أيّ دور للإستعانة وما معناها؟ والسّؤال الثّالث هو : كيف أستعين باللّه؟ عندما عزّر العبادة هنا بالإستعانة أخبرنا أنّ رسالة الإنسان مزدوجة. فهي عبادة تبدأ من الفؤاد كما مرّ بنا وتنداح إلى الجوارح لتغطي الحياة كلّها وتجعلها للّه وحده سبحانه. وهي مع ذلك إستعانة.

الإستعانة هنا تعني أمورا ثلاثة : الأمر الأوّل هو أنّ العابد لا مناص له من العمل، فلا يظنّنّ عابد أنّ العبادة فكرا وثقافة وفلسفة تغنيه عن العمل. ولا يعتقدنّ عابد أنّ العبادة صلاة وصياما وزكاة وحجّا وتلاوة وغير ذلك تغنيه عن العمل. المعنى الأوّل هنا هو أنّ العبادة وحدها لا تكفي فلا بدّ من العمل. الدّليل على قيمة العمل هنا هو الإستعانة. ومعنى ذلك أنّ العامل لا بدّ أن تعترضه صعوبات وتحول دونه عقبات. وهو مفطور جبلّة على الفرار إلى من يعينه على تجاوزها وتذليلها. ومن ذا يكتمل معنى الإستعانة التي جاءت هنا معبّرا عنها بحسبانها ثمرة ونتيجة وليست أصلا. ذلك أنّ الأصل هو العمل الذي يحوّل العبادة إلى حقيقة وليس إلى دعوى.

وحقيقة الإيمان التوكّل، وأنّ العامل في الدّنيا بغضّ النّظر حتّى عن دينه تعترضه عقابيل. وأنّ المؤمن الحقيقيّ هو من يفرّ إلى اللّه سبحانه وحده يسأله تذليل تلك العقابيل. قيم العمل هنا والصّعوبات هي قيم مضمّنة في قيمة الإستعانة وهي إستعارة مجازية جميلة في اللّسان العربيّ. وكثيرا ما يعمد اللّسان العربيّ إلى التّعبير عن الشّيء بثمرته أو نتيجته. بقي هذا السّؤال : كيف نستعين بالله؟ هذا السّؤال مهمّ لأنه يجعلني أصرّ على أنّ السّبع المثاني هي الخلاصة المكثّفة للقرآن العظيم. وهي المجملة الكلّية

التي يأتي ما بعدها ليفصّلها تفصيلا. من ذلك أنّ القرآن الكريم كما مرّ بنا يفسّر بعضه بعضا، ويبيّن بعضه بعضا. وتأويل ذلك هنا هو أنّ سورة البقرة التّالية ـ وربّما موضع آخر أو أكثر بقليل من غيرها ـ تفصّل لنا معنى الإستعانة باللّه سبحانه. إذ تقول لنا أنّ الإستعانة باللّه معناها العملي هو قوله سبحانه «وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ»[118]. وهو نداء موجّه إلى الذين آمنوا بصفتهم التشريعية المعروفة. وقد مرّ بنا هذا في بعض المقدمات الآنفة. هنا إيّاه نستعين. وهناك نستعين بالصّبر والصّلاة. هنا تكون الإستعانة عقيدة لأنّها تعضد العبادة. وهناك تكون الإستعانة عملا لأنّ الصّلاة عمل يسبغ الرّاحة النّفسيّة والسّكينة الرّوحيّة على المصلّي. لقوله ﷺ لبلال «أرحنا بها يا بلال»[119]. كما تكون صبرا. والصّبر عبادة روحيّة. ومن ذا نتبيّن أنّ الإستعانة إيّاه سبحانه هي جرعات روحيّة تجود بها الصّلاة. ذلك المعراج الرّوحيّ الدّائم ويجود بها الصّبر . وعندما يستعين المؤمن من بعد ذلك ـ وليس قبله ـ بأيّ شيء آخر فهو مستعين باللّه حتما. هذا موضع يشوّش على كثير من المتديّنين تديّنهم. إذ يقول قائلهم : كيف أستعين اللّه أو أستعين إياه عقيدة وأستعين بفلان أو فلانة أو حتّى بحمار أو حجارة أو بكافر أو ملحد على قضاء بعض مأربي؟. أقول له : المطلوب منه الإستعانة إيّاه سبحانه جرعات روحيّة، صلاة وصبرا تعزّز العبادة إيّاه وحده سبحانه. فإن وفّيت ذلك حقّه، فاستعن حتّى بكلب إذا لزم الأمر. أو لم يستعن ﷺ بمشرك يقود أخطر رحلة في التّاريخ وهي رحلة الهجرة؟ ألم يستعن هو نفسه ﷺ بمشرك آخر يجيره من غضب قريش إذ

---

[118] سورة البقرة - الآية 153

[119] أبو داوود عن سالم إبن أبي الجعد

خذلته ثقيف؟ هذا تمييز فكريّ مطلوب. لم ترد (الإستعانة) فعلا مزيدا في غير هذين الموضعين أي إستعانة بالصّبر والصّلاة في خطابين أحدهما لبني إسرائيل والثّاني للمؤمنين، وكلاهما في السّورة التّالية أي البقرة التي بدأت في التّفصيل. ولكن ورد جذرها في مثل قول ذي القرنين في سورة الكهف للذين إستجاروا به من يأجوج ومأجوج «فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ» [120]. وإذا أضفنا إلى ذلك الدّعوة إلى التّعاون في القرآن الكريم على البرّ والتّقوى، فإنّه لنا أن نقرّر أنّ العون والتّعاون والإستعانة والماعون في سورة الماعون صور من صور المقاومة والكدّ والجدّ والكدح والكبد والسّعي والعمل في الحياة الدّنيا. وكلّ ذلك من الإستعانة باللّه سبحانه.

6 - الإنسان الجماعة : نعبد ـ نستعين ـ إهدنا

هذه الفقرة من هذه العاصمة (من هو الإنسان وما هي رسالته)، هي أخطر فقرة أو من أخطر الفقرات على الأقل. تعويلي من نفسي وممّن يطلب علما مؤصّلا دوما هو على الصّبر على ملاحظة دقّة التّعبير القرآني السّاحر. دقّة لا يحيط بها محيط ولا يحصيها حاص. لا أتردّد في القول أنّ من رزق دقّة الملاحظة في هذا الكتاب وفيما يحيل إليه، فإنّه يكفيه الفهم الصّحيح والفقه الصّريح والعلم الرّاسخ العميق.

ليس عبثا ـ حاشا كتاب اللّه سبحانه ـ أن ترد رسالة الإنسان ورسم هويته (لم جاء أو جيء به) بصيغ الجماعة وليس بصيغة الفرد هنا في السّبع المثاني وحدها ـ وهي الخلاصة المكثّفة ـ ثلاث مرّات متتابعات.

---

[120] سورة الكهف - الآية 95

السّؤال الكبير المحيل إلى الفقه كلّه هو : لم لم يقل «إيّاك أعبد»؟ ولم لم يقل «إيّاك أستعين»؟ ولم لم يقل «إهدني الصّراط المستقيم»؟ لم يصرّ هذا الإصرار العجيب على أن يتحدّث الإنسان بلسان الجماعة وخطابها؟ من فوّض الإنسان أن يتكلّم بإسم البشريّة أو بإسم الأمّة الإسلاميّة؟ أنّى له أن يكون في صلاة سرّية ـ في ظلمات أدغال إفريقيا حيث لا وجود لطائر يطير بجناحيه ولا لسائر يسير برجليه على مدّ البصر طولا وعرضا ـ ورغم ذلك يقول الإنسان الحرّ المختار المريد وهو لا يكاد يسمع نفسه بذلك «إيّاك نعبد»؟ ويردفها بقوله «إيّاك نستعين»؟ ثم يختم كلّ ذلك بقوله «إهدنا الصراط المستقيم»؟شيء عجيب من فتح غيبه وفضّ مجاهيله نجا بنفسه من ظلمات الجهل وأنجى النّاس من حوله. ومن تنكّب هذا فما له من العلم من نصيب.

بعد هذه الأسئلة والملاحظات لا أحتاج إلى أن أحرّر هنا أنّ المقصود الأوّل الأعظم من اللّه سبحانه ـ وهو يجعل الإنسان المؤمن يتكلّم بإسم الأمّة ـ إنّما هو حقنه بالمصل التّكافليّ وشحنه بالطّعم الإجتماعيّ وبناء عقيدته وعبادته و إستعانته إيّاه على أساس الجماعة المتكافلة المتعاونة المتضامنة. وأنّ الفرديّة في الدّين مهلكة ممحقة.

أليست العبادة شأن فرديّ؟ هكذا تعلّمنا زورا من المدرسة العلمانيّة. أليست الإستعانة التي رأينا بالنّصّ القرآنيّ نفسه أنّها تكون بالصّبر والصّلاة هي كذلك شأن فرديّ؟ لا. المنهج القرآنيّ يعلّمنا ما لم نكن نعلم، أو يصحّح لنا ما جهلنا. والشّجاع بإيمانه والمخلص بعقيدته هو من يطرح كلّ شيء عندما يجد القرآن على غير ما كان عليه. هذه الحقيقة سيترجمها القرآن الكريم نفسه من سورة البقرة حتّى سورة النّاس

بزهاء تسعين نداء بعنوان «يا أيها الذين آمنوا»، وبزهاء خمس وعشرين مرّة بنداء «يا أيها الناس»، وبزهاء خمس مرّات بنداء «يا بني آدم». أي أنّه سيفصّل لنا ما أجمله هنا وجعله كلياً. وهو أنّ كلّ التّكليفات أمرا ونهيا وكلّ الإخباريات وغير ذلك ممّا حواه القرآن الكريم كلّه إنّما ستأتي بصيغة الجماعة، سواء للنّاس أو لبني آدم أو للذين آمنوا. ذلك هو معنى أنّ السّبع المثاني حرصت على إبراز المطلب الجماعيّ والعبادة التّكافليّة التّضامنيّة في محرّرها الوجيز. وذلك يعني أنّ هذا المطلب هو مطلب عقديّ كلّي أعظم. ولو كان ذلك غير كذلك لما حفلت به السّورة الخلاصة، أي السّورة التي تولّت تحرير الرّسالة الإسلاميّة كلّها في كلمات قصيرات موجزات. فلا عبادة إلاّ ضمن الجماعة، ولا إستعانة إلاّ ضمن الجماعة. ولا يعني ذلك نبذ المسؤوليّة الفرديّة ولا حظّ الفرد. أبدا. إنّما يعني ذلك أنّ إصلاح النّفس والحياة كلّها قدر الإمكان بالعبادة وبالإستعانة لا يكون إلاّ بجهد جماعيّ تكافليّ تضامنيّ يأخذ كلّ واحد من النّاس فيه بحظّ ونصيب. وفصّل الفقهاء في ذلك بين الواجب العينيّ بالتّعبير القديم والواجب الكفائيّ. فلا يغني هذا عن ذاك. ولكن لا مناص من إجتماع هذا بذاك.

ألا ترى بنفسك أنّ الأمّة الإسلاميّة ما إندحرت وإنحطّت وأصبحت لقمة سائغة عرضا ومالا وسيادة في بطون أعدائها إلاّ من بعد تنكّبها لهذه الحقيقة العقديّة القرآنيّة العظمى؟ أي إجتماع النّاس على العبادة والإستعانة وسؤال الهداية قدر الإمكان؟ أظنّ أنّنا اليوم في مرحلة من التّاريخ لا يجعل الواحد منّا ينفق كثيرا من الكلام لبيان تلك الحقيقة التي تمحضت لها السّورة الخلاصة. بقي أمر آخر محيّر فعلا، وربّما أخالف فيه النّاس من دون إزراء بأقدارهم حاشا للّه، ولكن آليت على نفسي أن

أكتب ما أراه فإن كان حقّا وصوابا وحكمة وصدقا فللّه وحده المنّة والحمد والفضل ولمن تعلّمت منهم وعنهم ومازلت. وإن كانت الأخرى، فأستغفره سبحانه وأعتذر لمن قرأ هذا.

هذا الأمر المحيّر هو أنّ قوله سبحانه في الجزء الثالث الأخير بحسب الحديث القدسي الذي مرّ بنا أي «إهدنا الصّراط المستقيم» وهو الذي قال فيه سبحانه في ذلك الحديث القدسيّ «ولعبدي ما سأل»، إنّما يشمل ذلك المؤمنين وغير المؤمنين. أي أنّ المؤمن وهو يدعو في صلاته التي تغشاه مرّات في اليوم واللّيلة إنّما يدعو للضّالين من النّاس عن الصّراط المستقيم. وهو التّوحيد والإيمان والإعتقاد بمثل ما يدعو للمؤمنين.

أعرف أنّ سؤالك الذي يعتلج فيك هو : أين الدليل؟ أجل. دليلي على ذلك هو أصالة الإطلاق أو التّعميم. فبأيّ حقّ أخصّ المؤمنين بالدّعاء؟ ألا ترى أنّه عليك أنت أن تأتي بالدّليل على أنّ هذا الدّعاء العام يخصّص؟ إن شئت بمنطق الأصول فإنّ الدّعاء عامّ ولا يخصّص إلاّ بدليل. ولا دليل عندي فإن عثرت عليه فأنّي مستغفر اللّه ومعتذر لديك. وإن شئت بمنطق الإسلام العامّ ـ الذي يدعونا إلى بذل الأمل والرّجاء في اللّه سبحانه بل إلى بذل العمل في سبيل هداية الضّالين ـ فإنّ هذا الدّعاء كذلك عامّ. هو عامّ عندي بالمنطقين معا : منطق الأصول الذي لا يخصّص شيئا إلاّ بدليل. ولا دليل هنا ولا في القرآن الكريم كلّه ولا حتّى في السّنة. ومنطق المنهاج القرآني الكريم نفسه.

أيّ مانع يجعلني أدعو هنا للضّالين؟ إذا إنتفى المانع من جهة وإنتفى النّهي الشّرعيّ الصّحيح الصّريح، فإنّي أدعو في هذا الدّعاء بالهداية للضّالين. أمّا خارجه فليس هناك ما يعترض عليه. بل هناك في السّنّة

الصّحيحة ما يؤيّده. على كلّ حال أضع هذا في هذا الكتاب أو بالأحرى في مقدمة هذا الكتاب موضع الحوار لمن يريد الحوار.

ممّا يؤيد كلامي هنا أنّه ﷺ دعا لثقيف بالهداية ودعا لغيرهم. وقال في أكثر من قوم : اللّهم إهدهم وإئت بهم. أي مسلمين. ولمّا كان يدعى إلى الدّعاء على غير المسلمين سيمّا من غير المتورّطين في الحرب ضده ـ بل حتّى في هؤلاء ـ فإنّه كان يدعو لهم وليس يدعو عليهم. أيّ دليل إذن يجعلني أنفكّ عن الدّعاء في صلاتي للضّالين قائلا «إهدنا الصّراط المستقيم»؟ لا أجد دليلا واحدا بل أجد أدلّة في الإتجاه المضادّ. إذا كان هذا غير معهود في التّفسير أو غير مشهور عند المسلمين أو غير ذلك، فهذا أمر لا يلزمني في شيء.

العاصمة الرّابعة : ما هو الصّراط المستقيم؟

هذا هو الجزء الثّالث الأخير من سورة الصّلاة كمّا سمّاها اللّه سبحانه في الحديث القدسيّ الذي مرّ بنا مرّات كثيرات. والذي قال فيه «ولعبدي ما سأل». ذلك أنّ هذا الجزء الثّالث الأخير كلّه سؤال. إذ يبدأ بسؤال اللّه سبحانه الهداية «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ». السّؤال الأوّل هو ما هو الصّراط المستقيم الذي نسأل اللّه إيّاه في كلّ ركعة؟ والسّؤال الأخر المهمّ هو : لماذا نعته اللّه سبحانه بالإستقامة؟

1 – الصّراط المستقيم : رأس وعمود وذروة

حتّى نعلم ما هو الصّراط المستقيم على وجه الدّقة والتّحديد لا مناص لنا من إتباع المنهج الذي رسمناه منذ البداية. وهو أن ندع القرآن الكريم يبيّن بعضه بعضا، إذ تكفّل هو بذلك. ولنا في الأثناء كذلك وقفات مع ألفاظ الصّراط نطقا ورسما ومعنى. وبعض المواضع البيانيّة الجميلة إن شاء اللّه.

الصّراط عندما يوصف في القرآن الكريم يوصف بأنّه مستقيم عدا في موضعين إثنين أحدهما من سورة مريم: «صِرَاطًا سَوِيًّا» [121] وفي سورة طه نعت بأنّه سويّ: «فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ» [122] وأحيانا قليلة جدّا ينسبه إلى اللّه سبحانه من مثل قوله سبحانه: «صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ» [123] أو «وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا» [124] أو «صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» [125]. كما وردت كلمة الصّراط منسوبة إلى الجحيم «صِرَاطِ الْجَحِيمِ» [126] أو بالمعنى اللغوي «بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ» [127]. كما ورد أنّ الصّراط مشهد من مشاهد الآخرة، إذ ذكر في سورة يس المكيّة «وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ» [128].

ولنا أن نقرّر قبل المضيّ أنّه صراط واحد في الدّنيا والآخرة. هو صراط مستقيم في الدّنيا يؤمّن المرور على الصّراط في الآخرة. ولكنّ الصّراط المستقيم المذكور في السّبع المثاني وفي أكثر المواضع في القرآن العظيم شيء آخر. هنا صراط معنويّ وهناك قد يكون الصّراط ماديّا. إذ هو مشهد غيبيّ وليس لنا من الغيب كما قال حبر الأمّة عدا الصّور تقريبا.

---

[121] سورة مريم - الآية 43
[122] سورة طه - الآية 135
[123] سورة سبأ - الآية 6
[124] سورة الأنعام - الآية 126
[125] سورة الشورى - الآية 53
[126] سورة الصافات - الآية 23
[127] سورة الأعراف - الآية 86
[128] سورة يس - الآية 66

الصّراط المستقيم في القرآن الكريم يرد دوما بالمعنى العامّ الأصليّ غير المفصّل. وهو يعني به عقيدة التّوحيد والإيمان الصّحيح وحبل اللّه والعبادة الخالصة للّه سبحانه وحده دون شائبة شرك. وعادة ما يعقب بذلك في إثر الحديث عن نبيّ من أنبيائه.

هذا المعنى لا خلاف عليه وهو ما أسميته رأس الصّراط المستقيم. أي القضيّة العظمى التي تمحّض لها القرآن الكريم. وهي تخليص العقيدة وتحرير الإيمان من براثن الشّرك بكلّ صنوفه كما كان معروفا عند المشركين وأهل الكتاب وغيرهم. الذي أثار إنتباهي هو أنّ الصّراط المستقيم ورد مرّة واحدة مفصّلا في الكتاب العزيز. وذلك في سورة الأنعام المكّية (سورة التّوحيد الكبرى كما يسمّيها بعض العلماء المعاصرين بحقّ) إذ أنّ اللّه سبحانه بعدما ذكر ما حرّم على الناس في قوله سبحانه «قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ»[129] عقّب بقوله «وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ»[130].

ما حملني على ذلك ـ أي إعتبار أنّ ما ورد في الآية هي أعمدة الصّراط المستقيم وذروته ـ هو أنّ هذا التّعقيب أي قوله «وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا» محمول على ما سبق من جهتين. الجهة الأولى هي أنّ قوله «وَأَنَّ هَٰذَا» إسم إشارة تعود إلى المذكور السّابق. وذلك في مثل قوله سبحانه في سورة (ص) التي إستخدم فيها إسم الإشارة للقريب (هذا) مرّات متتالية. وفي كل مرّة يعني به الإشارة إلى ما سبق، وليس إلى ما لحق. أنظر معي

---

[129] سورة الأنعام - الآية 151

[130] سورة الأنعام - الآية 153

هذه المواضع «هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ»[131]. وهو يقصد ما سبق. «هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ»[132] والمقصود بـــ(هذا) هنا أي : ما سبق. وغيرها من المواضع في هذا السّياق من سورة (ص). وعلى ذلك حملت قوله من سورة الأنعام «وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ » على ما سبق. الجهة الثّانية التي حملتني على ذلك هو أنّ الصّراط المستقيم في رأسه الأعظم ـ أي عبادة الله سبحانه بدون أي شرك ـ سبقت الإشارة إليها في أوّل تلك الأيات من سورة الأنعام، بل بدأ بها. وهي قوله «قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» [133]. صحيح أنّ ذلك ليس بدعا. إذ أنه في السياق المناسب لهذا بشكل كبير من سورة الإسراء ذكر التوحيد الصافي في البدء ثم عاد إليه في الختام. كما أنّ الحديث الصّحيح ـ الذي قد يحتجّ به عليّ وهو أنه عليه السلام لّما ذكر هذه الآية بحضرة الصحابة خطّ في التّراب خطّا بإبهامه عريضا وخطّ على جانبيه خطوطا أخرى تتفرّع عنه أو تحاذيه ثم قال لهم : «هذا هو الصّراط المستقيم وهذه السبل»[134]. أقول أنّه ﷺ أراد بيان مقام الصّراط المستقيم من منازل السّبل المتفرّعة التي تندّ بصاحبها عنه. ولكنّه ليس هو في مقام شرح السّياق كلّه.

الذي أريد الوصول إليه هنا هو أنّ الصّراط المستقيم لا خلاف عليه في رأسه. أي التوحيد الصّافي من كلّ شوائب الشرك والعبادة الخالصة. ولكنّ الصّراط المستقيم عندما أراد سبحانه تفصيله إلى كلّيات عليا عظمى أخبرنا

---

[131] سورة ص - الآية 53

[132] سورة ص - الآية 55

[133] سورة الأنعام - الآية 151

[134] رواه الترمذي عن النوّاس إبن سمعان

في آية الأنعام أنّ تلك الكلّيات نفسها من مقتضيات الصّراط المستقيم. ثم عقّب على ذلك كلّه بقوله «وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا». أي أنّ ما سبق ذكره من كبائر عظمى تتعلّق كلّها بعد حقّ اللّه سبحانه في العبادة الخالصة بحقّ الإنسان في ماله وعرضه وأهله وغير ذلك.

يمكن أن أقول كذلك أنّ ما حملني على ذلك هو أنّ حقّ الإنسان في الكتاب العزيز مقدّس مكرّم مرفوع مشدّد فيه إلى أبعد حدود التّشدّد. ولذلك لا أجد ما يصرفني عن إعتبار أنّ الصّراط المستقيم له رأس هو إخلاص العبادة وتحرير الإعتقاد. وله عمد وذروة، هي تأمين حقّ الإنسان. كما ورد في تلك الآيات التي تشتبه بقدر عال مع سياق آيات سورة الإسراء. وهي تكفل حقّ الإنسان بدء من الأسرة المضيّقة والوالدين بصفة خاصّة إلى حقّ الإنسان عامّة. «قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ، أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ، نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ، لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ»[135].

وحتّى يشدّد على تلك الحقوق العظمى (حقّ اللّه في العبادة الخالصة. وحقّ الإنسان في الإحسان والتّكريم والتّحرير) ثنّى على ذلك بقوله «وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ»[136]. ذلك هو قولي في صراط اللّه المستقيم

---

[135] سورة الأنعام - الآية 151-152

[136] سورة الأنعام - الآية 153

سبحانه. عدا أنّ السّبع المثاني ـ بحسبانها العاصمة العظمى للإسلام ودينه وللقرآن الكريم وسوره ـ لا تفصّل في ذلك.

الصّراط المستقيم هو إذن منهاج المسلم : رأسه تحرير التّوحيد من الشّرك بكلّ صوره ومقاديره من جهة. ولكنّه كذلك تحرير الإنسان بدء من الأسرة وإنبساطا نحو الآفاق البعيدة من الظّلم والبغي والقتل والوأد والعدوان، سواء باللّسان أو بالقلم أو بالصّورة، أو باليد أو سّرا أو جهرا ، أو بقوّة الدّولة والعصابة أو بقوّة الفرد. ذلك هو معنى الصّراط المستقيم.

2 - كيف يكون الصّراط مستقيما؟

هذا مبحث مهمّ، قوامه أنّ اللّه خلع على الصّراط الذي يدعونا إليه صفة الإستقامة. الإستقامة من فعل : (إستقام يستقيم إستقامة). وهو فعل مزيد مجرّده : (قام يقوم قوما وقيامة وقوامة). أصل الصّراط إذن أنّه صراط قويم. فلمّا حمل على صيغة المبالغة أضحى صراطا مستقيما. صيغة الزّيادة هذه بثلاثة حروف (اـ س ـ ت) تفيد لغة طلب الشّيء أو الحصول عليه، أو طلبه والحصول عليه. وكلّ زيادة كما هو معلوم من علوم اللّغة في الفعل المجرّد تقتضيها زيادة في المعنى. أي أنّ الصّراط ينتقل من مقام القوامة إلى مقام الإستقامة حتّى يكون مكينا في القوامة، لا يتحوّل عنها. ولذلك قال سبحانه لنبيّه ولنا جميعا في الكتاب العزيز «فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ»[137] ومعنى الطلب : بالغ في القوامة ولزومها حتّى تتمكّن فيها وعليها. فلا ينزغنّك عنها شيطان ولا منها هوى متّبع. وبمثل

[137] سورة هود - الآية 112

ذلك مدح الذين إستقاموا. أي الذين تمكّنوا من القوامة على ما هم فيه من المنهج الإلهيّ حتى أضحى لهم ذلك مقاما مكينا.

هذا من حيث اللّسان وتركيباته الصّرفية. أمّا من حيث المعنى، فإنّ الصّراط المستقيم هو الصّراط الذي جمع بين طرفي الغلوّ فيه. فكان كما قال سبحانه في موضع آخر يبيّن لنا معنى الإستقامة «وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا»[138]. أي أنّ الإنسان عندما يعتدل في إنفاقه ويتوازن فيه سيما الماليّ منه يكون في صراط قويم وهو قوام. مثل ذلك الصّراط المستقيم بمعناه الجامع الشّامل الذي تبنّيته في الفقرة السّالفة. أي صراطا جامعا لكلّ معاني الإعتدال وقيم التّوازن ومثل الوسطيّة. فهو مستقيم بمعنى قويم، مبالغ في القوامة، حتّى أضحى مستقيما مكينا. والقوامة في الصّراط تعني لزومه الوسطية. فما هي مظاهر التوازن والوسطيّة والإعتدال في الصّراط المستقيم؟

الصّراط المستقيم هو الصّراط الجامع بين حقّ اللّه سبحانه في العبادة الخالصة بلا أيّ شائبة شرك من جهة، وبين حقّ النّفس فلا تحرم حقّها من طيّبات الدّنيا ولا يرسل عنانها لترعى كما ترعى الدابّة من جهة أخرى. وبين حقّ الإنسان كلّه فلا يعتدى عليه من جهة ثالثة.

الصّراط المستقيم عقيدة هو الصّراط الذي يعترف للّه سبحانه بحقّه ويؤدى إليه. وليس هو المنكر للإلهيّة بالكلّية أو الذي يثلّثها أو يعدّدها. وهو كذلك معالجة النّفس على أساس تأدية حقّ اللّه سبحانه بأمل في

---

[138] سورة الفرقان – الآية 67

رحمته ورجاء في فضله من دون أمن لمكره. الصّراط المستقيم عبادة هو كذلك المنهج الذي يلزم النّفس بحظّ من العبادة مسطور، فلا يرخي غاربها لتأكل من الدّنيا بلا رقيب ولا ضابط فتهلك. ولا يذلّها كما قال ﷺ «لا يذلّنّ أحدكم نفسه»[139]. وفسّر ذلك بأن يكلّفها من البلاء ما لا تطيق.

والصّراط المستقيم في معاملة النّاس كلّهم من الأسرة حتّى كلّ أفق فيه إنسان بإعتدال يعود إليه منهم حقّه ويعود إليهم منه حقّهم. فلا طغيان عليهم ولا إخسار، ولا إفراط ولا تفريط. ذلك هو معنى إستقامة الصّراط. أي لزومه القوامة التي هي الإعتدال والوسطيّة والتّوازن عقيدة وعبادة وخلقا وقيما ومعاملات ومعالجات للنّاس في كلّ الأحوال والظّروف يسرا وعسرا وسلما وحربا وفقرا وغنى وقلّة وكثرة وعداوة وصداقة.

من يدرس تفاصيل ذلك الصّراط المستقيم في القرآن الكريم يلفاه مثل ذلك عدا أنّ سورة الصّلاة ـ أي السّبع المثاني ـ لا تتفرّغ للتفصيل. بل تعكف على تسطير الأصول وتقعيد المقاصد وخطّ الإتجاه العامّ كما مرّ بنا آنفا. ذلك يعني أنّ الإستقامة هنا لا تعني المعنى الهندسيّ الجغرافيّ، أي أنّ الإستقامة هي خطّ مستقيم بذلك المعنى يصل بين نقطتين. هذا تصور سادج لأنّ الحديث هنا عن إستقامة معنويّة فيها بالضّرورة الفترات والشرات كما قال ﷺ في حديثه الصّحيح «لكلّ عمل شرّة ولكلّ شرّة فترة، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد إهتدى»[140]. وهذا معلوم من الشّريعة في رخصها وعزائمها ومن واقع النّاس.

---

[139] رواه الترمذي عن حذيفة

[140] رواه أحمد عن عبد الله إبن عمرو

3 - لا يهدي إلى الصّراط المستقيم إلا اللّه سبحانه

بدأ هذا الجزء الثّالث الأخير بقوله «إهدنـــا»، وهي إشـــارة ـ بل عبارة وعلامة ـ على أنّ الهدايـــة إلى ذلك الصّراط المستقيم الذي يحقّق سعـادة الدّارين لا تكون إلاّ من اللّه سبحانه وحده. ولا نريد الوقوع فيما وقعت فيه فلسفات غابرة أو حاضرة أو حتّى تحريرات إسلاميّة جعلت بسط عقيدة القضاء والقدر للنّاس بسطا بليدا. إذ قابلت بين الإرادة الألهيّة لقوله سبحانه «وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ»[141] وبين الإرادة البشريّة التي قال فيها سبحانه «فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ»[142].

ذلك منهج لا يستهويني. ولا أظنّ أنّه وفيّ لمنهج القرآن الكريم الذي لم يشيّد العلاقة بين الإرادتين على أساس التّقابل. وكيف يتقابل إله مع عبده؟ أو كيف يكون عبد ندّا لربّه؟ ومن جانب آخر فلن أتوسّع هنا طويلا لأنّ السّياق غير السّياق. إنّما الأمر المركّب على أساس أنّ اللّه سبحانه هو المدبّر المالك الذي هو على كلّ شيء قدير وهو سيّد الكون. ولكن تفضّلا منه سبحانه وحكمة ومشيئة جعل للإنسان هامشا من الحرّية يتناسب مع الوظيفة التي كلّف بها، أي وظيفة العبادة والتّزكية والعمارة. ومن ذا فإنّ المقارنة والمقابلة هنا لا معنى لها، لأنّ الحديث ليس عن إلهين حاشا للّه سبحانه، ولكنّ الحديث عن عبد ومعبود، أي عن مالك ومملوك. وعندما

---

[141] سورة التكوير - الآية 29

[142] سورة الكهف - الآية 29

يكون الحديث في هذا المستوى فإنّ الأمر كلّه للّه سبحانه. وهو الذي وهب الإنسان قدرا من الحرّية ليختار دينه مريدا. وعلى ذلك الأساس يحاسب يوم الدين. وإلا فأيّ معنى ليوم الدين؟ ولكنّ المقصود من قوله سبحانه (إهدنا) هو حقن الإنسان بمصل عنوانه أنّ الهداية من الله وحده سبحانه. وأنّ الدعاء بالهداية يسمعه الله ويستجيب له سبحانه. فما من خطوة يخطوها المرء حرّا مريدا مختارا في أيّ صراط إلاّ وفتح الله لها في وجه صاحبها ما شاء. فهو لا يكره أحدا على إيمان. ولا يكره أحدا على كفر. هذا الدعاء الذي نردّده ليل نهار صباح مساء (إهدنا) يحقننا بما يكفي من قيم الضراعة إليه وحده سبحانه ومثل الحاجة والفقر إليه وحده سبحانه. وذاك هو مراد الله منّا. أي أن نظل إليه وحده فقراء. ولذلك طلب منّا السجود والرّكوع. وهما في منتهى الذلّة والخضوع والخشوع والخنوع والطاعة. وذلك هو الإبتلاء الأكبر للناس. هل يتواضعون لجلال الله سبحانه أو يتكبّرون. (إهدنا) تعني أننا نسألك ليل نهار صباح مساء ذلك الصّراط المستقيم. ولا يغني ذلك عن عمل فهما ـ أي العمل والدعاء ـ متلازمان متوافقان صنوان لا يفترقان. فلا يهدي عمل بلا دعاء إلى ذلك الصّراط المستقيم. ولا يهدي دعاء بلا عمل إليه كذلك. تلك هي وسطية الصّراط المستقيم. وذلك هو إعتدال الإسلام وتوازن الإنسان فيه. وقد مرّ بنا آنفا أنّ هذا الدعاء (إهدنا) إنّما يتضرّع به المؤمن في كلّ ركعة إلى ربّه سبحانه الذي يملك القلوب ويقلّبها كيف يشاء. وهو يقصد كلّ إنسان ضالّ فيهدى إلى الإسلام. وكلّ مسلم أو مؤمن عاص ـ وكلّنا عصاة قطعا ـ إلى الإلتزام. فلا يستغني عابد عن الهداية ولا عن سؤالها حتى لو كان في مثل قلب جبريل عليه السلام. وليس دعاء الهداية مقصور على

الضّالّ فحسب. (إهدنا) بصيغة الجماعة إذ أنّ المهتدي وحده ـ أو أقليّة في أغلبيّـــة ـ مذلّة. فلا يقوى المؤمن إلاّ بأخيه. في هذه الضّراعة بصيغة الجماعة حاجة دنيوية ومنفعة عاجلة ومصلحة قريبة

4 – من ملح البيان

لا مناص من إثارة ملح البيان مع كلّ فقرة جديدة. لا مناص لك من أن تلاحظ أنّه لم يقل «إهدنا إلى الصّراط المستقيم» وهو الأمر الذي ورد في القرآن الكريم في مثل قوله سبحانه «وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ»[143]. ومواضع أخرى. ولكنّ اللّه سبحانه هنا حذف حرف الجرّ (إلى) ليكون المعنى المقصود المراد بدقّة متأدّيا بمبنى مليح جميل مثله. ذلك أنّ المقصود من حذف حرف الجرّ هو أن تكون الهداية إلى الصّراط المستقيم فوريّة ومباشرة وبلا وسائط وملتحمة معتنقة مشدودة لا تنفصل. ومن ذا فلا حاجة إلى حرف الجرّ. وهو على شاكلة قوله سبحانه في أكثر من موضع «فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ» وليس «فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ»[144]. إذ أنّ حذف حرف أو حرف جرّ يعني حصول المراد بأسرع ما يمكن وبأشد إلتحاما وإعتناقا فلا إنفصال بعد ذلك. وإلاّ فإنّ الأصل الذي عليه العرب أن يقول «إهدنا إلى الصّراط المستقيم».

أمّا الصّراط فهو السّبيل أو الدّرب أو الطّريق عندما يكون مشيدا مبينا بقوة. قوّة هذه الحروف المركبة له. وكلّها كما ترى مفخمة قويّة. وهو

---

[143] سورة يونس – الآية 25

[144] سورة هود – الآية 109

منهجي كما أسلفت في فهم اللّسان العربيّ. أي المنهج الصّوتيّ قبل كلّ شيء.

لا يمكن فهم الصّراط سوى أنّه طريق عتيد مشيد مبنيّ بكلّ أدوات القوّة والشّدّة، فهو لا ينهدم ولا يزول. ومن يمشي عليه يكون آمنا. ذلك التّعبير ينسجم مع الصّرط المستقيم في معناه الشّرعيّ. فهو صراط مشدود باللّه سبحانه. وهو صحيح راسخ ثابت وهو محميّ وآمن. ويضمن السّعادة في الدّارين. وهو صراط لا يهزم فكريّا أو ثقافيّا أو فلسفيّا مهما تطوّرت البشريّة وجادت قرائح المتهافتين فيها بالنّظريّات التي يظنّها الفارغون عتيدة. وهل أشدّ على المسلمين من النّظريّة الغربيّة التي أغوت ملايين مملينة من شباب المسلمين رجالا ونساء وخاصّة في عقود الخمسينات والستّينات والسّبعينات؟. ذلك هو معنى الصّراط لسانيّا. وهو معنى ينسجم مع المعنى الشرعيّ شدّة وقوّة ومتانة وأمنا.

5 – من إختلافات القرّاء والروايات هنا

وردت الرّواية بالصّراط هكذا رسما ونطقا، أي بصاد وراء وطاء. كلّها مفخمة. كما وردت رواية أخرى بالسّراط. أي بسين مكسورة بدل صاد. كما وردت رواية أخرى بزاي مكسورة بدل الصّاد الأولى والسّين الأخرى. وكلّها روايات وقراءات معتمدة. إذ هي ضمن القراءات المتواترة ورواياتها. وكما سبق القول فإنّ كلّ تلك الإختلافات التي ترعى الحالة اللّغوية زمن التّنزيل وفيها من الإعجاز ما فيها لا تكرّ على المعنى إذ يظلّ المعنى للصّراط هو هو، سواء قلنا أنّه صراط أو سراط أو زراط.

العاصمة الخامسة

ما هي النّعمة ومن هم أسواتها الأوّلون؟

مازال الحديث بلسان المؤمن في صلاته، ومازال السّياق دعائيّا «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ». الآن مع عاصمة أخرى بدأت بصيغة بدليّة. إذ أنّ قوله سبحانه «صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ» هي صيغة بدلية (أي بدل) من المبدل منه وهو «الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيم». ولذلك ورد هذا البدل بحركة المبدل منه، أي مفتوحا بما ظهر في آخره.

ودوما مع أنّ الفاتحة هي العاصمة البيانيّة العظمى والخلاصة التّفسيريّة الكبرى والرّأس القائد والربّان الهادي للقرآن العظيم كلّه. ومن ذلك أنّها تكتفي هنا في غرفة القيادة بالإشارة إلى أنّ الصّراط المستقيم هو صراط عمليّ ممكن من بني آدم، ومنهم أسوات وقدوات سلكوا ذلك الصّراط المستقيم. وهم الذين أسماهم هنا «أَنْعَمْتَ عَلَيْهِم». وسيأتي تفصيلها وبيانها في سورة النّساء إجمالا كذلك في قوله سبحانه «وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ

وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا»[145]. ولكنّ التّفصيل الأوفى والأشفى لذلك الصّراط المستقيم من حيث أنّه إمكان بشريّ مسلوك من المعصومين ومن غير المعصومين، كذلك سيكون مع القصّة في القرآن الكريم. وهي التي إحتلّت كما ذكر هنا مرّات أزيد من ثلث القرآن الكريم كلّه. وهي في الأغلب الأعمّ قصّة أولئك الذين أنعم اللّه عليهم. أي قصص الأنبياء (زهاء ثمانية عشر نبيا ومنهم رسل ومنهم أولو عزم)، وقصص الصدّيقين. ولم يذكر منهم هنا إلاّ ما كان متقمّصا لقميص النّبوة كذلك. وقصص الشّهداء والصّالحين. ولم يذكر منهم كما درج القرآن الكريم على ذلك في الأعمّ الأغلب إلاّ قليلا، عدا نماذج قليلة جدّا بالإسم. إذ العبرة في هذا المنهج القرآنيّ المنشئ للعقل المسلم الإيجابيّ الفعّال وسطيّة وإعتدالا وتوازنا هي بالعمل وليس بالعامل. إلاّ أن يكون ذلك العامل نبيّا، إذ أنّ عصمة النّبي ومنزلته تناسب ذكره.

1 - ما هي النّعمة؟

لا مناص من الملاحظة أنّه سبحانه ذكر أسوات ذلك الصّراط المستقيم وقدواته للبشريّة جمعاء قاطبة أنّهم محلّ إنعام عليهم منه هو وحده سبحانه. وفي ذلك ما فيه من شدّ الإنسان إلى عقيدته وإيمانه شدّا وثيقا وطيدا. أن تنسب النّعمة إلي غيره أسوة بقارون الذي قال: «إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي»[146]. حقن هذا السّياق هنا أي الصّراط المستقيم ببيان أهله القوّاد بقيمة النّعمة. هو ملحظ مهمّ لا يغفل عنه مؤمن. النّعمة

[145] سورة النساء - الآية 69

[146] سورة الحج - الآية 78

كما وردت في الكتاب الكريم الذي يفسّر بعضه بعضا هي نعمة الهداية. (النعمة بكسر النّون إذ أنّها عند ورودها بفتحها تعني قيمة أخرى). ومن ذلك قوله سبحانه في شأن محمد ﷺ ومولاه زيد في قضيّة طلاق زينب عليهما الرّضوان جميعا «وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ»[147]. أنعم الله على زيد بالإيمان وأنعم محمد ﷺ على مولاه زيد بالتّحرير. وذلك جمعا للموضعين من مواضع النّعمة في القرآن الكريم، أي موضع سورة النّساء المتقدّم معنا آنفا «فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم» [148] وهذا الموضع من سورة الأحزاب.

وردت النّعمة في الكتاب العزيز بمعان كثيرة، ولكن يمكن جمعها وردّها إلى رأس النّعمة. وهي نعمة الهداية التي قال فيها سبحانه في سورة المائدة «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا»[149] وهي من آخر ما نزل. ولا شكّ أنّ النّعمة هنا بتوسطها التّركيبيّ بين إكمال الدّين ورضوان الإسلام نعمة مشتركة بين كلا المعنيين.

والمعنيان سيّان إذ أنّ الدّين الذي أكمله اللّه لنا هو الإسلام الذي رضيه اللّه لنا. وهو في الحالين النّعمة الرّحمانيّة العظمى، وهي نعمة الرأس. وهي نعمة فيما عدا ذلك من نعم أخرى لا تحصى ولا تعدّ. إذ قال سبحانه «وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا»[150]. ونعم المنعم سبحانه لا تحصى، فليس أوّلها الهداية، وليس آخرها نعمة الحياة والحركة والمال والزّوج

---

[147] سورة الأحزاب - الآية 37

[148] سورة النساء - الآية 69

[149] سورة المائدة - الآية 3

[150] سورة النحل - الآية 18

والبنين والعافية. وما لا يأتي تحت إحصاء ولا عدّ. النّعمة هنا في شمولها وجماعها وفي إحتوائها على رأس أعظم أكبر وعلى جسم بفروع وأجزاء هي مثل الصّراط المستقيم كما مرّ بنا. كيف لا. والنّعمة في هذا السّياق الحاكم ـ حكم سورة الفاتحة على ما يليها من القرآن كلّه دون أيّ إستثناء ـ هي الصّراط المستقيم نفسه. إذ هي بدل عنها كما مرّ بنا. فالصّراط المستقيم هو النّعمة. والنّعمة رأسا هي الصّراط المستقيم.

كما أنّ القرآن الكريم فصّل في موضع آخر ـ عدا موضع سورة النّساء ـ في من هم الذين أنعم اللّه عليهم. أي أولئك القدوات الأسوات الذين كانوا بشرا ـ ومنهم كثير لا شأن له بالعصمة ـ ورغم ذلك سلكوا الصّراط المستقيم. وهو الموضع الذي قال فيه سبحانه في سورة مريم المكّيّة «أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا، إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا»[151] ويعود إسم الإشارة (أولئك) إلى المذكورين في السّياق المتقدّم من النّبيّين. ذلك أنّ هذه الطّائفة معصومة، فهي التي تقود سفينة الصّراط المستقيم. ويأتي من بعدهم ترتيبا أولويّا : الصدّيقون ثمّ الشّهداء ثمّ الصّالحون . كما سمّى اللّه سبحانه التّحرير من العبوديّة والإنعتاق من الإسترقاق نعمة بمثل ما ذكر في سورة الأحزاب (أي تحريره ﷺ لزيد). أبشر بدين يقرن بين النّعمتين كأنّهما نعمة واحدة : نعمة الهداية الربّانية ونعمة التّحرير من الرقّ والعتق من الإستعباد لغير المعبود الحقّ سبحانه. هذا ملحظ لا يفوتنّك البتّة. والنّعمة بالخلاصة هي كلّ ما يغشى اللّه به

---

[151] سورة مريم - الآية 58

عبده من هداية عقليّة وإستقامة عمليّة وفضل عيش ورغد حياة. ولذلك سمّى الأنعام كذلك بسبب أنّها مصدر العيش حمولة وفرشا ولبنا وجلودا منها المساكن والملابس. وهي مصدر الحرث والقناطير المقنطرة من الذّهب والفضّة وغير ذلك ولذلك وجبت فيها الزّكاة.

2 - لأيّ سرّ ذكر الصّراط المستقيم مسلكا بشريّا؟

هذا ملحظ مهمّ كذلك. ذلك أنّ الصّراط المستقيم ليس مسلك الملك فحسب. أو أنّه مثاليّات محلّقة لا يمكن إقترافها من غير الملك أو حتّى من غير المعصومين من الأنبياء. لذلك لم يتردّد الوحي في هذه العاصمة التّفسيريّة (غرفة قيادة القرآن العظيم كلّه) في النصّ على أنّ ذلك الصّراط المستقيم مسلك بشريّ سلكه غير الأنبياء، أي الصّديقون والشّهداء والصّالحون. وكلّهم بشر لا شأن لهم بالعصمة، وهم يصيبون ويخطئون، وهو أمر بالغ الأهمية. إذ أنّه ينتشر في الأمّة والبشريّة جمعاء من حين لآخر خلط قوامه أنّ الدّين ـ والإسلام بصفة خاصّة ـ مثاليّة محلّقة وعسر وشدّة وحياة ضنك وسجن وظلمات وعنت وحرج ومشقّات وصعوبات لا يقوى عليها البشر. ومن ذا يزيّن الشّيطان للنّاس فيجتالهم عن دينهم ويغتالهم عن الصّراط المستقيم. ألا ترى أنّ كثيرا من الدّعاة يقدّمون الإسلام للنّاس وفق ذلك التّصوّر الخاطئ؟ وذلك من خلال تركيزهم على القدوات النّبويّة وأسوات الصحابة من الجيل الأوّل المؤسّس الذين قد لا تجود الدنيا بمثلهم. من مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزّبير وخديجة وعائشة وغيرهم رجالا ونساء بالعشرات ؟ ذلك منهج تعليميّ تربويّ خاطئ. حتّى لو حسنت نيّة أولئك الدّعاة، لأنّ عاقبته وخيمة. وهي أنّ هذا الصّراط

المستقيم هو صراط النّبوة وصراط الصدّيقين والشّهداء. فيظنّ النّاس أنّ هؤلاء من غير الأنبياء لم يخطؤوا أو لم يقصّروا، وهو ظنّ ساذج واهم. ولكن يغذيه في الأغلب الأعمّ الخطاب الدّينيّ الدّعويّ مرتجلا ومكتوبا. ويجد له مواطئ قدم راسخة في النّفس التي تتأبّى عن سلوك ذلك الصّراط بحسبانه وعرا صعبا شاقّا لا يقوى عليه غير من تشبّه بالملك.

ولذلك لم يتردّد القرآن الكريم في ذكر الأخطاء التي وقع فيها أولئك سواء بحسن نية، من مثل قتل موسى عليه السّلام الغلام، أو إباق يونس عليه السّلام من قومه أن كذّبوه ظانّا أن اللّه لن يقدر عليه، أي لا يضيّق عليه الأرض ليستريح من إعراض قومه وتكذيبهم إيّاه زورا وبهتانا. عدا ما وقع فيه غيرهم ممّن لم يعصم. وهو منهج قرآنيّ قوامه الواقعيّة والتّيسير ورعاية الطّوارئ والضّعف والقصور. ولذلك إمتلأ الكتاب العزيز بشدّ النّاس إلى الأمل في الغفران والرّحمة والرّأفة والحلم والعفو.

لا زال ظنّي قائما على أنّ إساءات المسلمين عندما يكونون قدوات وأسوات للإسلام ولمنهجه أكثر من إساءات أعدائه إليه. إذ أنّ إساءات أعدائه معروفة مفهومة ولا يرقب غيرها. ولكنّ إساءات القدوات والأسوات تحمل من النّاس في جملتهم وعامتهم أنّها تعليمات إسلاميّة. ومن ذا جاء الأثر صحيحا أنّ ربابنة الإصلاح والإفساد معا في الأمّة هما : العلماء والأمراء. وعزّز ذلك بأثر آخر صحيح (الناس على دين ملوكهم). ولذلك نفسه كذلك ورد الحديث النبويّ الصّحيح مؤكّدا أنّ الناس بحاجة إلى رواحل وعدول تهدي النّاس الصّراط المستقيم وفق منهج القرآن الكريم نفسه وليس وفق أهواء من إستبدت به العاطفة الحماسيّة أو اليأس

«إِنَّمَا النَّاسُ كَالإِبِلِ المِائَةِ، لاَ تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً»[152]. ذلك هو السرّ الذي جعل هذا السّياق يذكر أنّ الصّراط المستقيم مسلك بشريّ أنعم اللّه عليهم به. إذ هو الهادي سواء السّبيل، وليس هو مسلك ملكيّ فحسب. ولا حتّى مسلك نبويّ فحسب، وأنّ الأخطاء مهما كثرت وعظمت مادامت فوق درب الصّراط المستقيم فهي مغفورة إن شاء اللّه ما أعقبتها توبات وإستغفارات وندمات. فلزوم الصّراط المستقيم سيّما في رأسيه الكبيرين اللّذين مرّا بنا أي (التّوحيد عفوا من كلّ شأئبة شرك وتقديس الإنسان أن يوطأ في حرماته المادّية والمعنويّة) مكفّر لكلّ ذلك إن شاء اللّه.

3 – المطلوب هو إذن : دراسة القصّة القرآنية

تلك هي التّرجمة العمليّة لهذه العاصمة الخامسة. أي أخذ الكتاب بقوّة ودراسة القصّة القرآنيّة التي إحتلت منه ثلثه وزيادة. وهي قصّة إحتوت سيرة الأنبياء والصّديقين والشّهداء والصّالحين عملا لا إسما. إلاّ فيما يتّصل بالنّبوة بسبب العصمة.

حريّ بالمؤمن أن يتوقّف سنوات طويلات في ظلال تلك القصّة : قصّة موسى عليه السّلام الرّسول النبيّ الكليم الذي لم يتردّد أن سأل ربّه سبحانه أن ينظر إليه بعينيه شوقا إليه من بعد ما أسمعه سبحانه صوته. موسى عليه السّلام الذي بعث لبني إسرائيل محرّرا بالمقام الأوّل وليس هاديا. والدّليل على ذلك أنّه لم يحمل معه في هجرته البحرية من مصر عدا المؤمنين فحسب. إنّما حمل معه من ينتمي إلى الطّائفة الإسرائيليّة بحسبانها

---

[152] روى البخاري (6498) ، ومسلم (2547) عن عَبْد اللَّهِ بْن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

طائفة مضطهدة مستعبدة مسترقة. ولذلك عندما دخلوا سيناء قال فيهم سبحانه «وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ»[153].

موسى عليه السلام الذي ألقى الألواح ـ أي القرآن الذي أنزل عليه على الأرض. وهو أمر لا يليق بمؤمن ولكن بسبب أنّه في حالة غضب للّه وحده سبحانه غفر اللّه له ذلك ولم يعاتبه عليه مجرّد عتاب. وهي قيمة علينا تعلّمها. فلا نسوّيّ في النّاس بين مخطئ وخاطئ، وبين عامد ومكره. وغير ذلك مما يمكن أن تزكي به نفسك وعقلك معا من قصّة موسى عليه السّلام. وهي أطول قصّة في القرآن الكريم كلّه. ومن ذلك المشهد الفرعونيّ والهامانيّ والقارونيّ والسامريّ والهارونيّ والإسرائيليّ ومشهد أمّه عليها السّلام التي إمتلأت يقينا وثقة وأملا في اللّه سبحانه. كيف لا. وهي تلقي بفلذة كبدها بنفسها في اليمّ؟ أليس ذلك هو الذي حصل مع إبراهيم الخليل عليه السّلام الذي لبّى داعي ربّه سبحانه في رؤية مناميّة بأن عمد إلى ذبح إبنه الوحيد إسماعيل وقد بلغ معه السّعي بمدية؟

تلك هي القدوات والأسوات المقصودة بقوله سبحانه في السّورة الخلاصة التي تقود غرفة القيادة في المربنة «صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ». والقصّة في القرآن الكريم طويلة منداحة حقنها اللّه سبحانه بفقه الحياة في كلّ شعبها ودروبها حقنا عجيبا. فهل من مدّكر؟ لذلك أجملت غرفة القيادة أي السّبع المثاني قصّة الذين أنعم اللّه عليهم وجاء القرآن الكريم يليها يفصّل فيها تفصيلا حتّى نعلم ما هي الإعتقاديّات والتّعبديّات والعمليّات

[153] سورة الأعراف - الآية 138

والقيميّات التي إرتفع بها أولئك الذين أنعم اللّه عليهم (ومنهم من ليس نبيّا فهو غير معصوم ـ بل منهم من وقع في الخطإ فتاب اللّه عليه وتاب) وحسبنا أن نكون في إثرهم على الصّراط المستقيم. هذا أسلوب تشويقيّ أي أنّه يجمل الأمر ليسيل لعاب المنصت ويدفعه إلى التّفصيل دفعا.

العاصمة السّادسة

من هم المغضوب عليهم؟

أصل الكلام هو «صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ». ولكن حذف كلمة (صراط) أوّلا لأنّه ليس للمغضوب عليهم ولا للضّالين من بعدهم صراط، أذ رأينا أنّ الصّراط درب متين آمن قويّ شديد يحفظ من فيه. وليس ذلك لغير الذين أنعم اللّه عليهم. وثانيا لأنّ المغضوب عليهم أنفسهم والضّالين من بعدهم يمكن أن يتوب اللّه عليهم فيتوبوا. فلم يحكم عليهم بصراط يقود إلى النّار؟ هذا يسمّى كما مرّ بنا ربما آنفا محذوف مقدّر.

هذه العاصمة السّادسة تواصل تبيين الصّراط المستقيم، فهو صراط الذين أنعم اللّه عليهم، ولكن لا يستبين سبيل الحقّ حتّى يقارن بسبل الباطل. وكما قال الشّاعر (بضدّها تتميّز الأشياء). فكان لا مناص من تمييز صراط المنعم عليه بمقارنته بغيره. وإنّما يفتقد البدر في اللّيلة الظّلماء كما قال حكيم آخر.

سؤالان هنا لا مناص منهما : أوّلهما من هم المغضوب عليهم؟ وثانيهما هو : لم غضب اللّه عليهم؟ ومعلوم أنّه أتى بهم بإسم المفعول (مغضوب) في حين أنّه أتى بالمؤمنين المتّقين من قبلهم من أهل الصّراط المستقيم بصيغة الفعل الماضي الذي يفيد القرار والثّبات والدّوام فقال (أنعمت عليهم). وسيأتي في العاصمة الأخيرة حديثا عن الضّالين بصيغة إسم الفاعل التي تفيد ما سنراه إن شاء اللّه.

1 – المغضوب عليهم صنفان : كفّار ومؤمنون

هذا أمر مثير منذ البداية، ذلك أنّ أغلب الذين أعلن اللّه سبحانه غضبه عليهم هم كفّار بصفة عامّة. عدا أنّه خصّ بني إسرائيل أكثر من غيرهم بهذا، وخاصّة من الطّائفة اليهوديّة. وعلّل ذلك بقبائح منها أنّهم إتخذوا العجل ـ أي عبادة ـ من دون اللّه سبحانه في الوقت الذي كان فيه معهم نبيّهم موسى عليه السّلام وأخوه هارون عليه السّلام، ووقع كلّ ذلك من بعد إنجائهم وأعينهم تطرف وترى فرعون الذي أغرقه أمامهم. فهل بعد هذا الكفر من كفر؟

من يقرأ القرآن الكريم وخاصّة سورة البقرة وآل عمران والنّساء والمائدة يدرك بيسر المدى البعيد الذي طوّح فيه بنو إسرائيل وخاصة الشقّ اليهوديّ، إذ كانوا يتفنّنون في الكفر والإلتواء على تعاليم ربّهم سبحانه، فما أشبعت نهمهم إلى الكفر البواح الصّراح آيات مادّية صارخة تظلّ الأعناق لها خاضعة.

هناك صنف آخر من الكفّار إستوجبوا اللّعن في القرآن الكريم مرّات. وهم الذين يتّخذون الكافرين أولياء، ويبدو أنّ هؤلاء من المنافقين المردة

الذين ينخرطون في كلّ مبادرة تجعل الإسلام لدى ما نسمّيه نحن اليوم الشّاهد الدّوليّ أضحوكة وألعوبة. بما يدعو إمّا إلى الرّدة عنه أو عدم الدّخول فيه بالمرّة. أكثر هؤلاء ـ بل كلّهم تقريبا ـ من بني إسرائيل ومن الطّائفة اليهوديّة تحديدا. ذلك أنّهم برعوا في تقسيم الأدوار، فكانت منهم طائفة تظهر الإسلام نفاقا وتخفي الكفر ليتمكنوا من الحياة داخل المجتمع الإسلامي متخفّين مستترين، فيعملون فيه سمومهم نفثا كما تعمل الحيّة أو العقرب سمّها في الضّحيّة وهي تعيش معه ليل نهار صباح مساء. وطائفة أخرى ظلّوا على كفرهم. ومعلوم أنّ النّبي محمدا ﷺ ومن معه واجهوا فتنة النّفاق فكان عليهم أشدّ من فتنة الشّرك والصّدّ عن سبيل اللّه في مكّة بأضعاف مضاعفة. هؤلاء إستحقوا الغضب لأنّهم إتخذوا اليهود والنّصارى وغيرهم أولياء من دون المؤمنين وهم يعيشون مع المؤمنين. ويكفيك ذلك تصريما للصّف وخذلانا للنّاس وإشاعة للقالة السّيئة عن الدّين الجديد وتمكينا لأعدائه منه.

كما إستوجب الغضب في الكتاب العزيز طائفة أخرى ذكرها القرآن الكريم وهي طائفة المرتدّين. رغم أنّ حركة الإرتداد لم يعرفها الإسلام قطّ عدا أنّ حركة الرّدة هي حركة يجنح إليها أولئك المنافقون في تقسيم للأدوار داخل طائفتهم نفسها للغرض الخبيث نفسه. من ذلك أنّهم كانوا يحرّضون جماعتهم على الإيمان بالإسلام أوّل النّهار والكفر به آخره. أما الرّدة الحقيقيّة سيّما الفرديّة منها التي لم تجد في الإسلام ما يغريها من بعد إعتناق، فهي أندر من النّدرة وأقلّ من القلّة. ولذلك أرجأ اللّه أمر أصحابها إلى الآخرة. في الدّائرة الكفرية تلك هي أبرز الطّوائف التي إستحقت غضب اللّه سبحانه، هي دائرة كفريّة جمعتها سمة واحدة وهي إختيار الكفر

الصّراح البواح نفاقا أو جهارا من بعد ما تبيّن لهم الحقّ والهدى وظهرت الأيات التي لا تعدمها بصيرة ولا يعمى عنه بصر.

ولا شك أنّ اليهود من الخارج والمنافقين من الدّاخل هم من يقود تلك الحركة ويؤجّجها وليست النّصارى في وضع أدنى سوء بسبب إصرارهم على عبادة عيسى عليه السّلام وقد تبيّن لهم الهدى. وفي موضع آخر جمع المنافقين والمشركين نساء ورجالا في سورة الفتح المدنيّة إذ قال سبحانه «وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ، عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ، وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا»[154].

الغضب الإلهيّ إذن ليس مقصورا على دائرة واحدة من دوائر الكفر عندما يكون الكفر عن بيّنة. إجتمع فيه أهل الكتاب مع المنافقين وهؤلاء مع المشركين ويظلّ يشمل الكفر من حيث أنّه عمل وإعتقاد في كلّ زمان وفي كلّ مكان ما كان كفرا صحيحا وعن بيّنة صحيحة.

2 – من المؤمنين صنفان غضب اللّه عليهم

الصّنف الأوّل : المعتدي على حقّ الحياة بلا حقّ

لا نجد في القرآن الكريم كلّه مؤمنا سلّط اللّه عليه غضبه ـ بعد الصّنف الثّاني الذي يأتي الحديث عنه ـ عدا المعتدي على حقّ الحياة بلا حقّ. ولا حقّ سوى القصاص، إذ القتل أنفى للقتل كما قالت العرب. وفي القصاص

---

[154] سورة الفتح – الآية 6

حياة كما قال سبحانه. موضع ذلك جاء في سورة المائدة، إذ قال سبحانه في موضع غضب ربّما لم يكن مثله «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا»[155].

لم يرد مثل هذا الوعيد إلاّ مرّة واحدة يشمل الكفّار الذين أصرّوا على الكفر حتّى من بعد ما تبينت لهم كلّ آيات الإسلام والإيمان وصدقيّة رسالة محمد ﷺ. صحيح أنّ فعل الغضب جاء فعلا وليس إسما كما جاء في شأن الكفّار الذين سبق الحديث عنهم، ولعلّ ذلك بسبب أنّ هذا المعتدي مؤمن ـ أو قد يكون مؤمنا ـ ولكنّ الغضب هو الغضب. وقد ورد بالصّيغتين إسما وفعلا حتّى عند الحديث عن الكفّار، سيما أنّه إقترن باللّعنة التي لا تبعد عن الغضب كثيرا سواء جاءت دونه أو فوقه.

هذا الموضع لا يفهم إلاّ في ضوء موضع آخر ورد في سورة المائدة نفسها وهو الموضع الذي يبين الحكم بعموم، إذ قال سبحانه هناك تعقيبا على قصّة إبني آدم «مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا»[156] ومن ذا فإنّ الجمع بين الموضعين ـ وهو المنهاج الإسلاميّ الصّحيح في الفهم والفقه والتّفسير ـ يخبر بأنّ العدوان على النّفس البشريّة البريئة يستوجب غضب الرّحمان سبحانه ولعنته وما إلى ذلك ممّا ورد بغضّ النّظر عن إختلاف الدّين أو اللّون أو اللّسان. ذلك هو الإسلام وتلك هي شريعته : غضب اللّه سبحانه يسلّط على الكافر من بعدما تبين له الهدى، كما يسلط على المؤمن الذي

---

[155] سورة النساء - الآية 93

[166] سورة المائدة - الآية 32

يطأ الإنسان البريء ويلغ في دمه. إذ أنّ حقّ الحياة في الإسلام هو أقدس حقّ.

الصّنف الثاني: المعتدي على مقام اللّه والأسرة والعرض

هذا الصنف الثّاني الأخير الذي سلّط اللّه فيه غضبه على مؤمن، وهو الذي قال فيه سبحانه في آيات اللّعان في سورة النّور «وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ»[157]. أي الزّوجة التي تكون في مجلس قضائيّ تأتي إليه حرّة مريدة مختارة إذ يرميها زوجها بالزّنى ولا بيّنة له عليها، فلا ترعوي أن تقسم باللّه سبحانه في ذلك المجلس وهي حرّة لا مكرهة باطلا وهي تعلم أربع مرّات متعاقبات. فإنّ اللّه سبحانه يسلّط عليها غضبه. هذه المرأة إقترفت في هذا المجلس كلّ الموبقات، فهي لم ترع مقام اللّه سبحانه في مجلس قضائيّ. ولم تبال أن تقسم به أربع مرّات متتاليات وهي تعلم كذبها. ومن جهة أخرى فإنّها ضحّت بمؤسسة الأسرة المقدّسة في الإسلام لأجل تبرئة نفسها باطلا. وتبعات ذلك معروفة سيّما من جانب الولد، ومن جهة ثالثة فإنّها حكمت على زوجها بهوان العرض أو القيمة المعنويّة بين النّاس، فلا رصيد له بينهم حتّى يموت. إذ أنّها بقسمها ذاك تظهر للنّاس أنه كاذب، وهو صادق، ولكن ليس له شهود وبينات. هوان ذلك الرّصيد على المؤبّد لا يلحق بزوجها وبالأسرة الصّغيرة فحسب. بل يلحق بأسرته الكبرى وربّما تكون قبيلة مترامية الأطراف وتشابكات أخرى من الأرحام والأصهار والجيران وغير ذلك. لذلك

---

[157] سورة النور – الآية 6

إستوجبت غضب اللّه سبحانه، إذ إقترفت كلّ الموبقات في مجلس واحد بثمن زهيد بخس هو تبرئة نفسها.

ليس هذا الغضب على جريمة الزنى،كلاّ. ولا حتّى على قسم واحد أو مثلّث أو مربّع باللّه سبحانه باطلا عندما يكون المرء في غير هذا المجلس رغم فحش هذا الفعل. ولكن عندما تجتمع كلّ هذه الموبقات لتعرّض رجلا بريئا وتحكم عليه بالمؤبّد بالفسق فلا تقبل شهادته إعتباريّا بين النّاس ومن خلفه أسر وعائلات وأصهار وإرتباطات، وقد لا يجد من يزوّجه أصلا فإنّ العدل الإلهيّ هو أن يسلّط الغضب على مثل هذه حتّى وهي مؤمنة.

الإيمان ليس لعبة أو دعوى، ولكنه إلتزام بحدّين لا مناص منهما : حدّ مقام اللّه سبحانه من بعد تبين البيّنات على أنّه الحقّ سبحانه. فإن لم يكن ذلك فلا أدنى من عدم التّعالي على مقامه بالصدّ عن سبيله أو الحلف به مرّات متعاقبات باطلا. وحدّ مقام الإنسان الذي قدّسه القدّوس سبحانه.

ولا مناص من التّذكير بالدّقّة البلاغيّة لهذا النّظم المعجز، إذ أنّه ميّز بين مؤمن إقترف المعصية العظمى أي العدوان على حقّ الحياة أو على حقّ الأسرة ومقامه الكريم سبحانه والرّصيد المعنويّ لشريك الزّوجيّة. هذا غضب عليه بالفعل ـ أي بصيغة الفعل ـ وهي أدنى دون ريب. وبين كافر ـ وهبه سبحانه فضلا منه حقّ الكفر إن شاء على أن يتحمّل مسؤوليته الفرديّة بعد الموت ـ ولكنّه لم يقصر جريمته على الكفر من بعد ما تبيّن له الهدى، إنّما إقترف جريمة الصدّ عن سبيل اللّه سواء بالنّفاق الجبان أو بشتّى الإلتواءات والخيانات والغدرات التي عرف بها الإسرائيليّون وخاصّة في الشقّ اليهوديّ. هؤلاء غضب عليهم بالإسم ـ أي بصيغة الإسم ـ وهذه

أقوى دون ريب. ولكن يظلّ الغضب هو الغضب والعياذ باللّه. ولكن هل أن اللّعنة الحاقّة بالزّوج في مشهد الملاعنة أقّل دنيّة من الغضب؟ لا أظنّ. سوى أنّه أراد سبحانه أن ينوّع العذاب ليكون لعنة وغضبا معا على هذين الزّوجين اللّذين مزّقا هذه العائلة شرّ تمزيق من بعد إفضاء لا يليق به هذا.

العاصمة السّابعة:

من هم الضّالّون؟

أصل الكلام هو «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ». وكما قلنا في الفقرات السّالفة، فإنّ أهل الباطل ـ سيّما من الكفّار بكلّ أنواع الكفر ـ ليس لهم صراط. إنّما هي سبل متفرّقة. فلا ينسب لهم صراط متين قويّ آمن حافظ. ولذلك حذف هذا المقدّر لتوكيد ذلك المعنى، ويشترك في هذا المغضوب عليهم والضّالون سواء بسواء. أشير إلى أهل الصّراط المستقيم ـ أي الذين أنعم اللّه عليهم ـ بصيغة الفعل، لأسباب منها بيان أنّ المنعم عليهم هو اللّه سبحانه وتعالى. فإن قيل «المنعم عليهم» كما قيل « المغضوب عليهم»، فإنّ ثمرة من ثمرات التّوحيد تنتفي. ولا بدّ من إبراز المنعم من هو. ومعلوم أنّ هذا السّياق كلّه إنّما لسان المتكلّم، وهو المؤمن المصلّي. ولا مناص من تغذية لسانه بهذا الدّعاء وهذه القيمة لعلّها تترسّخ في فؤاده. ولكن عند الحديث عن المغضوب عليهم جاء بصيغة إسم مفعول. إمعانا في أنّ الغضب حاق وإكتمل وقرّ قراره. ولكنّه عند تفصيل ذلك في القرآن الكريم من سورة البقرة حتّى

سورة النّاس، ميّز بين المغضوب عليهم من الكفّار الذين سبق الحديث عنهم وعن أصنافهم وبين المؤمنين الذين إقترفوا ما يستوجب غضب اللّه عليهم، ولكنّه جاء بالفعل وليس بالإسم. ولك أن تعود إلى موضع المائدة «وغضب الله عليه» أي في شأن القاتل بعدوان لا قصاصا أو بحقّ. أما في شأن الملاعنة، فإنّها هي بنفسها من تقول ذلك في آخر قسم لها. ولكنّ ذلك لا يعفيها من المسؤوليّة بطبيعة الحال.

أما عند الحديث عن الضّالين، فإنّه جاء بإسم الفاعل ولكنّه في مقام إسم المفعول الذي لا يستخدم لسانا عربيّا إذ هو «المضلّين» بفتح الضّاد. أي من فعل (ضلّ ـ يضلّ ـ ضلاّ وضلالا. فهو مضلّ بكسر الضّاد ليكون إسم فاعل. وهو مضلّ بفتحها ليكون إسم مفعول). ولكنّ هذا غير مستخدم. ولذلك يستعاض عنه بإسم الفاعل الصّناعيّ، أي ضالّ. ليكون الضالّ إسم فاعل وإسم مفعول معا. ومعلوم أنّ الإتيان بالميم هنا لتركيب إسمي الفاعل والمفعول فيه ثقل تتجنّبه العرب.

ولكن هناك معنى آخر لا يمكن إغفاله وهو أنّ الضّالين لم يضلّوا إلاّ من بعد صمم مقصود أو عمى مراد. أي من بعد الإعراض عن الآيات والبيّنات والأمارات والعلامات أنّ عيسى عليه السّلام لا علاقة له بالإلهيّة حبّة خردل. ذلك أنّ الضّالين في العموم ليسوا هم النّصارى فحسب كما راج، ولكن تمثيلا يقتضيه حال التّنزيل، وليس عموما يقترن بهم في كلّ زمان وفي كلّ مكان. المعنى الجديد هو أنّ الضّالين أضلّوا أنفسهم. لأنّ اللّه سبحانه لا يحاسب إمرء يوم القيامة إلاّ من بعد الثّبوت قطعا أنّ الرّسالة النّبويّة وصلته صحيحة رقراقة كافية شافية ضافية، وكان هو في حال من الأهليّة لا إكراه فيها. ورغم ذلك ركل الهدى. وما يكون ذلك في الأعمّ

الأغلب إلاّ كبرا كما هو معروف من خلال الإستقراء العامّ الجامع للقرآن الكريم . لكلّ ذلك سمّاهم الضّالين. وتحمل على أنّها إسم فاعل بدل المضلّين «بكسر الضاد».

المقصود هنا هو أنّهم ضلّوا لأنّهم أضلّوا أنفسهم بأنفسهم ولم يقع عليهم فعل الإضلال، ومن ذا فإنّهم يتحمّلون المسؤوليّة على قاعدة ألاّ تزر وازرة وزر أخرى. ولو كان ذلك غير كذلك لإستخدم فعل «أضلّ ـ يضلّ ـ إضلال ـ فهو مضلّ أي إسم فاعل وهو مضلّ أي إسم مفعول». ولقال عنهم «المضلّين» أو «المضلّلين». والله أعلم

1 - الضّلال في القرآن الكريم

عالج القرآن الكريم هذا الجذر لسانيّا من أصله كما عالجه معنويّا وأناطه بعمل أو إعتقاد. لسانيّا فإنّ الضّلال هو السّير على غير هدى أي توها بغير هدف محدّد. من ذلك أنّ أصحاب الجنّة في سورة (القلم) عندما رأوا جنّتهم حصيدا، ظنّوا أنّهم أخطؤوا الطّريق، فقالوا إنّا لضالّون، أي تائهون عن الطّريق الصّحيح المفضي إلى الجنّة. وبمثل ذلك المعنى إستبعد المشركون البعث فقالوا «أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» [158] أي إذا حولتنا الأرض من بعد الموت إلى تراب. فأنّى نبعث؟

الضّلال هو كذلك ضعف في الذّاكرة التي قد يندّ عنها شيء. إذ علّل سبحانه إشهاد إمرأتين على الحقوق الماديّة والماليّة للنّاس بعلّة «أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى» [159]. الضّلال هنا معنويّ، أي بسبب

[158] سورة السجدة - الآية 10

[159] سورة البقرة - الآية 282

ضعف الذّاكرة قد تزلّ المرأة بصفتها شاهدا هنا. والضّلال هو كذلك ما كان عليه محمد ﷺ نفسه قبل البعثة، إذ قال له ربّه سبحانه « وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى» [160]. الضّلال هنا هو الضّلال الفطريّ الجبلّيّ الذي يغشى كلّ من ليس لديه من السّماء وحي. وليس هو الضّلال الذي ورد في شأن المشركين الذين يعبدون الأصنام. تلك هي أبرز معاني الضّلال من النّاحية اللّسانية.

ولكن ورد الضّلال في القرآن الكريم أي بجذره وبتراكيب كثيرة فعليّة وإسميّة مرّات كثيرات، وبأكثر ممّا ورد جذر الغضب وبفارق كبير. ممّا لا تخطئه العين المستقرئة في الكتاب العزيز أنّ أكثر ما يصرف الضّلال إلى المشركين. من ذلك قوله عنهم « وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا»[161]. وورد مثل هذا في سورة الأنعام مرّات. وهي السّورة المتمحضة لبيان التّوحيد الصّافي ودحض الشّرك لأنّها مكّية ونزلت دفعة واحدة.

وفي سورة مكيّة أخرى هي سورة (المؤمنون) قال المشركون يوم القيامة «رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ»[162]. أي مشركين بلا خلاف هنا. وبمثل ذلك قال إبراهيم عليه السّلام في رحلته الشيّقة العجيبة من الشكّ إلى اليقين «لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ»[163]. أي المشركين كذلك بلا خلاف. وقال هو نفسه عن أبيه «إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ»[164]، أي من المشركين بلا خلاف كذلك.

---

[160] سورة الضحى - الآية 7
[161] سورة النساء - الآية 116
[162] سورة المؤمنون - الآية 106
[163] سورة الأنعام - الآية 77
[164] سورة الشعراء - الآية 86

وورد وصف المكذبين بأنّهم ضالّون. المكذّب في القرآن الكريم عادة ما يكون المشرك لأنّه مكذّب بالبعث. وليس أهل الكتاب ممّن يكذّب بالبعث في الأغلب عدا أنّهم يؤمنون أنّ صلب عيسى عليه السّلام ـ كما يدّعون كذبا ـ شفيع لهم. أو مثل ذلك عند غيرهم.

كما ورد أنّ القنوط من رحمة اللّه سبحانه ضلال. ولكنّ القنوط المقصود هنا هو قنوط الكافر بصفة عامّة سواء كان كتابيّا أو مشركا أو مرتدّا أو منافقا. لأنّ المؤمن لا يقنط من رحمة اللّه بالكلّية، فإن كان كذلك فقد كفر. كما خلعت صفة الضّلال على أهل الكتاب. ولكنّ الذي يفيده الإستقراء أنّ صفة الضّلال أكثر ما خلعت على الكفر الشّركيّ. وليس بمثل ذلك على أهل الكتاب. وهذا يعني أنّ الضّالين هم الكفّار بصفة عامّة سيما ممّن أشرك باللّه سبحانه. فهم يشتركون مع المغضوب عليهم في الكفر (عدا الصّنفين اللّذين وقع الحديث عنهما ممّن غضب اللّه عليهم وهم مؤمنون)، ولكنّ الضّالين بصيغة الإسم هذه وعلى ندرة وجودها في القرآن الكريم هم طائفة من الكفّار الذين لم يرتبطوا بكتاب سالف ولا نبيّ سالف. وربما هم كذلك من أرباب الشّرك الذين إتخذوا الملائكة أربابا وشفعاء كما هو حالهم في مكّة.

سمّوا ضالّين لأنّهم ـ معنى لغويّا ـ تاهوا في بيداء الحياة، فأصبحوا ترابا مع التّراب وأنعاما مع الأنعام. و لم يفتحوا بصائرهم على الآيات التي تثبت نبوّة محمدﷺ والمصدريّة الإلهيّة للقرآن الكريم. هكذا تبيّن لي. وهو بخلاف ما وقر في أكثر النّاس اليوم وفي التّفاسير كذلك أنّ الضّالين هم النّصارى. وأنّ المغضوب عليهم هم اليهود. الإشتراك بين المغضوب عليهم والضّالين إشتراك كبير، وهو الإشتراك الفعلي والعامد في الكفر عن بيّنة. وليس عن

غير بيّنة، ولكن ما وردا هنا متمايزين إلاّ لنعلم أنّهما مع ذلك الإشتراك يختلفان. ولكن لم أقف في الكتاب العزيز على ما يؤكّد أنّ الضّالين هم النّصارى، بل على الضدّ من ذلك. فإنّ إنخلاع صفة الضّلال على المشركين المتميّزين في كفرهم عن أهل الكتاب أوكد من إنخلاعها على النّصارى. عدا أنّ المغضوب عليهم إنحصروا ـ كما سبق بيانه ـ في الكفّار الموغلين في الكفر، سيما ممّن أصرّوا على تأليه هذا النّبي أو ذاك. ولذلك جاءت الصّيغة عليهم أثقل، فهم مغضوب عليهم وقضي أمرهم. وهي صيغة أخفّ وطأة قليلا من صيغة الضّالين كما مرّ بنا.

2 ـ هل يكون المؤمن ضالاّ؟

هذا سؤال خطير فعلا ذلك أنه لا ملجأ لنا في هذه الأمور عدا الغيب الثّابت والوحي الرّاسخ. وهل أرسخ من القرآن الكريم صحّة أوّلا. أمّا الصّراحة فهي عمل النّاس. تتبّعت ذلك فألفيت قوله سبحانه ـ من بعد بيان تعاليم الإرث في سورة النّساء أوّلها وآخرها ـ « يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا...» [165]. وقلت في نفسي : لم وصم اللّه سبحانه الذين يخالفون تعاليم الإرث من بعد التبيّن بالضّلال؟ صحيح أنّه جاء بالفعل وليس بالإسم وهذه إشارة تخفيف. لأنّ المعنيين هنا مؤمنون دون ريب. الأمر شبيه بالذين غضب اللّه عليهم من المؤمنين كما تقدّم معنا. ليس زلقا أن يستخدم هنا فعل الضّلال. وما ذلك سوى لأنّ مخالفة المحكمات من الكتاب الحكيم وهي أمّ الكتاب ضلال. وهل أنّ هذا الضّلال كفر؟ الحديث هنا عن مخالفة

---

[165] سورة النساء ـ الآية 176

الشّريعــة في محكم من أمّ الكتاب عمدا وعن بيّنة من لدن مؤمن. هذا يحيلنا إلى الكفر الحديث المعاصر. أي العلمانيّة التي تشترك مع الكفر في ركل الشّريعة ما كان منها محكما بيّنا لا يحتمل أيّ إجتهاد ولا تدعو إليه أيّ ضرورة ولا حاجة.

لم يرد هذا في القرآن الكريم ربّما عدا في هذا الموضع، وربما لأنّه غير وارد إلاّ قليلا، وكذلك لأنّ التّنزيل يراعي مناخات التّنزيل، أي أحوال النّاس أيام التّنزيل. ولكنّه يحتفظ بعمومه وإطلاقه إلاّ ما قيّد أو خصّص بدليل. ولكن لا تفوتنك هذه : المؤمن الذي يتعمّد مخالفة الشّريعة المحكمة الثّابتة الرّاسخة البيّنة بلا أيّ ضرورة ولا حاجة ولا تأويل مقبول مفهوم عليه من اللّسان والشّريعة بيان وسلطان يوصف بأنّه ضالّ. ولكن تضلّ هذه الحقيقة صحيحة : ضلال المؤمن ما دام مؤمنا ليس هو ضلال الكافر ما دام كافرا. ومثل ذلك الغضب على المؤمن مادام مؤمنا والغضب على الكافر مادام كافرا.

الشريعة تقوم على التّمييز لا على الحشر في كيس واحد. فكفر دون كفر وأشدّ الكفر الصدّ عن سبيل اللّه بأيّ ضرب من ضروب الصّدّ. وضلال دون ضلال حتّى في الدّائرة الكفريّة ذاتها. والضّلال يظلّ دوما أخفّ وطأة من الغضب الإلهيّ. وبمثل ذلك إيمان دون إيمان وإسلام دون إسلام وطاعة دون طاعة. واللّه وحده سبحانه من يحكم يوم القيامة بين النّاس جميعا بقسطاس مستقيم.

3 – حصر المغضوب عليهم والضّالين لا دليل عليه

ورد حديث نبويّ حكم عليه بالإرسال، وهو من أنواع الضعف. أنّ المغضوب عليهم هم اليهود، وأنّ الضّالين هم النّصارى. وبغضّ النّظر عن السّند المرسل وطعونات أخرى، فإنّ الثّابت أنّ المنهاج القرآنيّ الكريم يقوم على الإطلاق والتّعميم بحسب الفعل والعمل وليس بحسب الفاعل والعامل ولا بحسب الطّائفة والإنتماء، ولا بحسب التّاريخ ولا حتّى الجغرافيا. المنهاج القرآنيّ الكريم يتجاوز ذلك ليكون فوق الزّمان وفوق المكان وفوق كلّ شيء ليكون صالحا لكلّ زمان ولكلّ مكان متجرّدا تاركا للنّاس إناطة هذا الفعل بهذا الفاعل. وهي مهمّة القضاء في ميزان القضاء ومهمّة غير القضاة من العلماء والفقهاء عندما لا يتعيّن الأمر بفاعل محدّد أو بعامل متعيّن.

وبذلك فإنّ حصر المغضوب عليهم على اليهود وحصر الضّالين على النّصارى لا يتّفق والكتاب الكريم بحال من الأحوال. سيما أنّ الحديث الذي يمكن أن يبيّن الأمر وتلك وظيفته الأولى هو مرسل لا يحتجّ به. العجيب أنّ كثيرا من التّفاسير جرت على ذلك بيسر وسهولة وبجرّة قلم ومرّ أهلها وكأنّ الأمر محسوم فيه، أو كأنّ موجبات غضب اللّه سبحانه على غير المعتنقين لليهوديّة ولّى زمانها، أو أنّ الضّالين من غير النّصارى لا وجود لهم. ذلك هو بعض من معاني أنّ هذا القرآن الكريم كما وصفه الذي أنزل على قلبه ـ فهو به الأعلم ـ لا تنقضي عجائبه ولا يخلق من كثرة الردّ ولا يشبع منه العلماء ويأتي يوم القيامة بكرا كأن لم يعالجه أحد. التأويل عندي هو أنّ أكثر المغضوب عليهم زمن التّنزيل هم اليهود بما سبق الحديث عنه.

من يعود بنفسه إلى القرآن الكريم يبتين كيف أنّه خلع عليهم ذلك الوصف الثّقيل بسبب جرائمهم وليس بسبب أيّ شيء آخر. ولكنّ المغضوب عليهم ليس لهم زمن محدّد ولا مكان محدّد ولا حتّى دين محدّد. كيف وقد قرأنا بأمّ أعيننا كيف أنّ اللّه سبحانه خلع غضبه فعلا وليس إسما على المعتدي على حقّ الحياة البشريّة قتلا بغير حقّ، عدا ما وقع مع الملاعنة؟ هل نصدّق كلام المفسرين حتّى لو أجمعوا وندع كتاب اللّه سبحانه؟ لا أفعل ذلك إن شاء اللّه ولا أحطّ من قدر أيّ عالم وفقيه ومفسّر ومجتهد. ولكلّ نصيبه وحظّه. وبمثل ذلك أعتقد أنّ أكثر الضّالين في تلك الأيام ـ أي أيام التّنزيل ـ هم النّصارى والمشركون وغيرهم. ولكن لا يحصر ذلك فيهم، سيّما أنّي وقفت بنفسي في القرآن الكريم على أنّ أكثر ما إنخلعت صفة الضّلال على المشركين وليس على النّصارى الذين يكون إشتراكهم مع المغضوب عليهم أكثر من إشتراكهم مع الضّالين.

إذا سلّمنا بأنّ المغضوب عليهم هم اليهود وأنّ الضّالين هم النّصارى، فأين حظّ المشركين الذين كان لهم النّصيب الكبير في التّعريض بالإسلام وتهجير أهله وحربه وغير ذلك ممّا معلوم؟ هل يضرب عنهم الذّكر صفحا؟ لم خصّص لهم إذن سورة مكّية كاملة هي من الطّوال من بعد تخصيص البقرة تقريبا أي في جزء كبير منها للكفر اليهوديّ، ومن بعدها أختها الزّهراء الثّانية أي آل عمران للكفر النّصرانيّ؟. وبذلك إتضح أنّ النّاس في الميزان النّهائيّ المكثّف المركّز في هذه السّورة القائدة أصناف ثلاثة:

- صنف المنعم عليهم ممّن فصّل اللّه سبحانه تفصيلا كلّيا في سورة النّساء كما سبق. وهو صنف سيأتي تفصيله بأكثر من ذلك في القرآن الكريم أي أصحاب يمين وظالمين لأنفسهم ومقرّبين أو سابقين أو محسنين بحسب إختلاف التّعابير وسياقاتها.

- صنف الكفار بصفة عامّة. وهؤلاء ينقسمون إلى مغضوب عليهم وضالّين. والذي أذهب إليه أنّ المغضوب عليهم ـ عدا المؤمنين الذي وقع عليهم فعل الغضب وليس إسمه ممّا أنف ذكره ـ هم الشّقّ اليهوديّ من الطّائفة الإسرائيليّة مجاراة لزمن التّنزيل. ولكن تعدية إلى غيرهم بسبب الفعل والعمل والخلق والقيمة. وليس إنحصارا في الفاعل في تلك الأيام أو فيما يليها.

- وطائفة الضّالين، والذي أذهب إليه هو أنّهم مشتركون بين النّصارى وبين المشركين. ولا شكّ أنّ طائفة المنافقين ألحق بالمغضوب عليهم. أمّا تبرئة المشركين هنا من ثوبي الغضب والضّلال معا وخلع ذلك رعاية لزمن التّنزيل فحسب على اليهود والنّصارى فلا يغريني.

المحور الرّابع

خلاصات نهائية وحصائل ختامية

القسم الأوّل من الخلاصات

الحصيلة الأولى

أدعو أهل القرآن الكريم إلى مقاربات متأنّية في بيان موضوعيّ مقاصديّ جامع ومعاصر على أساس أنّ هذا الكتاب الكريم في جزء كبير منه موضوع لتجديد الفهم وتحسين البيان، إذ أنّه لا يخلق من كثرة الردّ ولا تنقضي عجائبه كما ذكر من نزل على قلبه ﷺ. وعلى أساس أنّ الذين تصدّوا لبيانه سالفا أصابوا كثيرا وأخطؤوا قليلا وهم مسؤولون على زمانهم ومكانهم. إذ أنّ الكتاب الكريم هو الخالد الذي لا يخلق من كثرة الردّ وليس مختلف تفاسيره. وعلى أساس أنّ هذه المقاربات المعاصرة سيطويها الزمن هي كذلك ويظلّ الكتاب العزيز بكرا كأنّه لم يفسّر. وعلى أساس أنّ البيان الموضوعيّ أليق بزماننا لأسباب منها أنّ الأمّة في جزء كبير منها ولدت ونشأت في مناخ سياسيّ وحضاريّ شهد إندكاك السّقف السّياسيّ الإسلاميّ بالكلّية في القرن العشرين الميلاديّ .

ومن تلك الأسباب أنّ البيان الموضعيّ القديم كان حاجة داخليّة باء بها أهل العزم من المفسّرين وتولّت الخلافات المتعاقبة على ما فيها من نقائص

حماية السّقف العامّ وعصمة البيضة. أمّا اليوم فإنّ الذي جدّ لم يكن له نظير وهو يتمثّل تحديدا في أمرين خطيرين هما : الغزو العسكريّ الذي بنى له بطانة قبل رحيله وهي الغزو الفكريّ الذي سرق من الأمّة ملايين مملينة من خيرة شبابها المتعلّم المثقّف، ومن ذا نشأت فينا لأوّل مرّة في التّاريخ الإسلاميّ بطانة علمانيّة تنكر جزء مهمّا من الأصول القيميّة للإسلام سيّما في الحقل التّشريعيّ، وهي التي قامت على إمتداد قرن كامل على صياغة العقل المسلم الجديد في إثر تمكّنها من المضغ المجتمعيّة والرّسميّة الصّانعة للسّياسات التّربويّة والثّقافيّة والفكريّة والإعلاميّة والإجتماعيّة والسّياسيّة والفنّيّة.

ثاني الأمرين هو أنّ الدّولة العربيّة الإسلاميّة شهدت لأوّل مرّة في التّاريخ الإسلاميّ تشظّيا وتمزّقا وتجزئة وتبعيّة وإغترابا وولاء لأعداء الإسلام، سواء بتقيّة آلت إلى إمّعية أو بسبب اليأس من الإسلام وشريعته وأمّته. وهو واقع بدأت الأمّة تتخلّص منه بسبب صحوة إسلاميّة واسعة واعدة وبسبب ثورة الإتصالات العارمة. ولكنّ عدوّ الأمّة مازال يصارع من أجل البقاء والهيمنة ويصيب منّا ونصيب منه.

عدوّ الأمة في هذا المضمار تحديدا هو الفكرة الغربيّة بأسماء شتّى وعناوين مختلفة تتدافع فيما بينها، فإذا حضرت الفكرة الإسلاميّة إجتمعت تلك العناوين على قلب رجل واحد إقصاء للفكرة الإسلاميّة سيّما إذا إقتربت من السّلطة والدّولة والتّأثير.

صحيح أنّ العمق الإسلاميّ للأمّة ظلّ وفيّا للإسلام على غبش في الفهم في جوانب كثيرة ومهمّة، ولكنّه ولاء خالص وصحيح. ولكن الأصحّ من ذلك هو أنّ النّخبة القشريّة للأمّة والتي يحتلّها العلمانيّون بمختلف طرائقهم

وكثير من فعاليّات الدّولة العربيّة مازالت مؤثّرة بسبب هيمنتها على منابع القيادة وصناعة القرار وصياغة التّربية والطّفولة، سيّما بعد أن تأخّر دور الأسرة كثيرا وتذرّرت محاضن كثيرة وكبيرة في المجتمع الأهليّ العميق.

الحصيلة الثانية

البيان الموضوعيّ المقصود ليس على أنقاض البيان الموضعيّ السّائد. إنّما هو مكمّل له ومنقذ لملايين مملينة من المسلمين الذين تغبّشت البوصلة الحضارية العظمى فيهم. البيان الموضوعيّ يقصد منه إعادة وصل الأمّة بالصّراط المستقيم رأسا وجسما معا إذ أنّ البيان الموضعيّ لا يعالج ذلك إلا لماما.

البيان الموضوعيّ حاجة منهاجيّة تناسب المنهج النّظميّ للقرآن الكريم نفسه. ذلك النّظم الذي لم يعالج أيةّ قضيّة وبلا أيّ إستثناء في موضع واحد وبتّ فيها أو حسم. إنّما يظلّ يطرقها في مواضع تنقبض وتنبسط وتبثّ في عشرات السّور. ذلك يعني أنّ إلتقاط أيّة قيمة في أيّة قضيّة عالجها القرآن الكريم لا يتأتّى إلاّ ببيان موضوعيّ إستقرائيّ طويل النّفس يتجنّب الإبتسار ويأنف من الإجتزاء.

البيان الموضوعيّ وجهان : بيان موضوعيّ في مستوى السّورة وهذا لنا فيه تفاسير قيّمة سيما من المعاصرين. ولكنّ هذا الوجه نفسه لا يفي بالغرض الذي لأجله يكون البيان الموضوعيّ حاجة معاصرة تعيد وصل الأمّة ببوصلتها المنهاجيّة وليس بالتّفاصيل والجزئيّات فحسب، إذ أنّ أيّة سورة ـ من القرآن المدنيّ ـ عالجت أيّة قضيّة وبتّت فيها. الوجه الثاني هو بيان موضوعيّ في مستوى الموضوع المعالج. هذا عمل كبير ومضن

ويحتاج إلى مكاتب تتولّى البحث والدّراسة لشهور أو لسنوات. ذلك هو البيان الموضوعيّ الذي أرنو إليه.

البيان الموضوعيّ ـ دون الموضعيّ ـ يعيد بناء العقل المسلم المعاصر ليواجه التّحديات المعاصرة وتلك هي وظيفة القرآن الكريم في كلّ زمان وفي كلّ مكان. وذلك هو موضع الإعجاز الحقيقيّ فيه.

الحصيلة الثالثة

البيان الموضوعيّ نفسه وعلى عظم قدره والحاجة المعاصرة إليه، فإنّه يظلّ قاصرا حتّى يتعزّز ببيان مقاصديّ. البيان المقاصديّ ليس على أنقاض البيان النّصّي. البيان المقاصديّ يعني التّمييز بين الآيات الوسائل في الكتاب العزيز والآيات المقاصد تمييزا صحيحا يجعل المسلم المعاصر يقدّم المقصد المراد، فيضعه نصب عينيه ويؤخّر الوسيلة سيّما إذا كانت مرتبطة بزمان التّنزيل. صحيح أنّ النّظم القرآنيّ الكريم معرض أشدّ الإعراض عن الوسائليّة التي فوّت فيها للسّنة النّبويّة. ولكن الأصحّ من ذلك هو أنّ القرآن الكريم يورد في مواضع غير يسيرة وسائل وليس يقصد منها بالضّرورة بعدها الوسائليّ فحسب.

فيما أنف من المقدّمات في المحور الثاني من هذا الكتاب وردت بعض المواضع التي لا مناص فيها من إستخدام البيان المقاصديّ من مثل شهادة المرأة وغيرها. صحيح أنّ التوجّه المقاصديّ اليوم هو مطيّة العلمانيّة إلى نكث أسّ الإسلام من الدّاخل. ولكن الأصحّ من ذلك هو أنّ هذه البضاعة بضاعتي وأنا أولى بها. أي أنّ توفّر التّشريع الإسلاميّ على معادلة الوسيلة والمقصد يجعلني أميّز بين طرفي المعادلة ولا أفرّ من المعركة بدعوى أنّ

خصمي فيها. ذلك أدعى ليكون سهمي فيها أمضى. ولو ترك المصلحون في العهد العبّاسيّ الغزاة يلتقطون المفردات التّشريعيّة ليضربوا بعضها ببعض بدعوى الفرار من معركة ولجها الخصم لكانت كارثة. وعندما يترسّخ في العقول العائهة أنّ المقاصديّة على أنقاض النّصّية، فإن مهمّتي هي إصلاح تلك العاهة وليس الفرار من المعركة.

الحصيلة الرّابعة

هذا القرآن الكريم موضوع للنّاس جميعا لأجل الفهم والعمل وحسن الإخراج، ليكون موضوع حوار مع غير المسلمين وليحكم بين النّاس بالحقّ. السّبيل إلى ذلك يكون بالتّدبّر والنّظر، ولذلك تعزّر هذا الكتاب بمنهاج أخّاذ يركل التّلقين والتّقليد معا ويحيل الإنسان إلى الكون وهو الكتاب المنظور لأجل إقتناء إيمان صحيح وعقيدة راسخة دونها الكدّ والجدّ والسعيّ والكدح وليس هديّة بالمجّان. كما يحيل ذلك المنهاج إلى التّاريخ أي إلى القصّة وهي مرآة البشريّة التي تعكس لها الماضي بما فيه من خير ومن شرّ. كلّ ذلك إحتلّ من القرآن الكريم زهاء ثلاثة أرباع. ذلك يعني أنّ القرآن الكريم كتاب معاصر لأنّه يحيل دوما على شيء معاصر متجدّد وهو الكون وعلى التّاريخ الذي لا يقصر على ما سجّل هو منه بل يدعو إلى النّظر في كلّ تجربة. المقصد الأسنى من ذلك المنهاج هو أنّ هذا الكتاب يهدي الإنسان إلى نفسه وإلى ربّه وإلى القيم الإنسانيّة النبيلة التي بها يعالج النّاس من حوله وإلى الكون لأجل تسخيره لرغد عيشه وصناعة العلم والعرفان بشكل لا يعرف حدودا. بل إنّ الأمر على الضدّ من ذلك إذ كلّما توغّل المرء في العلم والمعرفة ترسّخ إيمانه وتشبّع برسالته.

الحصيلة الخامسة

لحسن فهم هذا القرآن الكريم وليكون جهاز بثّ ينشر السّكينة والطّمأنينة والخير وكّل القيم النبيلة التي تليق بالإنسان، فإنّ نظمه جاء على مستويات مختلفة، ومن ذا فإنّه موضوع ماء غدقا ينهل منه كلّ بقدر ما يحتمله واديه ليستوي في ذلك راعي الإبل في الصّحراء اليابسة مع العلماء في مخابرهم يتتبّعون إنفلاق خليّة حيّة لا ترى إلاّ بالمجاهر المعاصرة إلى ما لا يحصى من البييضات.

صحيح أنّ هذا القرآن الكريم موضوع من حيث الفهم العامّ لكلّ النّاس، ولكن حظّ المستنبطين منه في شتّى التخصّصات العلميّة والمعرفيّة لا يكون إلاّ بإجتراح أصول تعتمد لذلك الإستنباط. ذكرت بعض تلك الأصول في المحور الثّاني.

خير تمثيل عندي لهذا القرآن الكريم هو أنّه بحر لا تحيط العين بشطآنه يراه الرّائي هادئا منسابا، فيغريه بالغوص فيه إبتغاء حلية أو صيد ثمين، فإذا وقع فيه أدرك أنّ ذلك الهدوء الظّاهريّ مغر يدغدغ ولكنّ الحقيقة أنّه عميق لا يظفر منه الصيّاد من شيء إلاّ بقدر تجهّزه لذلك وإلاّ فهو غريق لا محالة. من تلك الأصول : اللّسان العربيّ والعلم بالسّنة والسّيرة وإجماعات الصّحابة والعلم بتراتبيته الدّاخليّة وأبعاد الإحكام فيه والتّشابه ومراعاة سياقات النّزول الأولى وسحر فواصله ومراعاة منهاجه الذي يقدّم هذا ويؤخّر ذاك ورسالته العامّة قبل مقاصده الكلّية والجزئيّة وطبيعته التّوحيديّة الموضوعيّة المتأبّية عن الإبتسار والتّعضين، وأنه لا مناص من تأسيس الميزان معه لتأمين الفهم الصّحيح، وأنّه كتاب جاء لبناء أمّة وأنّ

لا حظ للفرد فيه إلاّ بقدر إنصهاره في الحظّ العامّ، وأنّه لا يهب المرء فكرة بالمجّان ولكن يعلّمه منهاجا تفكيريّا وسطيّا معتدلا متوازنا يعالج به الدّين والدّنيا معا، بتجدّد لا تقليد فيه ولا ركود، وأنّه معجز إعجازا يغطّي كلّ زمان وكلّ جيل وليس إعجازا بيانيّا فحسب ولّى ومضى، وأنّه يحمل في أحشائه قوانين السّؤدد وسنن الترهّل معا.

القسم الثاني من الخلاصات

الحصيلة الأولى

سورة الفاتحة هي السّبع المثاني التي تقود القرآن الكريم كلّه. هي غرفة القيادة فيه وهي خلاصته العامّة الرّاسخة المكثّفة المركّزة المحكمة. ولذلك لا صلاة إلاّ بها.ولذلك نردّدها كما لا نردّد أيّ كلام سواها أي بمعدّل مرّة واحدة تقريبا كلّ ساعة على مدار الحياة. المقصود من ذلك التّرديد هو إعادة بناء الشّخصيّة الإسلاميّة على أساس القيم التي جاءت بها تلك السّبع المثاني. فإن لم يكن ذلك كذلك فهو عبث معبوث دون ريب.

السّبع المثاني مبنى ومعنى معا. أمّا مبناها فلأنّها تثنّى من المصلّي بتلك الوتيرة الرّاملة رملا، ولأنّها تأتي بفاصلات متشابهة في الأداء الصّوتيّ الجميل تغنّيا. أمّا معناها فلأنّها بقيمها السّبع تلك تملأ القرآن الكريم كلّه من سورة البقرة حتّى سورة النّاس.

السّبع المثاني هي القيم السّبع العظمى التي تهدي الإنسان صراطه المستقيم، لينعم بالحياة الطّيبة في الدّنيا وبدار الحيوان في الآخرة. السّبع

المثاني هي قيم إلى جانب أنّها مسموعات نتغنّى بها تلاوة.

ومن ذا فإنّ فاتحة الكتاب هي عاصمة البيان وربّان سفينة القرآن الكريم وهي فهرسته ومجمع قيمه عندما تتكثّف وتتحرّر وتتلخّص وتتركّز، ولذا جاء موقعها في التّرتيب في موقع القيادة. قد لا يتوفّر لملايين مملينة من النّاس لأسباب كثيرة عدم سماع القرآن الكريم ولو مرّة واحدة أو عدم تبيّن ما فيه على وجه كامل. هؤلاء ـ وهم واقع في الحياة وليس إفتراضا أو خيالا ـ حظّهم في حده الأدنى تلك السّبع القيم العظمى التي تكتنز القرآن الكريم كلّه في مثاني سبع قصيرة يسيرة الحفظ ويظلّ الإنسان يزكّي بها نفسه صباح مساء، ليل نهارا، سرّا وجهرا، حتّى تكون غذاء لشرايين قلبه وأوردة فؤاده، فلا يضلّ ولا يشقى.

الحصيلة الثانية

خلاصة تلك القيم السّبع المتدثّرة في مثاني سبع هي أنّ اللّه سبحانه محمود إبتداء وإنتهاء إسما وبجملة إسميّة إخباريّة لا دعوة. وأنّه سبحانه هو ربّ العالمين الذي يدبّر أمر العالمين جميعا. وأنّه سبحانه هو الرّحمان الرّحيم الذي لا يقنط من فضله قانط بلغت ذنوبه عنان السماء فاخترقتها، ولا ييأس من حلمه يائس ملأ الأرض جورا وفسادا. هو الرّحمان الرّحيم إسما وليس فعلا وبأعلى صيغ المبالغة. وهو الرّحمان الرّحيم متوسّطا العالمين في الدّنيا ويوم الدّين في الآخرة لتكون رحمته عامّة هنا وهناك. وهو مالك يوم الدّين، فلا يحتاج إنسان إلى شفاعة من غيره إلاّ أن يأذن هو بنفسه سبحانه لمن يشاء من أهل الشّفاعة. تلك هي هويّة اللّه سبحانه

وتلك هي أعظم أسمائه المقدّمة التي عليها مدار هويته كلّها وما عداها مما بثّ في القرآن العظيم وهي بالمئات المئينة نباتات منها وأغصان.

ذلك هو اللّه سبحانه، والعلاقة بينه وبين الإنسان مبدؤها الحمد الذي يلهج به لسان الإنسان مرّة واحدة كلّ ساعة على الأقلّ على مدار الحياة. أليس الحمد للّه تملأ الميزان؟ وأنّه سبحانه باعث النّاس إلى يوم لا ريب فيه سمّاه يوم الدّين، أي يوم الحساب، إذ له على الإنسان دين العبادة والحمد والإقرار له بالربوبيّة والإلهيّة والأمل في رحمته.

تلك هي عقيدة الإسلام في جذرها الأعمق : الله سبحانه كما وصف نفسه ويوم القيامة أي يوم المحكمة التّعقيبيّة الأخيرة. يوم الدّين معناه أن يظلّ الإنسان مشدودا إلى ذلك اليوم إنشداده إلى يوم الحساب في الدّنيا عندما يعرض على محكمة، فهو يفعل كلّ شيء لبراءته. يوم الدّين معناه أن يظلّ الإنسان عابدا لربّه من جهة ونائيا بنفسه عن الإنسان كلّه أن يطأ منه حرمة ماديّة أو معنويّة. يوم الدّين معناه أن يعصم الإنسان نفسه ممّا يعيب إنسانيّته إيمانا منه بالغيب. لكلّ تلك القيم والأبعاد تقدّم الإيمان باللّه وباليوم الآخر، وما عداهما معلوم معروف يسير.

الحصيلة الثالثة

خلاصة تلك القيم السّبع ـ عندما يتحوّل مصدح الحديث في الصّلاة إلى الإنسان الذي يصرّح بنفسه سرّا وجهرا بقوله «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ»ـ هي أنّ رسالة الإنسان في الحياة مزدوجة متكاملة : فهي

إفراد اللّه سبحانه وحده بالعبادة وإفراده سبحانه في إثر ذلك ـ بل في أثناء ذلك ـ بالإستعانة. كيف يعبده؟ القرآن الكريم يفصّل ذلك وحسب السّبع المثاني تكثيف القيم السّبع.

السّبع المثاني رسالتها نحت النّظرية الإسلاميّة والقرآن الكريم رسالته تفصيل تلك الرّسالة النّظريّة لتكون واقعا ملموسا. تلك هي هويّة الإنسان التي يعبّر عنها بلسانه هو بتلك الوتيرة اليوميّة المتعاقبة. يستعين ربّه بالصّلاة جرعات روحيّة ومعارج نفسيّة تنفث الرّاحة ويستعين ربّه بالصّبر، إذ أنّ الحياة معركة ملؤها الكدح والكبد والسّعي والنّصب. لا مناص من الصّبر لأنّ الحياة زينة وليست حقيقة فلا يصطدم المرء باليقين إلاّ عندما يموت.

الحصيلة الرّابعة

وسيلة الإنسان إلى تحقيق رسالته (العبادة الخالصة والإستعانة الخالصة) هي الدّعاء الضّارع. ولذلك يظلّ لسانه لاهجا بهذا الدّعاء بتلك الوتيرة اليوميّة « اهْدِنَا». لا مناص من توسيع دائرة الهداية، إذ أنّ المهتدي وحده في غابة من الضّالين لا يأمن خيرا. يسأل ربّه صباح مساء ليل نهار الصّراط المستقيم بطرفيه : رأس عنوانه التّوحيد الصّافي عفوا من كلّ شائبة شرك عرفانا للرّحمان الرّحيم سبحانه بحقّه وجسم عنوانه الإحسان إلى النّاس جميعا، بدء من الوالدين ونهاية بالصّاحب بالجنب، ومرورا بما بينهما. الطريق إلى اللّه لا يكون مستقيما حتّى يجمع أسّ القوامة كلّها وحدّها الأدنى عبادة اللّه بإخلاص والنّأي عن الولوغ في حقوق الإنسان بأيّ معنى من معاني الولوغ. ذلك الصّراط القويم مسلوك من البشر

قبلنا. منهم من عصم اللّه من النّبيّين ومنهم من هو مثلنا لا عاصم له إلاّ عزمه وعمله بإذن اللّه، وهم الصدّيقون والشّهداء والصّالحون. ذلك الصّراط واقعيّ إنسانيّ بشريّ، ومن ذا فهو مستقيم قويم مقدور عليه. تلك هي نعمة الهداية التي ينعم بها سبحانه على من ينشد رضى ربّه إذ أبى سبحانه إلاّ أن يكون الإنسان حرّا مريدا مختارا لا يكره على شيء حتى من لدن مولاه نفسه.

الحصيلة الخامسة

ذلك الصّراط المستقيم بسبب أقوى سنن اللّه في كونه وخلقه أي سنّة الزّوجيّة له ضرار يغالبه وهو ما يسلكه المغضوب عليهم والضّالون. هو صراط يتميّز عنهم. عنوان ذلك الصّراط هو إجتناب ما يغضب اللّه سبحانه. ما يغضبه سبحانه هو الكفر الجحود الذي يتدثّر بالكبر والغرور ومن ذا «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا»[166]. الكفر ضروب لا تحصى تتجدّد صورها بمكر اللّيل والنّهار. منها الإنتماء الوثنيّ وعبادة الملائكة، ومنها الإنتماء الكتابيّ من بعد ظهور الرّسالة الأخيرة، ومنها النّفاق الجبان الأخرق وغير ذلك ممّا لا يحصر بصورة ولكن يحصر بقيمة.وكيف لا يغضب الرّحمان الرّحيم على من يعرف ربّه الحقّ ثم يؤثر نفسه كبرا وغرورا؟

كما يغضب اللّه سبحانه على المؤمن الذي يعتدي على حقّ الإنسان فيقتله ظلما، لأنّ الإنسان كائن مقدّس والحياة هبة الرّحمان الرّحيم

---

[166] سورة الاسراء – الآية 15

فمن يئدها بلا حقّ يلحقه الغضب. كما يغضب سبحانه على من يؤثر نفسه على مقامه الكريم وهو مؤمن مقسم به أربع مرّات متعاقبات أنّه بريء وهو يعلم أنّه غير ذلك. ويغضب سبحانه على من يركل مؤسّسة الأسرة المقدّسة : آخر حصن للإسلام وأمّته ويهرق عرض شريك الزّوجيّة على قارعة الطّريق. ومثل ذلك الطّريق المفضي إلى النّار طريق الضّلال وهو شريك طريق الغضب حتّى لو كان أقّل منه وطأة سيما لمن عرف الحقّ وأصرّ على إضلال نفسه أو النّاس.

كلمة الوداع

الحمد لله الذي يسّر لي هذه المقدّمة لبيان موضوعيّ مقاصديّ جامع للقرآن الكريم أعكف عليه إن شاء اللّه ما مدّ الله في العمر. هذه محاولة، وهي مقاربة. هي وجهة نظر في فكرتها المؤسّسة الأولى وعنوانها أنّ السّبع المثاني هي القيم السّبع التي تقود القرآن الكريم كلّه، وأنّها مرجع كلّ ما ورد فيه مفصّلا، فهي بذلك عاصمة كلّ بيان وقاعدة كلّ تفسير. من رأى في هذه المقدّمة ـ سيما في فكرتها المؤسّسة ـ خيرا فبها ونعمت ومن رأى الأخرى فليتصدقنّ على طويلب علم حاب بالنّصيحة والتّعليم.

أفدت في إعداد هذه المقدمة بشتّى محاورها من مراجع كثيرة ومصادر غزيرة أذكر منها هنا ما يأتي:

أوّلا : التفسير التوحيديّ للدكتور حسن عبد الله الترابي عليه الرحمة

ثانيا : التحرير والتنوير للإمام إبن عاشور عليه الرحمة

ثالثا : في ظلال القرآن الكريم للأديب المفكر سيد قطب عليه الرحمة

رابعا : كيف نتعامل مع القرآن الكريم للإمام يوسف عبد الله القرضاوي

خامسا : كيف نتعامل مع القرآن الكريم للشيخ محمد الغزالي عليه الرحمة

سادسا : نحو تفسير موضوعيّ للشيخ محمد الغزالي عليه الرحمة

سابعا : المحاور الخمسة للقرآن الكريم للشيخ محمد الغزالي عليه الرحمة

ثامنا : النبأ العظيم للشيخ محمد عبد الله دراز علي الرحمة

تاسعا : العقيدة الإسلامية وأسسها للشيخ عبد الرحمان حبنّكة الميداني عليه الرحمة

عاشرا: البوصلة القرآنية للدكتور أحمد خيري العمري

حادي عشر : التفكير فريضة إسلامية لعبّاس محمود العقّاد عليه الرحمة

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

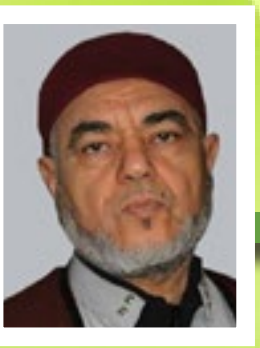

المؤلّف

الهادي بريك من مواليد 6 جوان 1955 بمدنين (تونس).

* إمام مسجد الرحمة بمدنية دنسلاكن الألمانية.

* من مؤسّسي التجمع الأوروبي للأئمة والمرشدين وعضو مجلس الأمناء.

* من مؤسّسي هيئة الدّعاة والعلماء بألمانيا.

* داعية وكاتب في مواقع إلكترونية كثيرة من مثل : «تونس نيوز » و«الحوار. نت » و «الإصلاح » وغيرها.

* عضو مجلس الشورى بحركة النهضة التونسية.

* نائب رئيس جمعية مرحمة الإغاثية.

* متزوج وأب لستة من الولد وسبعة من الحفدة .

للاتصال بالمؤلّف عبر البريد الالكتروني: brikhedi@yahoo.de

ISBN 978-9938-59-788-2

كتاب الإصلاح

الكتاب الثالث والثلاثون - جوان 2021